المركز القومى للترجمة

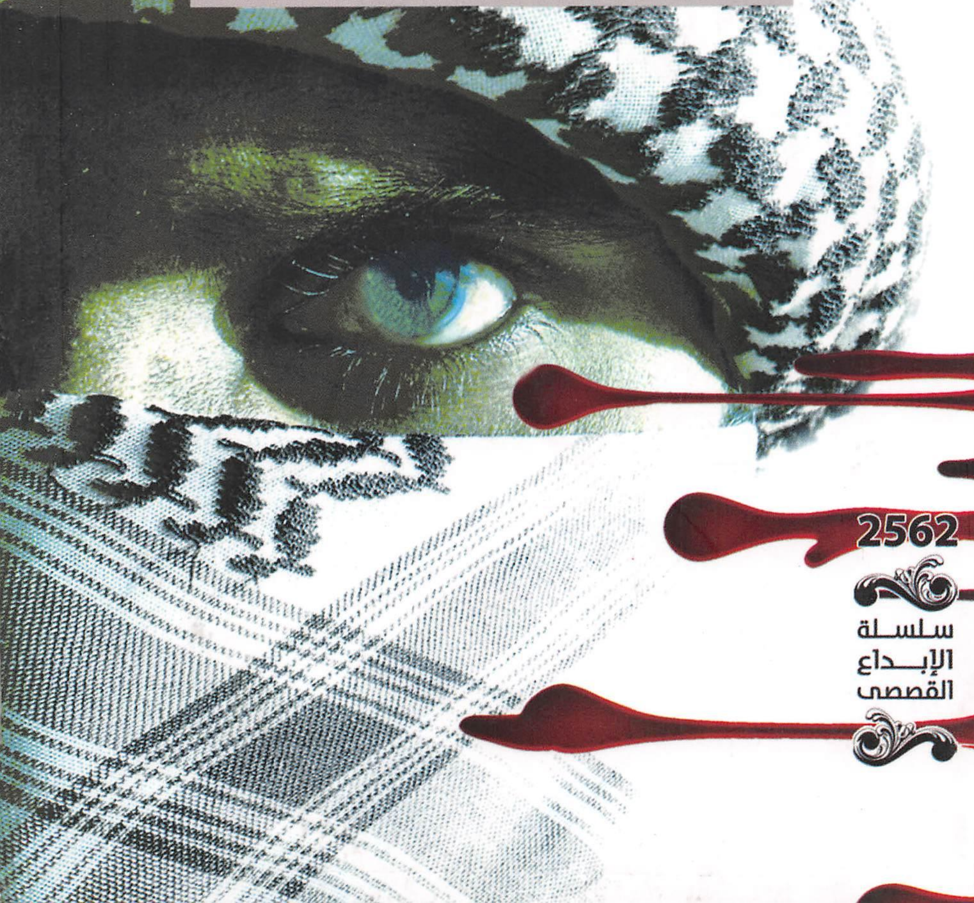
GOETHE INSTITUT

كريستوف بيترس

حجرة فى دار الحرب

ترجمة

هبة اللّه فتحى



2562

سلسلة الإبداع القصصى

الروائى كريستوف بيترس، المولود فى ألمانيا عام 1966، له اهتمام خاص بالعالم العربى والإسلامى، منذ أن زار مصر فى بداية التسعينيات من القرن العشرين، وقد أثمرت هذه الزيارة روايته هذه "حجرة فى دار الحرب" عام 2006.

موضوع الرواية شاب ألمانى يعتنق الإسلام فى بداية التسعينيات، ثم ينخرط فى الفكر المتطرف، وينضم إلى مجموعة إرهابية تخطط للهجوم على معبد الأقصر. وبعد أن يفشل الهجوم وتقبض السلطات المصرية على الشاب يتولى السفير الألمانى القضية محاولاً تسليمه لبلده ألمانيا ليتفادى حكم الإعدام، ويكشف الحوار بين السفير والشاب عن فكرة أساسية: أن التطرف موجود فى كل المجتمعات البشرية، ولا يرتبط بدين معين.

تصميم الغلاف: عبد الحكيم صالح

حجرة فى دار الحرب

رواية

المركز القومى للترجمة
تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور
مدير المركز: أنور مغيث

سلسلة الإبداع القصصى
المشرف على السلسلة: خيرى دومة

- العدد: 2562
- حجرة فى دار الحرب
- كريستوف بيترس
- هبة الله فتحى
- اللغة: الألمانية
- الطبعة الأولى 2015

هذه ترجمة:

Ein Zimmer im Haus des Krieges

Christoph Peters

The translation of this work was supported by a grant from the Goethe-Institute which is funded by the German Ministry of Foreign Affairs

شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.

E-mail: nctegypt@nctegypt.org Tel: 27354524 Fax: 27354554

حجرة فى دار الحرب

رواية

تأليف: كريستوف بيترس
ترجمة: هبة الله فتحى

2015

دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

دار الكتب والوثائق القومية

بيترس، كريستوف.
حجرة فى دار الحرب: روائع/ تأليف كريستوف بيترس، ترجمة هبة الله
فتحى .- القاهرة: وزارة الثقافة، المركز القومى للترجمة، ٢٠١٥
عدد الصفحات: ٣٣٦ صفحة.
المقـــــــاس: ١٤ × ٢٠ سم.
تدمك ٩٧٨٩٧٧٩٢٠٠٥٣٨
١- القصص الالمانية
أ - فتحى ، هبة الله (مترجم)
ب - العنوان ٨٣٣

رقم الإيداع
٢٦٧٦٧ / ٢٠١٤

مطابع الأهرام التجارية - قليوب

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى، وتعريفه بها. والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز.

المحتويات

تنويه

تعرض رواية "حجرة في دار الحرب" للكاتب الألماني كريستوف بيترس، من خلال شخصية يوخن عبد الله سافاتسكي، لفكرة الإرهاب في أكثر أشكاله تطرفًا، وتحاول رصد الخلفية النفسية التي تدفع شابًا في مقتبل العمر إلى القيام بأعمال إرهابية نتيجة لقناعاته الفكرية، فتودي بحياة الآخرين وأيضًا بحياته إن تطلب الأمر، بحيث يتضح للجميع أن معظم المجتمعات قد مرت بشكل من أشكال التطرف، دون أن يرتبط ذلك بدين أو مجتمع بعينه.

وجاءت ترجمة النص مطابقة لما ورد في اللغة الأصلية، دون أي تدخل في لغة الشخصيات وأسلوبها أو ما تعبر عنه من قناعات، وهو ما ترتب عليه أحيانًا ألفاظ وأوصاف لبعض الشخصيات السياسية المعروفة، وهي ألفاظ وأوصاف منسوبة لشخصيات الرواية وتعبر عن وجهة نظرها، ولا تعكس بأي حال من الأحوال رؤية المترجم.

إهــداء

إلى فيرونيكا

مع حبى ،،،

من أجل الحفاظ على حرية الفكر فى مجال العلوم السياسية كما عهدناها فى الرياضــيات؛ حرصت على عدم السخرية من الشئون الإنسانية، فلا أبدى أسفًا ولا أصدر أحكامًا بل أفهمها.

شبينوزا

حتى مع اتساع عينى لا أكاد أرى شيئًا.

تاكيشى كيتانو

الجزء الأول

يراودنى بين الصلوات حُلمٌ بأن أَرْوَى نظرتُ إلىَّ نظرة طويلة؛ رغم أنها لا تتعدى الجزء من الثانية . . نظرة لا هى مشجعة ولا نافرة . . عيناها كأنهما هوتان سوداوان اختفى فيهما كل شىء . . أغمضت عينيها وأشاحت بوجهها . . انسدل شعرها على كتفيها . . كان يجب عليها أن تغطيه . . أيقظنى شعور بالحزن . . ليس هذا هو الشعور المناسب الآن؛ لكنه على الأقل ليس خوفًا . . أحاطنى الظلام من كل جانب ، حتى الوهج فى الموقد لم يضىء المكان . . اعتدلت جالسًا . . بدا الخولى مُحَدَّد المعالم فى مدخل الكهف وبندقيته الآلية تفصل السماء عن اليابسة . . كان الليل خارج الكهف- على غير العادة- مضيئًا . . قمره يضىء الجبال ويلقى بظلال حادة على المنحدرات . . علق بسقف الكهف دخان بارد ، توغلَ فى الملابس والملاءات ، وأذاق الأفواه المرارة . . أحمد يهذى وجمال يصارع كابوسًا؛ بينما الهواء محمل بروائح منبعثة من أجسادنا.

نهضتُ باحثًا عن سجادة الصلاة وتحسست طريقى إلى المدخل . . انتفض الخولى فزعًا . . دون كلمة واحدة مررت من أمامه تتبعنى نظراته المتشككة . . لوهلة ظننت أنه قد يفقد صوابه ويصرخ ويطلق النار . . لم يحدث أى شىء من ذلك . . النجوم ساطعة دون أن توحى لى بأى تنظيم فى السماء . . جثيت وضربت بيدىَّ فوق الرمال وتيممت ثم فرشت السجادة واستقبلت القبلة.

﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾
وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾

أبى وجه أروى، كما رأيته فى الحلم، أن يفارقنى .. لم أهدأ.. كتل من الصخور هوت من حولى وتبعها سيل من الحصى.

جلستُ وظللتُ جالسًا؛ أحاول استجماع قواى وترتيب أفكارى التى تجول بخاطرى، لأستحضر صورًا من ماضٍ لم أعد أملكه.. فى الصباح الباكر تجلس أمى السمينة وحدها مرتدية بدلة رمادية أمام التلفاز وتتناول المكسرات، إلى يمينها فنجان القهوة وإلى يسارها فطورها، وهى سعيدة بوظيفتها المتميزة بوصفها محاسبة لا يمكن إقالتها من القطاع الحكومى .. نوع من الحب.. رؤية من أعلى على نهر الراين الذى تغطى الشبورة ماءه .. دخان الحشيش فى فمى والزجاجة فى يدى وصوت صراصير الليل من حولى يفوق صوت قطارات البضائع، أنتظر فى المقهى رجلاً عقد شعره كذيل حصان ويدعى (فالكو)، وقبل أن يقدم نفسه أشم رائحة الخيانة، تقف أروى بقوامها الممشوق أمام مطعم البيتزا.. كم أود أن أسألها عن اسمها ولكننى لا أجرؤ على ذلك.

يرن جرس منبه سمير فى الساعة الخامسة.. يبدأ يومنا المنتظر بصوت قبيح يتكرر سبع مرات يلاحقه الصدى: سوف نصل وفقًا للخطة إلى المعبد بعد ثمانى ساعات.. أصوات خافتة.. لا تقال إلا الأمور الضرورية على الرغم من أن البيوت على مسافة بعيدة منا.. يُهدِّئ الخولى نفسه، تتبعه أضواء المصابيح، ويخطو سمير إلى جانبه ليستطلع الأجواء.. ما زال الليل دامسًا ولكن فى غضون دقائق سوف يطلع النهار، يهمس الخولى بشىء إلى سمير مشيرًا إلىّ؛ فهو يعتبر مشاركتى خطأ.. يخرج الإخوة واحدًا تلو الآخر متجهين إلى ساحة الرمال ليزيلوا دنس النوم عن أجسادهم..

أتبادل بعض الجمل باللغة الألمانية مع كريم . . يحكى عن أخته التى تعمل نادلة فى إحدى الحانات التى يرتادها طلبة الجامعة . . منذ وفاة أبيه وهو يتحمل مسئوليتها، ولكنها مسئولية ليس أهلاً لها.

يغتاظ الخولى لمجرد أنه لا يفهم أحيانًا ما نقول . . يشير سمير إلىَ قائلاً: «يجب قبل المعركة أن نجد السكينة»، فأرد: «الله هو منبع السكينة» . . أشعر الآن ببرد الصحراء قبل شروق اليوم الجديد . . تكونت فوق بشرتى طبقة من العرق الجاف التى امتزجت بالتراب.

يبدأ الشروق خلف الجبال على الجانب الآخر من الوادى بشريط مضىء أخذ ينتشر . . يحين وقت صلاة الصبح . . ربما تكون الأخيرة . . نقف صفًا واحدًا خلف سمير مستقبلين القبلة جنبًا إلى جنب مع إبراهيم وإسماعيل وعيسى ومحمد، مع جميع المؤمنين من قبلنا ومن بعدنا.

﴿ وَالْفَجْرِ (١) وَلَيَالٍ عَشْرٍ (٢) وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ (٣) وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ (٤) هَلْ فِي ذَٰلِكَ
قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ (٥) أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ
مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (٨) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ (١٠)
الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ (١١) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (١٢) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ
عَذَابٍ (١٣) ﴾

حينما يلمس جبينى الأرض؛ ينطفئ العالم المرئى وتغلف الصور العالم الخفى . . شقتى أنا بالأحرى شقة أمى معبأة بلعب الأطفال

على شكل الدبية، الستائر ترفعها شرائط مزرقشة . . فيضانات وزيارة القسيس للبيوت بالمركب للمباركة، يرسم الناس إشارة الصليب حينما يمر من أمامهم . . ذراعى مطوية خلف ظهرى وضابط التحريات يدفع بى إلى داخل السيارة.

«السلام عليكم ورحمة الله وبركاته» . . ألتفت إلى اليمين وإلى اليسار ثم أنهض، وقد طويت السجادة، أرى طائرًا يحوم فوقنا وهو متجه نحو النيل . . شريط الضوء الرمادى تحول إلى اللون الأصفر الذى بدأ يتوغل فى اللون الأسود الذى يعلوه . . تشرق حافة الشمس بلونها البرتقالى فوق السهول وتشعل الصحراء . . صرخ الخولى :«اجمع أغراضك يا يوخن»، أجبت: «أنا اسمى عبد الله»، وتدخل محمد مستاءً: «كفوا عن الصراخ». أذهب إلى مكانى داخل الكهف وأفرش الغطاء لأضع فوقه البلوفر والمعلبات والكتب ومجموعة من الخطابات بالإضافة إلى تفويض خطى بالتصرف، أما مصحف (أروى) الصغير الذى يحمل أحمر شفاهها فأضعه فى جيب بنطالى.

أشعل شكرى موقد الغاز ووضع الماء فوقه . . لا ينزعج من الرائحة الكريهة التى تملأ المكان من تسعة رجال أمضوا ليلتهم بعد رحلة سير على الأقدام لمدة يوم كامل فى حرارة الصحراء، فلقد تربى وسط ستة إخوة . . يعيش مع أسرته فى غرفة واحدة مبنية من الطوب اللبن . . لا غرفة مستقلة بمفتاح وجهاز تشغيل موسيقى وآلة جيتار أو كرسى مكتب طبى . . أفتح علبة فول وأضعها فى إناء وأناول شكرى كوبى ليعطينى قليلاً من الشاى المحلى.

الشــمس بازغة فوق الجبال . . ما زال الكلام قليلًا، فكل واحد منًا مشغول الفكر، يحاول إعداد نفسه لمهمة يصعب الاستعداد لها، لا يطرح ذلك السؤال العبثى: ماذا لو كانت الحال مختلفةً؟

الشــاى يمنح الدفء ويزيـد الانتباه، الأمور واضـحة وهناك تركيز عالٍ؛ إلا أننا نعانى من قلة النوم والبطون الخالية.

ســوف يموت كثيرٌ من الألمان والأمريكان . . إن شاء الله . . لــم أعـد أكرههم؛ فهـم ليســوا ذوى أهمية . . لكل أجـل كتاب . . عندما يأتى وقته لا ينطفئ نجم فى الســماء . . ويوم الميعاد ستشهد عليهم جلودهم، فإمــا الجنة وإما الحطمة ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحُطَمَةُ ۝٥ نَارُ ٱللَّهِ ٱلۡمُوقَدَةُ ۝٦ ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلۡأَفۡـِٔدَةِ ۝٧ إِنَّهَا عَلَيۡهِم مُّؤۡصَدَةٞ ۝٨ فِي عَمَدٖ مُّمَدَّدَةِۭ ۝٩﴾. أنا مجرد أداة، فغضــب اللــه قد فاض؛ لأن آخر جماعاتــه أدارت لــه ظهرها، وارتدّت – فيما عــدا قلة منهم – إلى أيــام الجاهلية الأولـــى، أما البقية فهـم فى حالة حــرب إجبارية، فنحن ندافع عن دار الإســلام التـــى باعها الرئيس وأعوانه بملايين الدولارات، باعوا ما لا يملكونه، بل ســرقوه بواســطة أسلحة من أمريكا وأوروبا تمامًا مثل عصــابة آل سعود التى تركت الأراضى المقدســة لهؤلاء الكفار كمنطقة لانتشــار القوات عندما تقوم حرب صــليبية جديدة باسم أصــنام البترول . . ربما نموت . . وما أهمية بضعة أيام أكثر أو أقل ؟ من المضحك أن نتعلق بها.

يأتى شــكرى بإناء الفول وهو يســبح فى الزيت . . يبدأ بســمير الذى لم يتوقع ذلك، بل على العكس يفضــل أن يكون الأخير؛ لأن

ما يميزه أكثر من علمه وخبرته هو تواضعه، ولكن يصر شكرى على أن يخدمه أولًا، لأنه تربى على الخوف ممن هو أعلى منه، تَعَوَّد على أن السلطة تمنح امتيازات . . آخذ قليلًا من الفول لأن معدتى لم تتعود بعد على الفطور المصرى، حتى بعد مرور تسعة أشهر . . يأتى جمال بخبز بلدى ونجلس فى دائرة مفتوحة ونتناول الطعام فى صمت . . أجلس بين كريم وأحمد؛ بينما يحافظ الخولى على أكبر مسافة ممكنة بيننا . . بندقيته الآلية فى متناول يده ومُصَوَّبة نحوى . . ربما هى صدفة؟ لن يأخذ بندقيته معه، لقد اختلفنا إذا ما كان هجومنا مسلحًا أم لا، وتمكنت من إقناع الجميع بأسباب عدم استخدام السلاح، فيما عدا الخولى . . فالهزيمة تمثل جزءًا من مرارته وليست سببًا لها . . تعارفنا منذ ثلاثة أشهر قرب أسيوط ولم أجد منه سوى احتقار على الرغم من معاملتى الطيبة له . . جميعهم استقبلونى بمنتهى الاحترام؛ لأننى لم أولد على الإسلام ولكن بحثت عنه وحدى وانتهت رحلة البحث بهداية من الله . . يقول كريم: «إن هذه نعمة كبيرة»، ولكن لا أظننى أستحقها.

تكتسب السماء الآن لون النهار الشاحب . . يمحو الغُبار معالم سلاسل الجبال البعيدة . . يبدو صلاح متوترًا، يسقط الفول من خبزه فى الإناء . . يتحسس ذقنه المُنَبَّتة ويمر بيده فوق شعره كأنه يبعد الذباب الذى لا يوجد هنا من الأصل . . يشعر سمير بتوتره فيضع يده على ذراعه . . تفيض عينا صلاح بالعرفان ثم يلقى بنظرة سريعة إلى وجوهنا، تُعَبِّر عن قلقه من أننا ربما لاحظنا خوفه . . يقول: «الله أكبر، سوف يحفظنا، أنا متأكد من نصرنا مثلما انتصر النبى فى موقعة بدر».

يجب أن يتكلم ليسمع خواطره وإلا لن يصدقها . يقول سمير: «إن شاء الله»؛ ويتمتم كل من محمد والخولى: «إن شاء الله»، يصمت صلاح . . ما زال شابًا فى العشرين من عمره، قضى تسعة عشر عامًا الأولى كابن مدلل لأمه فى حى الزمالك الراقى؛ بينما قام أبوه بتدريب فرق خاصة فى منطقة الخليج مقابل الكثير من المال . . نظر كريم إلىَّ وهز كتفيه حائرًا، حيث يشكل ضعف صلاح خطرًا ولكن كريم لا يقول ذلك، يبحث عن مزحة بريئة تضحكه ولكنه يتراجع . . ليس هذا هو الوقت المناسب لإطلاق النكات . . وبدلًا من ذلك يرتل: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾ . . يومئ صلاح قائلًا: «الحمد لله».

يزغلل الضوء عينَىَ فأضع نظارة الشمس، قزحية عيناى الزرقاوَيْن أشد حساسية مقارنة بعيون إخوانى الداكنة. ما زال سمير يأكل، فهو يمضغ كل لقمة بتمهل ولا يترك شيئًا فى صحنه، لا يرفع نظره بينما نتجه نحن بأنظارنا واحدًا تلو الآخر نحوه . . نظرات ثمانية أزواج من العيون استقرت بتشوق على وجه لا ينم عن أى انفعال.

بعد أن لعق أصابعه أدخل الأطباق إلى الكهف . . لا يصدر عنه أى حركة جامحة أو عديمة الفائدة، لم أسمعه قط يتفوه بكلمة لا لزوم لها . . يهتدى فى كل شىء بِهَدْى الرسول، حلق ذقنه حتى لا يخاطر بحبسه فى آخر لحظة من قبل ضابط متشدد، فطلب من الله المغفرة.

يرجع من الظلام ويقف بجسمه النحيل، برؤية جانبية يبدو وجهه حاد الملامح، يلقى بنظره على الوادى تمامًا؛ مثل قائد

الجيش الذى يدرك أن القوات تتبعه دون شـروط . . ليس بحاجة إلـى أن يلقى كلمـة، فمظهره لا يترك مجالًا للشـك فى قدراته . . يقول: «بسـم الله الرحمن الرحيم»؛ ويضع الحقيبة على ظهره . . هكذا يبدأ الهبوط بمحمد ويليه سمير.

لا نحتـاج لأغراضـ كثيرة للطريـق، ماء بالأسـاس وبعض الخبز . . الخرائط والبوصـلة مع محمد، وأحمد يحمل هاتفًا يعمل عن طريق القمر الصـناعى، أما سـمير وجمال فمعهما النظارات المكبرة. نترك معظم الأشـياء خلفنا؛ لأنها سـوف تقيد حركتنا . . فى حالة نجاحنا فى الهروب وقضـائنا ليلة أخرى هنا سوف نكون سعداء ببقاء الأشياء فى مكانها.

حركات يد متمرسـة، ذكريات يمكن استبدالها . . لا مبالاة . . تخليـت عن فكرة انتظار مشـاعر عظيمة . . ليسـت للعقيدة علاقة بالمشـاعر . . اللـه يسـتجيب متى يشـاء . . يمكن للمـرء أن يبذل مجهـودًا ولكن ليس هناك ضـمان للاسـتجابة . . عندما يشـاء أن يكون الدعاء بلا جدوى سـوف يكون بلا جدوى . . تظل الكلمات مجرد حركة شـفاه بينما القلـب يدور حول نفسـه ولا يدرك أبعاد عدم الاسـتجابة . . تخليت أيضًا عن الشعور بالإحباط ولكن أحيانًا يأتينى خلسـة مثل قطرة سـم . . الآن وأنا على مشارف التضحية بكل شـىء، لقد عقـدت آمالًا على هـذه اللحظة التى ظلت حبيسـة زاوية مظلمة حتى نسـيتها فى غمرة الاستعدادات . . آمل فى شىء ليس له مثيل قد يرضـينى بشكل كامل . . شـىء من هذا القبيل . . كان هـذا شـعورًا أنانيًا . . كبرياء يقلل من قيمة التضـحية: ﴿ قُلۡ إِن تُخۡفُواْ مَا فِي صُدُورِكُمۡ أَوۡ تُبۡدُوهُ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُ ﴾.

يجــب أن نعبر حائطًا صــخريًا . . قام كل مــن محمد والخولى بتثبيــت حلقــات يمر من خلالهــا حبل . . كنــتُ أنا صـــاحب فكرة الحلقات والحبل . . كانت أمي قد أرسلتهما إلىَّ من ألمانيا مع زوج من حذاء التسلق اعتقادًا منها بأننى سوف أقوم برحلات إلى مناطق أثرية.

السير مرهق ولكنه أقل إرهاقًا من المارش الإجبارى الذى قمنا بــه أمس . . ما زال الخطــر محدودًا إلا إذا كان واحــد منّا قد باع نفســه، ولكننى لا أتوقع ذلك من أحد . . جميعهم، ما عدا صـــلاح وكريم وأنا، أثبتوا أنهم على اســتعداد للتعذيب والموت . . إذن ما أسباب أى واحد منهم للخيانة؟ صلاح خائف فقط، أما كريم فأراهن عليه بنفســى . . على حســب علمى لا يعرف سوى ثلاثة أشخاص بمكاننــا، والخطــة الزمنية المبدئية. لو كان أحد قد وشــى بنا لكان الجيشــ قد هاجمنا بالأمس؛ لأن تصــفيتنا فى مرحلة ما قبل الهجوم ستكون أفضل من الناحية الإعلامية: انظروا كيف تعرف الحكومة خطط الإرهابيين ومخابئهم، لا توجد مؤامرات خفية . . لا تخافوا من أن تأتوا لتعجبوا بالحضــارة التى أهدتها مصــر للعالم. . كونوا ضيوفًا على بلد الفراعنة، واتركوا لها الكثير من العملة الصعبة.

الــدرب الذى يــؤدى إلـــى طريــق الأقصــر على بعد خمســة وعشرين كيلومترًا بالاتجاه الشرقى . . لا توجد طرق محددة ولا حتى لرعاة الغنــم؛ لذا يجب أن نخطو كل خطوة بحرص. يرتدى كل من الخولى وســمير ومحمد أحذية جيش، أما الباقون فيرتدون أحذية رياضــية، يعتذر صـــلاح عن كونه يرتدى ماركة «نايك»، فهى هدية من والده عندما كان فى أبو ظبى . . لن يبالى الآخرون

إذا ما انزلق أحدنا وجُزعَت قدمه، سوف يبقى بما يحمله ملقيًا على الأرض، هكذا اتفقنا. غالبًا لن يجده أحد أو لن يستطيع- هو- الوصول لأقرب منطقة سكنية، حتى لو تمكن من التقدم عارجًا أو زاحفًا سوف يفقد وجهته وأخيرًا حماسه، لا يمكن التفريق بين الجبال، الوديان كأنها اسْتُنسخَت من بعضها .. هل مرت ساعتان أم أربع ساعات بين رؤيةِ الهياكل العظمية البيضاء لجمل ذى سنم واحد؛ ثم بعد ذلك لعنزة اكتست ببقايا الفرو؟ كثبان الرمال رحالة وكلما اقتربنا منها تتكشف كسراب .. الضوء ساطع لدرجة تحول دون طبع تشكيلات محددة فى الذاكرة .. هذا القيظ يذيب المخ ويفقده القدرة على التذكرة، إن لم تكن من أهل البدو ومتكيفًا مع الصحراء منذ قرون ومتآلفًا مع مصطلحات لألف وصف للرمادى المائل للون البنى أو البيج أو الأحمر .. ينهار الإحساس بالزمن.. نقتفى أثر أكوام الحجارة التى أقامها محمد والخولى فى الأشهر الماضية؛ حينما قاموا باستكشاف المنطقة وتجربة طرق مختلفة لتقييم صعوبة بعضها مقابل الأخرى .. درس محمد الجغرافيا؛ ولكنه لم يتعلم رسم خرائط المناطق المفتوحة بالجامعة بل فى أفغانستان، حيث كان ينتمى لوحدة الخولى وسمير نفسها، وصل سمير فى النهاية إلى درجة قائد على الرغم من أنه قادم من بلد أجنبى .. هم قادرون على التحرك فى أى منطقة وتدربوا على جميع الأسلحة ومرنوا جميع عضلات أجسامهم .. اضطروا لأسابيع إلى أن يقتحموا طرقهم وسط الغابات بمعداتهم على ظهورهم .. كان غذاؤهم مما تجود به الطبيعة أو ما كان أهالى القرى النائية يهدونه إليهم؛ ولكن العمليات الهجومية التى قاموا بها كانت فعالة لدرجة الانسحاب المهين لثانى أكبر قوة على مستوى

العالم بعد عشر سنوات من الخسارة . . لقد تعلمنا منهم الكثير فما كان لهذا المخطط أن يرى النور دون معرفتهم واتصالاتهم، إن نجح فسوف يهز العالم.

تشكل دوريات الاستطلاع التي يقوم بها الجيش مؤخرًا الخطر الرئيسي في الساعات المقبلة؛ على الرغم من ألوان ملابسنا الرملية قد يلحظنا الطيار فيحوم فوق رءوسنا ويطلب تعزيز قواته . . لو حاولنا الهروب قد يقوم، بمدفعيته، بحصد أرواحنا، وربما لا . قد نكون سُياحًا وموتنا سوف يؤدي إلى تعقيدات دبلوماسية وإرهاب شركات سياحية أخرى . . فأنا أحمل تأشيرة سارية وجمال لديه جواز سفر إنجليزي، حيث إنه قضى طفولته في لندن . . كريم يعيش منذ خمسة عشر عامًا في ألمانيا، فيما عدا الخناجر نحن لسنا مسلحين . . سوف ندعي أننا كلفنا الآخرين بإرشادنا في المنطقة؛ فكونهم لا يحملون رخصة حكومية يعد مخالفة جزئية.

تفر سحلية هاربة لتختفي بين الصخور تاركة آثارًا ناعمة سوف تمحوها الرياح . . تهب عليَّ موجة من رائحة عرق أحمد . . له رائحة أقوى من الآخرين . . أبطئ من سرعتي حتى أحافظ على بعض أمتار من الهواء بيننا. يصيح الخولي الذي كان في المؤخرة: «يوخن- عبد الله، انضم للآخرين! إن لم تعد قادرًا على الاستمرار فابقَ هنا ولا تعقنا»، يستدير سمير ويهز رأسه. . هو الذي يعطي الأوامر، ليست للخولي علاقة بي . . يقول كريم من خلفي: «ابقَ هادئًا يا عبده، نحن لسنا بحاجة إلى نزاعات الآن»، يصرخ الخولي: «ماذا قلت؟»، ثم يسبق جمال وشكري

ويشـد كريـم من كمــه: «أريــد أن أعرف مــاذا قلــت؟» . . «إننا إخــوة» . . «لا تكذب علىّ» . . «نحن إخوة» . . «هو ينتمى للكفار وأنت عشــت مع الكفار فى ســلام بدلاً من أن تحاربهم» ، يبتسم كريم ولا ينساق لأى عمل متهور . . ويتوقف الآخرون . . سمير يخطو بيننا ويأخذ يد الخولى من فوق ذراع كريم ويســأل: «لماذا تهدرون طاقاتنا؟» . . «الألمانى ضـعيف جـدًا ويترك فراغًا» . . «هل أنت مرهق يا عبد الله؟» . . «لا» . . من المســتحيل أن أقول إن أحمد رائحته كريهة . . «أكيد لا؟» . . «لا» . . «احرص على أن تكون مســافة ابتعادك صــغيرة» . . أومئ برأسى . . «عُدْ إلى مكانك يا خولى« . . . »ثقتنا فيهم خطأ« . . . »لقد تم اختبارهم ولا يوجد مــا يدعو لعدم الثقة فى إيمانهــم» . . . »أنت وأنا نفهم بالكاد لغتهم ، يســتطيعون دون أن نــدرى أن يوقعوا بنا« . . . »فى حالة ظهور الجيش هم حماية لنا . . . اذهب» .

لا يسمح سمير بمعارضته . . ضاقت عيناه . . يستجيب الخولى .

أفقد انتظام خطواتى وإيقاع تَنَفُّسى . . ترتعش يداى ، وركبتاى تتراخيــان . . ليس بســبب الإرهــاق . . كيف يمكن لنــا أن ننجح ونحن نســىء الظن ببعضنا بعض؟ أخشى غضب الخولى أكثر مما أخشــى ســلاح الأعداء . يجب علىَّ ألا أفكر بهذه الطريقة . . كيف يمكننــى أن أمنع هــذه الأفكار الخاطئة؟ إنها وســاوس . . لقد كان ينظر فى وجه الروس المحبوسين وهو يقطع رءوسهم . . أعرف ذلك من محمــد: ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ .

يجتهد سمير فى أن يكون عادلاً؛ ولكنه يعرف الخولى منذ زمن بعيد . . لقد قضيا ست شتويات معًا وناما جنبًا إلى جنب حتى لا يتجمدا من البرد . . لقد ساندا بعضهما بعضًا فى ظروف بائسة، وتحايلا على الموت بينما كنتُ – أنا – جالسًا أمام التلفاز أتعاطى المخدرات وأحتسى البيرة . سمعت للمرة الأولى كلمة «مجاهدين» ونطقتها مستغربًا . . رأيت رجالاً من ماضٍ بعيد يعبرون أودية صفراء ومضايق كستها الثلوج، محشورين فى عربات بيك أب متهالكة، ويطلقون صواريخ جو أرض من فوق أكتافهم؛ فتنفجر طائرة ميج وهى تسقط أمام خلفية زرقاء لا تشوبها شائبة . . وقفوا فوق دبابات محترقة وأطلقوا المدافع دفعة واحدة إلى السماء . . وجوههم ذات اللحى كانت حادة وصافية وتشع إصرارًا واتزانًا، كانوا يحاربون على الجانب الصحيح على الرغم من دعم وكالة المخابرات الأمريكية لهم، تمامًا مثلما دعموا الفاشيين فى أمريكا اللاتينية . لم أكن أعلم أين يقع هذا الجانب الصحيح؛ ولكننى كنت أعرف أنه ليس يمينًا أو يسارًا ولا شرقًا أوغربًا . . كانوا يستمدون قوتهم من منبع آخر أجهل ماهيته؛ ولكنه كان يهب شيئًا يستحق أن تعيش وتموت وتقتل من أجله، تقتل إذا حكم الأمر بلا شىء غير يديك . . كنت أحسدهم على ذلك . . هذا هو مدعاة فخر الخولى .

يرى الرجل الذى لم يخض حربًا من قبل بلا قيمة . . لا يستطيع أحد أن يتنبأ بقدر الأهوال التى يتحملها قلبه فهل سينفجر؟ كيف يمكن الاعتماد عليه؟ أتساءل إلى أى جانب يقف محمد؟ بينهما احترام متبادل ولكنهما ليسا أصدقاءً . . عندما يتحدث عن الخولى يمتزج النفور بالإعجاب وترجح كفة أحدهما وفقًا للمزاج العام . .

أحيانًا يتملكه فزع يدوم أيامًا فيتجنب الاقتراب منه، هو يختلف عن الخولى، لا يسقط شيئًا من ذاكرته.

دافعٌ بأن أصيح: 'توقفوا'، وأقول بحزم القائد: 'يجب أن ننهى خلافاتنا حتى يكتب لنا النجاح'، قد يضع ذلك نهاية للعملية وتكون قد فشلت بسببى.. أستمر فى السير صامتًا محاولًا ألا أركز فى شيء سوى خطواتى التالية، ولكن هناك نظرات الخولى التى تعبر عن رغبته فى موتى.. لن يعامل إلا جثتى باحترام.

كان يجب علىَّ أن أثير هذا الجدال فى المعسكر وأن أكسب ثقته تدريجيًا بدلاً من أن أعقد آمالاً على أن احتقاره لى سوف يزول من تلقاء نفسه.. قام بصد جميع محاولاتى للحديث معه بشكل فظ حتى تخليت عنها.. ربما كان هذا أسلوبه فى اختبارى ورسبت.. لو تطلب الأمر سوف أحمى ظهره وأموت بدلًا منه. يقول محمد: «أمام العدو هو وحش كاسر، هو الأفضل على الإطلاق».

تملأ الضوضاء رأسى، تبدو الأصوات كما لو أنها تصدر عن مكبرات صوت وتولد آليًا.

يصعب علىَّ الاطمئنان إلى الله فى هذا الخواء الذى يحيطنى.. أين إذن يمكننى أن أتعلم ذلك؟ فهو لا يتجلى فى فوضى المدن. تجنب أصحاب المنازل ذات الأسوار والمفروشة بأوهام قابلة للبيع ويتجلى فى الصحراء بعيدًا عن التجارة والملذات والحب. خشى الذين قابلوه نداءه وصمته.. ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴿٦﴾﴾.

تصفر الرياح وهى تمر على بوابة من الصخر . . خشخشة أوراق شجيرات نبات شائك ، جفت الأوراق وأصبح لونها لا يكاد يختلف عن لون الأرض ، ظلالها تجعلها مرئية . . ضيق فى صدرى يشل تنفسى . قررت أن أضحى بحياتى . . إن شاء الله . . المعابد تحت حراسة غير مسبوقة . تعين أجهزة الدولة جنودًا تلقوا تدريبًا خاصًا لحماية المنشآت ولديهم أوامر بإطلاق النار دون سابق إنذار . . منذ أن عززنا هجماتنا انخفضت نسبة الزوار ثمانين بالمئة . . لو ابتعد السائحون لفترة كافية سوف ينهار الاقتصاد؛ فينتفض الشعب ليطيح بالحكومة ، بعد ذلك تعود سيادة الله . عنصر المفاجأة يعزز صفوفنا وكذلك ثلاثة من الرجال الذين قهروا السوفييت .

اتخذت الطبيعة لون الموت .

لن تفخر أروى بى عندما تعلم بموتى ، سوف تلعن بصوت عالٍ وتبكى فى صمت . . لو كانت لها رغبة فى ذلك لا تخذت قصتنا مسارًا آخر . للحلم حزنٌ أثره باق . . ربما كنا سننعم بحياة هادئة . . بأطفالٍ ووظائف هنا أو فى ألمانيا . فى استعادة بطيئة للحظة الوداع يبدو الماضى أجمل مما كان أو أجمل مما كان يمكن أن يتحقق فى ظروف مغايرة . . ربما كانت الأمور ستسير على هذا النحو وربما لا . . لم أتعلم أى وظيفة وعمرى لا يسمح بتأهيل وظيفى . . وظائف مساعدة لمدة أربعين ساعة أسبوعيًا . . أملأ رفوف محال السوبر ماركت ، أقوم بتقطيع الخضروات وأحمل مخلفات أعمال البناء . . متابعات من قبل الشرطة من حين لآخر بسبب سجل العقوبات . . سمنة متزايدة يصاحبها ميل نحو القناعات

السياسية لضامنى الحقوق القانونية؛ يليها شكوى من الشباب المتمثلين فى الأبناء والبنات . . وفى نهاية الأمر شعور بالمرارة لفوات الأوان . . كيف كان يمكن لذلك أن يحدث؟ غالبًا لن أتذكر، فمن يفضل أحلامه على الجهاد فى سبيل الله سوف ينتهى به الحال كبرجوازى محدود الأفق . قال الرسول: إن الله يبتلى المرء بأهل بيته. تبقى قناعة بأن السيارة الجديدة سوف تصل بشكل أسرع ولكن إلى حيث لا نريد، وتعقد الآمال فى أماكن قضاء الإجازات على أرض الميعاد، ينطفئ الحب فى وقت ما بسبب أمور تافهة تتعلق به . . لا أوهم نفسى بأننى وأروى سوف نُسْتَثْنى من ذلك.

لا يلقى صلاح مجرد نظرة على قدميه، إنه يفقد حماسه . . إن لم يقوِّ الله من روحه فلن يستطيع أحد مساعدته، عندما يرى أقرب قرية يجب عليه أن ينفصل عنا ويقول إنه ضل طريقه وعاد إلى منزله . . ينتمى والداه إلى طبقة الأثرياء، يستطيع أن يدرس ويتزوج ويدعم الحركة بماله . . عندما يحدث التغيير سوف تشكره الحركة على ذلك. كان يجب على سمير أن يرى ضعفه . . لماذا اختاره؟ عادة لا يخطئ حكمه . . يجب أن أتحدث معه على انفراد حديثًا هامسًا، ولكن سيظن الآخرون أن لدىَّ مشكلة.

للخطوات فوق الرمال صريرٌ . . تحتك رجلا البنطال ببعضهما . . تتحرك طائرة كنقطة فضية باتجاه الجنوب، يحلق آكلوا الجيف فى الغرب. يبصق جمال، يستدير كريم ويسأل: «هل كل شيء على ما يرام؟»، «الحمد لله».

لم يبقَ لى سوى فترة قصيرة، كنت فى الماضى أتصبب عرقًا

عندما تأتينى هذه الخاطرة .. عرقٌ حقيقى بسبب تهديد وهمى .. كان الموت بمثابة شبح يحوم فى رأسى، أصبح الآن قاب قوسين أو أدنى .. هذا لا يعنى شيئًا .. هو بمشيئة الله ولا يكون شىء إلا بمشيئته .. ﴿ قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾

أقضى آخر ساعاتى متعثرًا فى خطواتى، وقدمى تؤلمنى على الرغم من الحذاء الجيد الذى أرتديه .. ظمَئِى أكبر من أن أرويه بشرب الماء، أصابتنى الحموضة من كثرة الإرهاق والفول الدسم .أفكر فى امرأة لم تأتِ معى ولا حتى فى أحلامى وأخشى كراهية الخولى وأتمنى رحيل صلاح .. بدلًا من أن أعيد ترتيب أفكارى وأركز على العملية وأن أرتل آية مع إيقاع خطواتى تغمر كل خلايا جسدي، بدلاً من كل ذلك تسود فكرى بلبلة الكفار .. ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوْ رَحِمَنَا ﴾ .. ما بقية الآية؟ آية كاملة أفضل من نصف آية ونصف آية أفضل من لا شىء .. تأبى قدمى أن تخضع لإيقاع الكلمات.

تَحَوَل الوادى إلى سهل ممتد، يحدوه يمينًا ويسارًا جدار صخرى شديد الانحدار .. تخوض قافلة بعيدًا فى مياه لونها بين الزرقة والسواد .. يتوقف سمير ويستطلع الأفق بمنظاره ثم يواصل السير .. تبدو الحيوانات النافقة التى نمر عليها كأنها إشارات ولكنها ليست كذلك .. يسرى السائحون وهم يعبرون الصحراء فى حافلات؛ بنات آوى فى حالة تعفن وجيفًا لعجول ولا يخشون شيئًا مع أن المشهد يستحق ذلك. ينامون فى غرف مكيفة

ويحلمون بتوت عنخ آمون وأسماك الشعب المرجانية والقدرات السحرية التى تملكها كروت الائتمان. سوف نسرق النوم من عيونهم .. سوف يذهبون لفراشهم الليلة المقبلة وهم مرتعشون؛ ولن يجرؤوا على إغلاق الأنوار .. غدًا فى الصباح الباكر سوف يصرون على استقلال طائرة العودة.

نصل إلى كوم من الحجارة يفوق السابقين فى الارتفاع فى ظل جبل ضخم مائل .. ينظر سمير إلى ساعته ويتوقف وينزل حقيبته من على ظهره قائلا: «لقد كسبنا وقتًا، ارتاحوا قليلاً»، يجلس سمير داعيًا الآخرين للجلوس .. نضع الحجارة جانبًا .. لم تشعل الشمس هنا الأرض بعد .. يفتح أحمد الحقيبة التى بها الهاتف، يحدد اتجاه القمر الصناعى ويتصل برقم لا يعرفه أحدٌ غيره؛ ليبلغ إخواننا الذين سيقلوننا إلى مخبئنا على النهر بالعبارة المتفق عليها: «لقد قدنا المعز إلى البئر ويوجد ماء كاف» .. بدلًا من أن يضع السماعة يستمع للحظة فى صمت ثم يتمتم بشىء لا أفهمه .. تعلو وجهه سيماء الجد، ويقول: «استمروا فى المحاولة، سوف أعاود الاتصال بعد ساعة». على الرغم من التوتر الذى بدا على الوجوه يعيد التليفون إلى الحقيبة حتى لا يتسلل إليه غبار الصحراء ويقول: «لقد اختفى رشيد» .. أشعر بنبضى وهو يتسارع .. يسأل سمير: «منذ متى؟» .. «كان موجودًا بالأمس فى المساء» ... «الشرطة؟» ... «خالد لا يعرف شيئًا» .. «هل قام بفحص الشقة؟» .. «لم تُكسر ولا توجد آثار تفتيش» ... «إذن ليست حملة بوليسية» .. «الحمد لله» .. يقول شكرى: «رشيد سيصمت، أيًا كان ما سيفعلونه به سيصمت» .. «أنت أفضل مَنْ يعرفه» ..

«منذ أن كنا أطفالاً»، يفكر سمير، يسأل الخولى: «ماذا تظن؟».. «نستطيع الاستغناء عنه».. «وأنت؟»، يهز محمد رأسه: «لو تحدث الخولى سوف تُضَيِّق علينا الخناق».. أكد شكرى: «لن يقول شيئًا»، لا يسعه إلا أن يقول ذلك، رشيد صديقه واستطاع أن يقنعه بالجهاد فى سبيل الله: «يفضل بيع أمه وأبيه على ذلك»، لست متأكدًا إذا ما كان شكرى على يقين أم أنه يتمنى ألا يخيب رشيد ظنه. يقول سمير: «أنا أوافقك فى الرأى والخولى على حق.. الأمور ستسير من دونه».

لا يجرؤ أحد على وضع اعتبار لإمكانية هروبه، لا أحد سواى.. نوبة من الفزع، ليس بسبب النهاية ولكن لأن العملية ستفشل.. سيكون موتنا هباءً دون أن نعطى دفعة حاسمة للحرب الدائرة.. سوف تنتصر حكومة مبارك العميلة.. ليس لدى الآخرين أى فكرة عن آلية الخيانة.. لم يُشَتَّتْ شملهم من قبل ليعود فيجتمع من حطام.. لا يعلمون أن الغدر يبدأ بتجزعٍ بسيط دون أن يلحظه أحد فى منطقة مظلمة، ثم يتسع فيصير شقًا يتعفن داخله الهواء.. يحدث ذلك فى غفلة؛ لأن ما من أحدٍ يريد إدراكه.. يومًا ما ينكسر القلب نصفين يأبيان أن يجتمعا من جديد.. ويبقى الغاز الخانق.. لا يعرفون رائحته.. لم ينشأوا فى ظل أيديولوجية الشك، فكرة أن الله قد يكون اختراعًا بشريًا بعيدًا تمامًا عن خيالهم.. لا يفهمون حالة عدم الاكترات التى تتبعها، إنه ليس ذا أهمية ما يفعله المرء.

شحب وجه صلاح وأخذ يعض على أظافره.. تحرقنى عيناىَّ من الملح.. أشرب ببطء جرعات صغيرة مقاومًا رغبتى فى أن أشرب الماء كله دفعة واحدة وأن أسكب زجاجة المياه الثانية فوق

رأسى. سوف يُحدث ذلك هبوطًا فى الدورة الدموية . . هكذا كان الأمر فى أول أيام المعسكر . . الآخرون الذين سبقونى إلى هناك قبلها بأسابيع كانوا يضحكون . . يبقى النهم . . فمى أصابه الجفاف لدرجة أن اللعاب لا يكفى لتليين الخبز. يلوح سمير لصلاح ليقترب منه . . يعلم أنه ارتكب خطأ واحدًا على الأقل، وفقًا لما سيحدث مع رشيد، ويحاول أن يحجم العواقب . . لن أتحدث معه . . يجلس الخولى منفردًا محملقاً ومكفهر الوجه . . ينظر كريم إلىَّ ويلوى شفتيه . . نفكر فى الأمر نفسه . . لقد تشتت شملنا . . الآن بعدما أصبح الفشل واردًا تقطعت الروابط . . كل واحد يقف وحده . . لا أحد يقف على مسافة كافية ليتحمل المسئولية كاملة، حتى سمير المنشغل بأخطائه.

كان الأفغان هم أصحاب القرار فى مرحلة التخطيط . . تفوقهم فى كل الشئون الإجرائية بلا منازع . . كان الشيخ يثق بهم ويوفر لهم المال والسلاح، كل ما كانوا يطلبون. لم يجرؤ أحد على السؤال إذا ما كانت استراتيجيتهم مناسبة للحرب هنا أم لا . . كانت لهم خبرة فى حرب العصابات فى مناطق وعرة، قطعوا طرقًا للإمدادات ونصبوا الكمائن ودمروا عمليات لنقل قوات؛ وفى نهاية الأمر طردوا جيشًا على مستوى عالٍ من التسلح، ولكنهم لم ينجحوا أبدًا فى الاستيلاء على منطقة كبرى؛ ومن ثَمَ الحفاظ عليها، أما نحن فنحارب فى مدنٍ ضد جنود من أهل البلد يعرفون المنطقة مثلنا تمامًا، وليس ضد قوى احتلال لا يعرفون شيئًا عن المنطقة وأفرادها صبية انهارت روحهم المعنوية ويريدون العودة إلى منازلهم فى أسرع وقت ممكن.

أغمض عَيْنَىّ . . تبقى الشـبكية مضـاءة، زغللة دافئة مصفرة اللون . . لا يحل الظلام إلا عندما أخفى وجهى بين كفى . . أسـمع مقاطع عبـارات قيلت بهمس: «ربما » . . . . . «قـد يكون» . . . «ماذا سـيحدث لو . . . . » «. . ينتزع اعترافًا من رشـيد؟»، بين هذا وذاك تأكيدات من شـكرى: «رشيد سيصـمت»، توقعات لن تؤدى إلى شىء . . . يجب أن ننتظر المكالمة التالية.

إن لم يحصـل خالد على معلومات جديدة سنراقب نقطة الالتقاء على مسـافة آمنة؛ ونحدد إذا ما بدا شـىءٌ غريبٌ ثم نتشاور ونأخذ قرارنا . . سـوف يدعـم توجهنا إلى الأمـام . . لن يكفى مخزون المياه لنعود إلى الكهف ونقضى ليلة أخرى هناك ونحاول الوصول لأى مكان أيًا كان.

يجلس محمد وجمال على مسـافة . . قررا عـدم تبديد فكريهما ويتناقشان مسألة انتخاب الخليفة من جميع المؤمنين أم اختياره من قبل الصـالحين . . حديثهما كما لو أنهما ينتميان إلى لجنة تأسيسـية الدستور فى الدولة المقبلة. يقول جمال: «الديمقراطية بدعة من فعل الكفار»، يسأل محمد: «ولكن من يختار الذين يعينون الخليفة؟» . . «لم يعقد الرسول – صلى الله عليه سلم – أى انتخابات».

أتعجب من حديثهما عن المستقبل وأقول هامسًا: «سيكون حينها القرار لآخرين» . . لا يسـمعان ما أقول . . لا ينم صـوتى عن أى تردد . . ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾﴾

صلاح هو الوحيد الذى ينتظر شيئًا يستحق البقاء فى الدنيا . . لم يعش سوى أمور قليلة فى أعوامه العشرين ، حب أبويه وأحاديث الرجال الليلية التى لم يستطع أن يضيف إليها شيئًا .

يتأرجح الآن ما بين الأمل والخوف . . نحن الآخرون نعلم: الموت بمثابة عودة من رحلة شاقة مرت بأرض موحشة .

بشرة تكونت عليها طبقات من التراب . . قمصان عليها دوائر ملح من أثر العرق . . الجملة الحاضرة: «لن أعاود الوقوف مرة أخرى» ، قد أقول فى ظروف مختلفة . . طبيعة خلابة . . لا يمكن اكتشافها إلا سيرًا على الأقدام وأنت على حافة قدراتك .

يَهِمُّ سمير بالوقوف قائلًا: «التكهنات مصدرها الضعف . . سنتخذ القرارات فى وقتها» . . يطلب من صلاح أن يتبعه مباشرة . . ما زال نصف الطريق أمامنا . . الخطوة الأولى هى الأصعب . . يبدأ سمير فى ترتيل القرآن؛ فهو حافظ للقرآن ويعلم أن الكلمات سوف تهدئ صلاح وتزيل خوفه أفضل من أى شىء يمكن أن يقوله له هو أو غيره . . كلنا مررنا بهذا: فى البداية وجل ، تريد أن تغلقه أو تلقى به جانبًا . . ليس هذا عارًا . كانت هذه هى حال الرسول نفسه عندما أمرَ:» ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ﴾ . تريد أن تهرب وتختبئ فى مكان سرى ولا يجدك أحدٌ إلى الأبد . . ولكن الكتاب أقوى ، يمسك بكَ ويهزم المقاومة؛ ثم يجبر من لديه أذن يسمع بها وعقل يفكر به على وقعه حتى يخضع ويهدأ . . هكذا كان الأمر . لفترات طويلة لم أستطع أن أصدق ، فى ذلك الحين منذ ست سنوات فى عصر

أحد الأيام الشديدة القيظ بنهاية شهر أغسطس، كنت مستلقيًا بنصف ملابسى فوق السرير ولم أكن مغتسلًا ولا حتى يداى قبل أن أمسك بالكتاب، على الرغم من علمى بوجوب الطهارة حتى عند مجرد لمسه؛ أصررت على حيادى وعلى الرغم من ذلك حدث ما يحكى عنه المؤمنون حول العالم.. يؤكدون في الوقت نفسه على عجز كلماتهم عن الوصف.. ظننت أن ظروفًا مهيئة تتصادف، نبوءة نضجت فى غفلة داخل اللاوعى؛ وتحققت لنفسها حتى لا تصاب بخيبة أمل .. كنت أحاول أن أقنع نفسى: هذه مجرد ترجمة .. لا يمكن أن يكون لها تأثير، على الرغم من ذلك؛ للمرة الأولى ومنذ بداية ذاكرتى سادت السكينة، وظلت تعاودنى كلما قرأت .. حتى اليوم.

تتضح رؤية الطريق الآن من حافة الهضبة .. شريط ضيق رمادى اللون ممتد لعدة كيلومترات وسط الصخور وآخذ فى الاختفاء .. نقطة الالتقاء عند نصف دستة من البراميل الزرقاء التى تآكلت من الصدأ، ملقاة على الأرض مثل بقايا حضارة زالت.. ﴿ وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ ﴿١﴾ الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ﴿٢﴾ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ﴿٣﴾ كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ﴿٤﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ﴿٥﴾ ﴾. بعد أن نفد البترول انهارت سيادة الغرب التى قامت على الطمع والتفرقة، ما تبقى هو قوائم أرقام معدة بشكل آلى ورقمى. ظلت الأرقام تطرح وتقسم على نفسها حتى ظهر الصفر الأخير .. فى المقابل كانت جبال من القمامة معروضة للبيع ودفنت تحت رمال الخماسين .. انقضى عمر البشر خوفًا من العدم الذى تمنوا أن يؤمنوا به.

سوف يستغرق النزول من خلال الوادى الضيق نصف ساعة أخرى . . لا يوجد على مرمى البصر أى سيارة ولا أثر للشرطة أو للجيش. جئنا مبكرين، يتوقف سمير ويشير إلى أحمد حتى يتصل بخالد . . هدوء متوتر يُحَوِّل هبّات الرياح إلى ضوضاء . . يبدل صلاح رجليه . . يشعر شكرى بالذنب على الرغم من عدم توجيه اللوم إليه. يقول أحمد باللغة الألمانية: «زِفت»، يمر وقت طويل يتجاوز المألوف حتى وجد أحمد القمر الصناعى ثم يتمتم ولا أعلم إذا ما كان يخاطب خالدًا أم نفسه . . يحك مؤخرة رأسه ويقول متنهدًا: «سوف أعاود الاتصال»، لا شىء آخر . . يسأل سمير: «ما الجديد؟» . . «لا يوجد أثر لرشيد، ولا إشارة إلى أنه قُبِض عليه . . يتوقع خالد أنه تعرض لحادث . . قام هانى بالمرور على جميع الطرق الممكنة دون جدوى . . كانوا فى منتهى الحرص». استغرق سمير فى التفكير ولا ينطق أحد بكلمة . . يسأل مرة أخرى: «لم يجدوا ما يشير إلى وجود الشرطة؟»، «لا شىء» . . «قد نصل دون استراحة قبل الميعاد المحدد بأربعين دقيقة. إذا أراد أحد العودة من هنا . . . سيتمكن وحده من ذلك». ينظر سمير بإمعان إلى وجه كل واحد منّا وينظر إلى صلاح لفترة أطول. أتساءل إذا ما كان بالفعل سيُطْلِقَ سراح أحدنا بهذه السهولة، يعتبر ذلك بمثابة هروب من التجنيد وعقوبته واحدة فى جميع أنحاء العالم . . «إذًا فلنستفد من الوقت الذى كسبناه، قل لهم أن يتحركوا».

يعاود أحمد الاتصال: «سوف نكون بعد نصف ساعة فى المكان المتفق عليه، إن شاء الله».

أشعر بالارتياح على الرغم من الخوف . . إنه بمثابة ظل سحابة . . خلفها سماء صافية من نور . . نحن فى طريقنا إلى هناك .

المقطع الأخير شديد الانحناء ويصعب تسلقه حتى على الأفغان ذوى الخبرة فى الجبال المرتفعة . . تتطلب كل خطوة انتباهًا . . ننزلق أكثر مما نمشى . . تتسع المسافات بيننا ، حتى الخولى يجد صعوبة فى اللحاق بالآخرين. تنهار كتل من الرمال والحجر وتجرف معها حصى ، تختفى تلك الكتل خلف غبار تذروه الرياح .

يتعثر جمال ويتفادى سقوطه بعناء ، يستمر فى السير عارجًا محاولًا أن يضحك على ألمه . . يعطى حذائى لكعبىّ ثباتًا . . لا يستقر نعل الحذاء سوى على أجزاء مستوية من الصخرة؛ وهذا منعدم تقريبًا ولذا لا فائدة منه على هذا الزلط . يصيح محمد: «احترس»؛ عندما تقفز حصوات كبيرة من أمامه ، يشعل الهواء مع كل نفس الشعب الهوائية . يبدأ الجسم فى الاشتعال من الداخل . . لا أثر لجزء مائل من الجبل قد يحمى لدقيقة من الشمس . .

يلتصق لسانى الجاف بسقف حلقى على الرغم من أننى شربت منذ لحظات . . عند أى درجة مئوية ينصهر اللحم؟ هل يسيل اللحم؟ تغطى حافة حادة الطريق الذى تأتى منه السيارات غربًا ، أما شرقًا – إلى حيث نتجه – ينحنى الطريق فى واد جانبى . . غالبًا لن نكتشف عربات الجيش إلا بعد فوات الأوان أيًا كان الاتجاه الذى سيأتون منه ، سيعلم الجنود من الصخور المتساقطة والغبار أن بشرًا هنا على الطريق . . هم الذين يبحثون عنهم – نحن – سيتخذون مواقعهم فى هدوء . . بمجرد دخولنا مجال الرؤية سوف نكون فى

متناول يدهم دون ساتر . . أهداف لتمارين ضرب نار بذخيرة حية . . ألم يفكر الخولى ومحمد فى ذلك؟ يجب أن يكونا قد لاحظا هذا الأمر؛ أم نسيا أننا لسنا فى منطقة جبلية أفغانية مهجورة بل على مسافة خمسة عشر كيلومترًا كخط مستقيم من النيل إلى هنا، قرب الأماكن المفضلة للسياحة الثقافية التى تخضع لحماية مثل المنشآت الأمنية. . ربما أراد الخولى لهذا السبب أن نكون مسلحين . . من خلال رؤية الوضع هنا أعطيه الحق؛ اعترافى لا يفيد الآن.

المقطع الأخير أكثر انحدارًا . . نحتاج إلى أيدينا ونحن نتعلق بالجدار وتحتنا ثلاثون مترًا مساحة للسقوط. بمجرد أن تطأ القدم الأرض تتفتت من تحته . . معلومات من المدرسة، مادة الجغرافيا: الجو الصحراوى؛ ينتج تآكلات شديدة عن الاختلافات الكبيرة فى درجات الحرارة بين النهار والليل يلى ذلك تقشر وانفلاق للصخورِ تجعلها تتفتت . . الأرض التى تحمل أحمد قد تنهار تحتى وإن حملتنى قد تنهار تحت قدمى كريم. تضرب قطعة صخر فى حجم قبضة اليد فخذ صلاح، يحمى رأسه . . نصل إلى منطقة بروز للجبل تمتد أفقيًا للقاع لمسافة تتراوح بين ثلاثمئة وأربعمئة متر – فى الاتجاه الخطأ، ينتهى إلى ساحة منبسطة تملأها الحصى. شكل هذه الساحة قاع الوادى الذى امتلأ منذ آلاف السنين وقت نزول الأمطار بماء اندفع من أعلى الجبل وجرف معه ما وجده فى طريقه؛ بعد ذلك انطلق العشب وباتت مراعى غنية لقطعان من الحيوانات المتوحشة . . والآن لا تنمو حتى العُلّيقات فى هذا المكان . . تحمل الرياح من الاتجاه الجنوبى صدىً لانفجار مدوٍ . . نتوقف وننصت . . لحظة من التنفس العميق . . أمسح حباتَ

العرق من على جبينى قبل أن تتبخر. انفجارات متتالية وضجيج صخر متساقط . . يقول شكرى: «أعمال بناء أو حفر» . . نشأ بهذه المنطقة ويعرفها جيدًا. لا أحد منا يهم بالجلوس؛ لأنه لن يستطيع الوقوف مرة ثانية . . ينتهى الوادى فى مساحة ضخمة من الرمال قد تبتلع النهر لو كان موجودًا، تعلو المساحة لتكون كثيبًا رمليًا من المفترض أن تكون خلف قمته نقطة الالتقاء عند البراميل . . نعاود السير فى صف . . يحوم سرب من الغربان الناعقة فوق رءوسنا يتبعه ظله . . مع كل خطوة تغوص الأقدام حتى الكعوب فى الرمال وتؤلم العضلات المنهكة . . خاطر بأن أسقط على الأرض وأظل مستلقيًا . . يبطئ محمد من سرعته، يتوقف ويلتفت إلى سمير . . يتبادلان الحديث لفترة قصيرة . . سوف يستطلع سمير الأمر، يعطى لنا إشارة من خلال إصبعه على شفتيه بألا نبرح أماكننا . . هكذا اتفقنا، هكذا سيكون الأمر. بقيت خمسون مترًا . . ينبطح سمير أرضًا ويزحف بداية على أربع ثم على بطنه مثل التدريب تحت الأسلاك الشائكة . . حركات حادة وسلسة لسحلية فى صورة إنسان . . يدق قلبى بشدة لدرجة أننى أسمعه. انتظار قصير للطلقة الأولى من رشاش آلى؛ ولكنها لا تأتى. يبقى سمير دون حراك للمرة الأخيرة . . بعد ذلك يرفع هامته برؤية كاشفة ثم يلتفت إلينا قائلاً: «الحمد لله»، يزول التوتر، نجرى على الرغم من الإجهاد كما لو كان البحر أمامنا، دافئًا فى لون الفيروز ومضيئًا، سنخلع ملابسنا ونقفز فى الماء . . السعادة مستنسخة من الإعلانات لقنت منذ أيام الطفولة. يساوى المحيط الأطلنطى الانتعاش الذى بدوره يساوى «فا». أعراض متأخرة لتشويه البشر فى الغرب حتى بعد الاهتداء إلى الإيمان . . يستمر محمد والخولى وحدهما فى السير

بهدوء . . يعرفان أن الهدف الأول ما هو إلا نقطة انطلاق لمرحلة جديدة ، لا يوجد ما يستدعى التهليل . . من يهلل يهدر طاقة هو فى حاجة إليها آجلاً .

تغفو داخل البراميل كلاب هزيلة . . لا تعيرنا انتباهًا . . ممّ تتغذى؟ لا يتوقف أتوبيس سياحى هنا . . لا يلقى سائح بنصف طعامه هنا . يضرب صلاح من وحى ارتياحه قطعة من الصاج المقطوع بقدمه فى الرمل فتخشخش . . يقول الخولى مستهجنًا: «كف عن ذلك أيها الأحمق»؛ ويرتعش صلاح كصبى ضُبطَ وهو يسرق . يضع سمير يده على كتفه . . يرفع أحد الكلاب أذنه؛ بما أنه لا شىء يحدث ، ينزلها مرة أخرى ويبقى مستلقيًا دون أى تأثر . . من المفترض أن تصل سياراتنا فى أى لحظة . . نقف هنا تسعة رجال منهكين تحت شمس حارقة بالقرب من خردة زرقاء اللون . . خلفنا جبال صحراوية شديدة الانحدار وأمامنا طريق آتٍ من مكان ما ويؤدى إلى العدم ، تسبقه منحدرات جبلية صخورها متآكلة . . نستنشق الهواء ونشرب ما تبقى من ماء ونحاول ألا يغلبنا الإرهاق بعد هذه النشوة القصيرة . . قد تنتهى فى اللحظة التالية حياتنا أو نستمر فى المعركة . . تطل ابتسامة أروى بين أرض لونها بين لون الرمل واللون الرمادى وسماء وهاجة ملأها التراب وذلك قبل أن تقول: «هذا يفوق كل الحدود . . هناك خطأ ما ، الإسلام دين سلام» ، أجبت أيضًا بابتسامة: «يجب أن تعرفى ماذا تفعلين وأنا أفعل ما يجب أن أقوم به» ، هزت كتفيها: «يبدو أن الأمور ستسير على هذا النحو»؛ ﴿ فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ

﴿أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾﴾ . . قالت: «أنت تنزع الآية عن سياقها» . . وهى تعلم أن السياق يثبت أننى محق . . أطرد صورتها بحركة يد كما لو كانت حشرة مزعجة؛ ولكن لا يمكن محو الإحساس . . إنه مزعج . . لقد ولّى وقت العواطف ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾﴾.

أصوات محركات دون أن تظهر المركبات التى تتبعها . . إنهم يقتربون، يحيدون عن الطريق ويرجعون، يتبعون بذلك تغير الاتجاهات على الطرق المتعرجة والتجويفات الجبلية . . يصعب تحديد المسافة القائمة بيننا . . هناك شعب للجبال تقوى صدى الصوت وأخرى تخففه؛ ويأتى الوادى التالى فيبتعله . . يقرر سمير: «سوف ننزوى . . أيًا كان القادم يفضل أن نراه قبل أن يرانا.» هذه المرة يسير أيضًا كل من محمد والخولى . . لو كانت فِرَقًا، لو كان رشيد أفشى سرنا سوف يفتحون النار فورًا . . سوف ينتهى كل شىء عند سفح المنحدر الجبلى على الأكثر . . أنا السبب فى أننا لا نحمل سلاحًا . . لن تكون لدينا فرصة للهروب . . يريدوننا أمواتًا أفضل من أن نكون أحياء؛ لأنهم يعلمون أنهم لن يتمكنوا من انتزاع أى معلومات منا سواء بالعنف أو بوعود كاذبة . . الذين تعاونوا فى الماضى شنقوا تمامًا مثل الذين صمدوا . . يعى كل واحد منا ذلك جيدًا، لماذا إذن يبيع روحه؟

نكتشف فى الوقت نفسه السيارتين اللتين جاءتا بدلًا من ثلاث:

سيارة خالد (الفيات)؛ عمرها عشرون عامًا ولونها مثل التوت، وسيارة هانى (البيجو) سبعة راكب المتهالكة التى لا تصلح فى ألمانيا حتى للبيع كقطع غيار. كان يمكن أن يأتوا بسيارات (سوبارو) جديدة تمامًا، ولكنها لافتة للأنظار .. لن يندهش أحد من سير عربات خردة .. ينزل كل من خالد وهانى من السيارتين.. يرتديان جلبابًا وعمامة، وقاما بتحيتنا بقبلات على الوجنات .. يعاود سمير السؤال: «هل لديكم أى فكرة عما حدث؟»؛ يهز هانى رأسه، يرد خالد بسيل من الكلام: إنه حاول الاتصال برشيد اليوم فى الصباح وفقًا للاتفاق .. يذكر العبارات التى كان من المفترض تبادلها: «كيف حال أخيك؟» .. «فى طريقه للتعافى» .. «أردت زيارته فى الساعة الحادية عشرة والنصف»، وذلك فى حال سير الأمور وفقًا للخطة للتأكيد على التوقيت وإشارة للتحرك، ولكن لم يُجِب رشيد ولا حتى بعد المحاولة الخامسة .. بعد ذلك قام بالاتصال بهانى وبلغه فقط بأن هناك صعوبات دون أن يحدد ماهيتها وموضعها .. مناقشة الأمر هاتفيًا شَكَّلَ خطورة، لذلك اقترح أن يتقابلا لدى هانى .. لم يتحدثا فى المنزل بل فى الحقل التابع له؛ ليتأكدا أنه لا أحد يسمعهما. قام هانى- فيما بعد- بالبحث فى جميع أنحاء المدينة، بينما ذهب خالد إلى منزل رشيد.. تفقد أولاً - ودون أن يلحظ أحد - وضع الشارع ثم تسلل عبر السلالم ووضع أذنه على الباب؛ محاولاً أن يسمع .. لم يصدر أى أصوات.. قام بدق الباب عدة مرات وفى النهاية بقبضة يده، دون أى رد فعل، لا شىء، ثم قرر أن يفتح الباب مع علمه أنه ربما سيقتل بوابل من الرصاص. كان كل شىء فى الشقة كما هو معتاد، لم تُفَتَّش خزانة، لا أثر لأى عراك .. بالتأكيد كان رشيد

سيقاوم محاولات القبض عليه، كانوا سيدفعون ثمنًا غاليًا لحياته.

يتأرجح صوت خالد بين الارتياح والقلق والاحتفالية.

بعد الساعات التى قضيناها على الطريق ممعنين فى التفكير، فى كل خطوة، كل واحد منا وحده، فإن لسيل كلامه تأثيرًا محررًا، على الرغم من أن ما يقوله لا يبعث على الاطمئنان.

يسأل سمير: «هل خرج رشيد بمفرده مساء أمس؟ هل وارد أن يكونوا قد فاجأوه فى مكان ما دون أن يلحظ ذلك أحد؟»، يرد هانى: «هذا وارد» . . «لو قال شيئًا لوجدنا الجنود هنا» . . «جئنا مبكرين عن ميعادنا بخمس وأربعين دقيقة» . . «وليكن» . . «هل يوجد طريق بديل؟» . . «هذا هو الطريق الوحيد . . يمكن لنا فى مقاطع مقبلة أن نأخذ تفريعة أخرى» . . «شكرى محق . . لو كان رشيد قد ضعف لكان الجيش فى انتظارنا . . فيما يبدو هناك سبب بسيط يجب ألا نعرفه . . سوف نركب أنا وصلاح والخولى وأحمد مع خالد».

يركب الباقون مع هانى . . يجلس جمال إلى جانب السائق، أما شكرى فيجلس القرفصاء فوق السيارة؛ آخذ مكانى بين كريم ومحمد، مسرورًا بأن هانى يقوم بتشغيل السيارة على الرغم من أن صوت المحرك لا يبدو جيدًا . . لا أفهم شيئًا فى محركات السيارات؛ ولكنه حتمًا سيتحمل بضعة كيلومترات.

أشعر بتنميل فى أصابعى . . أغوص بيدى فى جيوب بنطالى فأجد مصحف أروى وأفزع . . كان خطأ أن آخذه معى . .

تصـــورت أن الكتاب سيتخلص من ماضيه وهو على الطريق مثلى تمامًا؛ وأن ســلطة الكلمة أقوى من الذكــرى. التخلص من القرآن إثم كبير . . إنه يوقظ غضــب الله . . أيًا كان من ســيجد الكتاب فى الكهف- جندى أو رئيس وحدة خاصة أو صبى يرعى الغنم؛ يبحث عن مكان ظليل بعد عشــرين عامًا- سيعامله باحترام؛ وإن لم يفعل سيحاسب هو على ذلك ولست أنا.

ليس الخوف هو الكلمة الصــحيحة- كم أود أن أتكلم مع محمد؛ ولكننى لا أعلم من أين أبدأ . . أتمنى أن يحكى قصة من أفغانستان . . لا يهم إن كنت أعرفها . . كيف أنهم أوقعوا بقافلة، عشرة مجاهدين ضــد خمســين من الروس ماتوا جميعًا؛ أو يحكى عن مذبحة حول قاعدة للعرب وكيف أن الشيخ انسحب فى كهف لينام بعد أن قضى عدة ليالٍ متتالية مســتيقظًا وسط ضرب شــديد للمدافع، متحليًا بثقة مَنْ يتــوكل على الله . . وعندما اســتيقظ وجد العــدو مهزومًا؛ أو ببساطة كيف أنهم كانوا يأكلون دهن الخروف وسط الثلوج الكثيفة المتســاقطة على الحقــول الممتدة، وكيف أنهم صــلوا جماعة أمام قمم جبال الهندوكوش البيضــاء التى اعتلاها الســحاب. أسلوبه فى الحديث يجعلك تدرك أن كل عبارة صــادقة؛ لا أثر لأى مبالغة أو عبارات جوفاء . . لا ينظر محمد لنفســه على أنه بطل. . إنه رجل يخضــع لأوامر الله، أقل ما يجب أن يفعله كمســلم . . لو كان يعلم مدى التأثير المهدئ لصوته لقال أى شىء . . غالبًا لن أفهمه بسبب جعجعة المحرك الصــاخبة . . يجب أن يصرخ . . لم أسمع محمد يومًا يصــرخ ولا حتى عندما انطلقت رصاصــة طائشة من صلاح وقطعت الجلباب بين رجليه.

تأتى نافذة السيارة المفتوحة بهواء ساخن . . تَكَسّر الأسفلت على يمين وشمال الطريق؛ أما وسطه فملىء بالمطبات . . يبدو أن نوابض السيارة كانت مطلوبة لأمر آخر وتم استبعادها. نقفز فوق المقاعد التى تقطعت كسوتها المصنوعة من الجلد الصناعى وخرج حشوها، يجب أن ننتبه حتى لا تصطدم رءوسنا بالسقف الصلب. أسأل كريم: «ماذا تظن؟»، لا ينزعج محمد من حديثنا باللغة الألمانية . . كانوا فى أفغانستان أيضًا يتحدثون العربية وليس باللغة الباشتوية، يقول كريم مبتسمًا: «لا أعلم، أتوقع كل شىء» . . «هل تعتقد أنهم قبضوا على رشيد؟» . . «ربما» . . «أم أنه لجأ إلى العدو؟» . . «هذا اتهام جلل يصعب ادعاؤه دون دليل» . . «هل تستبعده ؟» . . «الله الوحيد العالم بقلبه»، أمُر بنظرى عبر وجهه إلى خارج النافذة، أنسى لوهلة سبب جلوسى فى السيارة ورحلتى فى الصحراء، أندهش من جمال الخواء وأيضًا من كم الحطام الملقى على جانبى الطريق. «أتعلم ما المضحك حقًا؟ أننى ولدت فى مصر وأرى هذه الأشياء ليس بوصفى سائحًا بل محاربًا» . . «كان من الأفضل ألا تبنى من الأصل ليبقى السياح فى بلادهم ويشترون بعضهم بعضًا» . . «عمرها أكثر من ألف عام»، »حتى خمسة آلاف عام»، «أبدًا، نحن نعيش الآن فى عام 1414هجريًا، الإسلام هو الذى أنهى عهد الكفار» . . لماذا أتشاجر معه؟ سوف يزيد إصراره على نظريته ويعزز موقفه بأنه مصرى ويعرف تاريخ بلده أفضل منى . . «لا يهم» . . «نحن نتمم عمل الرسول. . لو سقط عمود سوف ينهار المعبد بأكمله»، «غالبًا»، «سوف يرى العالم بأكمله الصور» . . «نعم» . . «سوف يعم الهدوء هنا» . . «إن شاء الله».

لا أعلم لماذا أفضــل أن يبقى المبنى . . مراعاة خاطئة لا يفهمها أحد من إخوانى . . المعابد شـاهدة على عبادة الأصـنام وليس لها مكان فى دار الإسـلام . . لو اختفوا سيبتعد الكفار إلى الأبد وليس فقط بعد أن يفيقوا من الصدمة الأولى .

نظرة عابرة على مجموعة من النخيل فى الشـرق ، الخضـرة الأولـى منـذ أيـام ، تبدو غيـر حقيقية مثل السـراب ، مـن العبث محاولة فرك العينين من التراب بأيدٍ معفرة . . منازل متفرقة ، فى الأسوار بعض النوافذ بشيش مغلق ، تُفتَح ليلاً . . تنتهى قبة المسجد الصـغير بقمة ذهبية تعلو فى السـماء بهلال مائـل . . يحل إرهاق مريح محل آلام الأرجل بشكل تدريجى يجب ألا يزيد هذا الشعور ، محاولة للحفاظ على حالة الترقـب . . أغلق محمد عينيه ، أعلم أنه لا ينـام . . ليس مجرد الحفاظ على هذه الحالـة بل تكثيفها . العملية الفعليـة اقتربـت . . تتحرك شـفاهُ كريم فى صـمت . . إنه يدعى ، نسبق – مستخدمين آلة التنبيه – عربة كارو غير محملة يقودها صبى رث الثيـاب . . يومًا ما سـيكون أناس مثل سـمير ومحمد هم مثله الأعلى . . سيكون قد نسى من هو مايكل جاكسون أو مارادونا .

تجلس سـيدة احتجبت بالسواد أمام كوخ منبسط مبنى من الطين إلى جانب عنزة برشاء تأكل حشيشًا من يدها المرتدية قفازًا .

ما كانت أروى أبدًا سترتدى هذه الملابس . . لم تكن حتى تتقبل الحجاب .

لا شىء يترعرع هنا . . اندست منطقة صغيرة فى المنحدر . . لا يوجد بشر فى الشوارع .

بِمَ تفكر لو عشت هنا وتكسب قوت يومك من فراعين مزورة وتماثيل محرمة؛ لأنها تطرد الملائكة أو لو جعلت أولادك يعملون حتى يكفى الدخل للبصل والفول والملح والسكر؟ تكف عن التفكير وتبدأ فى الموت البطىء . . الأحاديث ما هى إلا شكوى من الأحوال دون التوصل لنتائج . . يأس وإلهاء. ما من أجهزة استقبال إرسال فوق أسطح المنازل . . ليس لديهم تيار كهربائى . . لو كان متاحًا لاشتروا تلفازًا على الفور حتى يتمكنوا على الأقل من الحلم بأمريكا . . لا يقوون على قلب نظام الحكم دون القائد الذى سمع نداء الله . . طرد القهر الذى استمر لقرون إيمانهم بتغيير الأوضاع . . الذين نجحوا فى مغادرة البلاد يرسلون من حين لآخر أموالاً. عندما يعودون لبضعة أيام يغلب خجل الأهل من بؤسهم على سعادتهم . . أحد السكان زار مكة وهى أسمى غاية لكل مؤمن . . عليه أن يتحدث عن الأمر طيلة الوقت. جعل أحدهم يرسم له قصة حجُه على جدران المنزل بألوان فاقعة، هو وزوجته بملابس الحج البيضاء إلى جانب مآذن البيت الحرام؛ الكعبة وفوقهم طائرة.

سوف أموت دون القيام بالزيارة.

الشهادة تعوض عن فوات الحج . . ﴿ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝٤ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ۝٥ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ ﴾.

يقول كريم: «كم هى فقيرة بلدى» . . عندما كان يزور مصر فى السنوات الأخيرة كان ينزل عند أقاربه فى القاهرة أو عند عمه

فى رأس سدر الذى يمتلك فيللا على البحر هناك . . «وكم هى قذرة . . لكنها جميلة«، «تعجبنى ألمانيا أكثر» . . «تتجمد فى ألمانيا من البرد».

ينزل مجموعة من الآسيويين من أتوبيس فاخر أمام مبنى كبير نسبيًا؛ كُتِبَت عليه بالهيروغليفية فى صفوف لا منطقية . . يتوافد أول النازلين على مدخل ضيق . . تعلن لافتة على المدخل باللغة الإنجليزية: فخار يدوى، أفضل منتجات الأباستر، أعلى جودة بأفضل سعر . . أقول: «شىء مقزز»، يقول كريم: «مثير للشفقة»، لا أثر لأى شرطى . . الهجوم هنا أسهل من السهولة . . يمكننا أن ننسحب بعد ذلك مطمئنين ونستعد للعملية المقبلة، ولكن ستظل المعابد كما هى والأهم لن تكون هناك صور ولا حتى فيديو غير محترف . . هذه الحرب تحسمها الصور وليس عدد الضحايا، كلما زادت مأساويتها قل عدد البشر الذين يجب أن يُقتلوا . . ببساطة سيبتعدون . . بمجرد أن تعجز الدولة عن دعم الخبز والفول سوف تحتج الجموع الجوعانة، إلى أن يحدث ذلك سيتمكن الشيخ من جمع العدد الكافى من المحاربين للتحالف مع الشعب ضد الجيش.

أخيرًا يظهر وادى النيل . . حقول خضراء مثلما هى على نهر الراين . . مجموعة من النخيل، شجيرات الفلفل، شجر المانجو. بعد أيام اقتصرت فيها الرؤية على اللونين البيج والرمادى تتفجر الألوان . . شعور لوهلة برغبة فى لفت نظر كريم الذى عاود تحريك شفتيه بعيون مغلقة بقول: «انظر إلى الخارج»، ولكنه زال سريعًا . . لا أريد الحديث . . خضرة يانعة، حقول فول . .

يرعى جاموس على منحدر . . لافتات مكتوبة بخط اليد تشير إلى منتجات للبيع ، فواكه وحبوب لتاجر وسيط محلى أو تعلن لسائقى الأتوبيسات والمرشدين السياحيين عن أماكن يأخذون المجموعات إليها وكذلك العمولة المطلوبة . . يقف فلاح أمام كومة من قصب السكر ممسكًا ببغله ويحملق فى العدم . . ضغط بسيط من مصحف أروى على الفخذ .

هناك لحظات يتكون فيها العالم من رموز مقروءة وفترات طويلة لا توحى بأى منطق . منذ بداية تفكيرى وأنا أبحث عن إشارات توجهنى لما يجب أن أفعله ، تترتب عليها أفعال يتوحد فيها الداخل والخارج - مسار السهم من وحى فكر الرامى والرامى يتوحد مع الواحد الأحد . سيتوافق كل شىء مع المخطط الربانى والنظام الكونى وسوف تحل بركته عليه .

هذا ما كنت أتمناه لهذا اليوم ونحّيت هذا الأمل جانبًا لأنه شارد . كان يجب أن تحفل الساعات الأخيرة بالإجابات عن كل الأسئلة وأن تتحقق الفعلة من تلقاء نفسها . . أن نكون سلاحًا فى يدى الله يقوده بأمره . . أن تكون مشيئته هى مشيئتنا . . بدلاً من ذلك يحكنى كتاب فى جيب بنطالى نابشًا ماضيًا قد انتهى . . ماذا عساى أن أستنتج من كحت حافة كتاب مصحف صغير ، كان هدية من امرأة أحببتها ورفضت أن تبقى على طريق الله؟ ماذا يعنى الآن فى لحظة الهدوء قبل الموقعة؟ غالبًا لا يعنى شيئًا ، ولكن طيلة فترة جلوسى محشورًا بين محمد وكريم ورجلاى مضغوطتان ، لا يمكن إزاحته . . مع كل مطب فى الطريق وكل منحنى أشعر به ، يوقظ ذكريات . . أخذت الكتاب من يديها وأنا معقود اللسان ؛

وكنت متأكدًا أنه ليس هدية منها بل إنها توصله.

لشـــهور سعادة وشوق كنا نتقابل شبه يوميًا . . توافق، دروس لغة عربية، دون نظام، ولكن بشغف، خطط لمستقبل مشترك . . تلاها محادثات ازدادت حدتها . . أخيرًا نظرة الوداع في عينيها، حزينـــة ولكنه ليس حزنًـــا لا نهائى، تعرف أنه ســيأتى رجل آخر مناســب أكثر منى ســوف يُكَوِّن معها أسرة إســلامية عادية، يوفر مســكنًا كافيًا، يشــترى لها أســاور ذهبية لتأمينها، له ضحكة تُعدى الآخرين بالضحك، سيلقى قبول أبيها . . ربما جاء بالفعل.

يجب أن أقرأ.

لــو أن الحق يكمن فى الله؛ ســوف يكون الجزء الذى أفتح عليه الكتاب وأشــير بأصبعى إليه هو المناسب لى فى هذه اللحظة، أُنْزِلَ بشكل خاص لى.

كيف أفتح صفحة كتاب بالصدفة؟

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ﴾

الحمد لله. كل ما كُتِب هو حق وجميل وقوى.

أواصـــل توقعاتـــى الخاطئة لهذا اليـــوم بلعبة مثيرة للســخرية، أتعامل مع الكتاب المقدس على أنه لعبة كوتشــينة أمارســها؛ معتقدًا بالخرافــات وأتحدى الله. معظــم الآيات لا يمكن الوصــول إليها صــدفة؛ بينهما مســافة كبيــرة فـــى الأول والآخر أو بدايــة وآخر

الصفحة، سيكون متعمدًا أن أضع إصبعى على الجزء المطلوب، ولكن ربما تحت هذه الأجزاء المقطع الذى يجب أن أتأمله الآن لأجد الراحة.. تتشابك الأفكار.

عندما تتعقد الأمور قد لا ينجح سوى السيف فى حلها.

لست هنا لأننى أحببت أروى ولا لأنها تركتنى.

﴿وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾﴾.

ننحرف عن الطريق بقوة ونعبر مساحة مفتوحة، توجد شمالاً قناة رى عريضة، على الرغم من ذلك تمتلئ أجزاء كبيرة من الحقل بالحصى، عشب جاف، وبعض الأشجار تعلوها خضرة كثيفة. يأتى أتوبيس فى الاتجاه المعاكس مستخدمًا آلة التنبيه ويكاد يدفع بنا خارج الطريق.. على اليمين تمثالان كبيران من الحجر فى وضع الجلوس، يبدو أنهما وُضِعا بالصدفة، نصف محطمين: تمثالا ممنونًا. تتمشى حفنة من السائحين، تلتقط الصور وتستمع لشرح خريج آثار سعيد بأنه ليس مجبرًا على قيادة سيارة أجرة. كشك قبيح للتحف التذكارية لا يشترى أحد منه شيئًا، مصنع ألاباستر تقشرت على جدرانه الحروف الهيروغليفية.. يقف على انفراد شابان فى زى بدوى إلى جانب جمالهما المزينة التى لا يرغب أحد فى ركوبها.. أظهر هجوم الأسابيع الماضية تأثيره.. نحن فى موسم السياحة، عادة تعج المنطقة هنا بالبشر. فى الخلفية جنود يشعرون بالملل.. يتسكعون فى ظل عربة الجنود حتى لا يفزعوا السياح القليلين، يقتلون الوقت، يسندون بنادقهم الآلية على الإطارات فى استرخاء.

لو كان رشــيد قد تكلم أو لو كانوا على علـم بالهجوم المرتقب؛ لاختلف سلوكهم.

كلمـا اقتربنــا مــن النيــل ازدادت الطبيعة خضــرة . . تنعكس صــورة النخل فى حُفَر متسـخة؛ بسبب صـورة السـماء المنعكسة- أيضًــا- يبــدو لــون المَــاء أزرقَ فاتحًــا . . تنمو فى بِرَك ضــحلة زهــرات البردى . . يجب علــى الفتيات فيما بعد أن يرســمن على الأوراق المجففــة نفرتيتى ورمســيس مع النســور والخنافس من أجل أرفف الذكريات فى غرف المعيشــة فى الغرب. ينتظر حمار مطأطئ الرأس . . ضــربات مرتقبة . . ســيدور بعدها عدة مرات حتى تنقل الســاقية ماءً كافيًا من مجرى إلى آخر. غابات كثيفة من شــجيرات الموز ثم قصــب السـكر والغاب الطويل . . التربة هنا غير صــالحة للزراعة لأنها أرض مسـتنقعات . . تتأرجح مراكب بها شـباك صيد ودلاء بلاستيكية فى الماء . . ثلاث سيدات يرتدين ملابسـ ذات ألوان زاهية؛ ويحملن أوانى معدنية بها غسـيل فوق رءوسهن . . يغسلن ملابسهن فى النهر، أكواخ من الطين صنعت من سـعف النخل وبواقى خشــب البناء ونشارة خشب مضغوط . . تأتى بالاتجاه العكســى دراجــة بخارية مطقطقــة يركبها ثلاثة من الرجال نصــف جالسـين .يلوحــون إلينــا . . يقول كريــم: «هذا جنــون»، ويرد التحية. . لقــد عاش فى ألمانيا فتــرة طويلة تمنعه مــن أن يجد هذا المنظــر طبيعيًا . . نحيد عــن الطريق وندخل فى طريق ضــيق ووعر وســط الغاب، نهتز يمينًا ويسارًا حتى يذوب المخ، نتوقف وتحيطنا أدغال فى درجات من الأخضــر لا حصــر لها. لا يوجد بشــر هنــا غيرنا . . يطفئ هانى محرك الســيارة . .

يسود هدوء كامل . . أسمع شيئًا فشيئًا حفيف أوراق الشجر الطويلة اليابسة، كحت خفيف بين الأسل . . يرفرف إلى جانبنا مباشرة طائر البلشون . . أصابتنى رجفة . . يضع محمد يده فوق يدى لوهلة . . يقول كريم: «ألا تبدو الأمور جيدة؟»؛ أقول: «تبدو جيدة». نجلس ونتنفس بصوت منخفض . . يمكننا النزول؛ ولكن لا أحد يبرح مكانه حتى يأتى سمير وينحنى من النافذة؛ قائلا: «كدنا نصل، تبقى بعض الخطوات سيرًا على الأقدام».

«اللهم افتح لى أبواب رحمتك، يا مجيب دعوة الداعى إذا دعاك، اغفر لى واجعل لى فى طريقى نورًا ولا تحملنى ما لا أطيق يا أرحم الراحمين».

يبقى هانى بجانب السيارات.

لا أعلم الكثير عن الرجلين اللذين أقاما مخبأ السلاح . . ينتميان إلى مجموعة أخرى تتعاون مع خالد بشكل مكثف. يقال إن واحدًا منهما حارب أيضًا فى أفغانستان كحارس شخصى للشيخ حتى أجبرته إصابةٌ على العودة . . ربما هى مجرد شائعات . . يود الجميع مقابلة أى شخص من محيط الشيخ . . من قابله يدعى أن له قوة تنتقل إلى من حوله.

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ ﴾

يبدو الهواء أكثر برودة بسبب الماء الذى يحيط بنا ومساحات الظل. يعرف خالد الطريق . . كان هنا بالأمس لمراقبة

التحضـيرات الأخيرة . . تم اختيار المخبـأ وفقًا لاقتراحه . . يبعد بعض سـيقان النبات الكثيـف بيده ويبدأ من خلفها درب ضـيق لا تـراه فى البداية . . تمتلـئ المنطقة بحفر وقنوات متشـابكة . . لن تجدها على أى خريطة. من لا يعرف الطرق هنا سـوف يجد نفسه داخل متاهة ليس لها مركز . . لا توجد تماسيح شمال السد العالى، كنا سـنجدهما هنا، بدلًا من ذلك أسـراب ضـخمة من الناموس . . نضـرب أنفسـنا على وجوهنا وعلى أيدينا . . يمر بعض الأوز من أمامنا سـابحًا فى هدوء . . أخطو داخل حفرة مستنقع ويتسلل وحل سـائل من أعلى الحذاء إلى داخل قدمى . . ابتلت قدمى اليسـرى، أفكر: سـتلتهب البثـور المفتوحـة . . أفكر: لن تصـل الأمور إلى هذه الدرجة . . دافعٌ بأن أضـحك بصـوت عـالٍ وبجنون . . فى الأمام أصـوات لغرباء . . فزع لثانية . . أصـواتهم بها ود، يرد كل من خالد وسـمير: «وعليكم السـلام». نصـل إلى بقعة جرداء مرتفعة قليلًا ويحيط بها شجر وشجيرات . . على شاطئ القناة التى تعد بحيـرة ممتدة فى الطول هناك قوارب مطاطية بألوان تمويهية مزودة بمحركات قوية، إلى جانبها زوارق من صفيح، تسريب، هناك ماء داخل الهيكل. يوجد اثنان آخران جاهزان لسد الثقوب.

كوخ صيادين صـنع من بقايا قطع خشب ملونة يبدو منحنيًا بين الأغصـان . . الباب شبه منفصـل ومتكئ على الحائط . . صفيحة زيت، كراسى خيزران وشمسية ممزقة. علقت على أعمدة ضعيفة شباك صيد لإصلاحها. يبدو أن هناك صيادين يعملون هنا بالفعل. ما الأسـباب التى قالهـا خالد لهم ليبقوا اليوم فـى منازلهم؟ بِمَ علل الأمـوال التـى أعطاها لهم مـن أجل يوم بلا عمل؟ هـل هى كافية

لشراء محركات جديدة؟ كيف سيشرحون الأمر لزوجاتهم؟ الأهم من كل ذلك؛ من يضمن ألا يغلب الخوفُ الطمعَ أو أن يكبر الطمع لدرجة أن يذهبوا إلى الشرطة ويبيعون رءوسنا ليحصلوا على ضعف المبلغ؟ ليس من مهامي مراجعة الخطط . . هذه مسئولية أشخاص آخرين . . مؤكدًا أنهم أدوا واجبهم بحكمة في تبادل متواصل مع رؤسائهم.

اسما الرجلين عبد الرحمن ومسعود . . يرتدي مسعود غطاء أسود على إحدى عينيه ويعرج . . غالبًا هو الأفغاني . . لن أسأله عن الشيخ، لا يوجد وقت لذلك. يقول سمير: «كانت لدينا مشكلات، لقد اختفى رشيد».

يعيد خالد سرد الأحداث مرة أخرى بتفاصيل أكثر . . يدخل الخولي إلى الكوخ أولًا؛ ويأخذ بندقية آلية في يده ويزنها وهو راضٍ، ترتفع معنوياته. يقول عبد الرحمن: «لقد قضينا ليلة الأمس هنا، لم نرَ أحدًا» . . يقول خالد:» هذا لا يعني شيئًا، رشيد لم يكن يعرف أين سنتوجه تحديدًا، تمامًا مثل هاني» . . يقول سمير: «لا أظن أنه يجب أن نقلق».

الساعة الآن الحادية عشرة وعشرون دقيقة؛ كنا نخطط للوصول في الثانية عشرة . . المفاضلة بين الانتظار والبدء في تجهيز القوارب . . من الآن فصاعدًا نحن مستقلون. يسأل سمير ناظرًا إليّ: «هل يريد أحد أن يستريح؟»، لا يقصد شيئًا من ذلك . . بالتأكيد لاحظ أنني لست مرهقًا أكثر من الآخرين . . «هل من ميزة لو تحركنا في وقت متأخر؟» . . «لا». في الصيف هناك ناس

أقــل فى المعبد ظهرًا . . الآن لا يشــكل أهميــة . . «إذن لدينا وقت لاســتراحة». يصب مســعود شــايًا بنعناع طازج . . خليط الشاى سكره مقزز حتى بالمقارنة بما هو معتاد هنا . . يقول شكرى بعد أول رشــفة بلمعة فى عينيه: «نتذوق الجنة» . . أتأثر أحيانًا بسذاجته . . أحيانًا أخرى يزعجنى . . نشــرب من أكواب بلاســتيكية . . يوزع جمال خبزًا بلديًا علينا، بات قوام الخبز مطاطيًا.

تنمو على الجانب شــجيرات برية ذات سيقان طويلة بها زهور لونهــا أحمــر زاه . . تمر يدى علــى أحد العيدان وأقول بصــوت منخفض: «هذه آخِر زهور ســوف أراهــا» . . ألاحظ أن الخولى يراقبنــى ويهز رأســه باحتقار . . هو على حــق . . إنها لفتة مثيرة للشــفقة . . من يحارب من أجْل البقاء على قيد الحياة أو البقاء على طريــق اللــه ليس لديه حــس لرومانســية الطبيعــة . . أقوم- على الرغم من ذلك- بقطف زهرة وسحقها بين أناملى التى تلونت بلون البنفســج واضعًا أصابعى أمام أنفى . . لا تنبعث أى رائحة منها . . رائحة مثل عصير النبات أو الحشيش المهروس.

يخيب الله الآمال الخاطئة حتى نتوكل عليه بدلًا من الوقوع فى الأوهام.

توجــد بالكوخ بنــادق آلية من تراز إيه كــى 47، وقنابل يدوية وصــواريخ أمريكيــة مضــادة للدروع. يســتطيع كل مــن محمد والخولــى التعامل معها . . تم الحصــول عليها من خلال وســطاء مــن وكالة المخابــرات الأمريكية. يقــول الخولى: «أســتطيع أن أصــيب بها يمامة طائــرة»، يقول محمد: «لا تبالــغ، الله لا يحب

المبالغين» . . «حسن ، إذن صقرًا» . . يصيح ضاحكًا ، أدرك الآن أن محمد كان يكرهه أيضًا من قبل . سوف يحاولون إصابة العمدان التى تحمل المعبد الرئيسى بالصواريخ . لم يقم أحد من قبل بشىء مماثل ، لا يمكن توقع ما سوف يحدث أو تقدير إذا ما كانت قوة الانفجار كافية . مع قليل من الحظ سيهرب الكثيرون إلى هناك عندما ينهار . . يقف كل من جمال وأحمد وشكرى مسلحين عند القوارب؛ ويتحدثون بشكل فوضوى . . لكل واحد رد فعل مختلف تحت وطأة الانفعال؛ يبدأ أحدهم بالهذيان والآخر يصاب بالنشاط الزائد . أريد أن أكون وحدى وأصمت . . الجميع يوقعون الآخرين فى حيرة ويحرقون دمهم . . لم ينفعل أحد حتى الآن أو قام بالصراخ .

أُثبّت قنابل اليد فى الحزام ، آخذ بندقية وأزود مخازن إضافية . . خليط غريب من الإثارة والخوف . . لم أطلق النار فى حياتى على بشر ، فقط على الأشكال الكرتونية . . طلقات مصوبة بمكبر أو بدون ، طلقات متوالية .

ظلوا واقفين إلى أن بقى مجرد شظايا . لا أعرف طبيعة شعورى عندما أرى الأمريكى السمين وزوجته ذات الوجه الخنزيرى ملقيين على الرمال – الابن ذا الخمسة أعوام والابنة الصغيرة .

﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ ﴾ . نجبر أحيانًا على فعل الشر لنساعد الخير فى الانتصار .

يقف صلاح قرب الماء، ليس لنظره وجهة . . صبى فقد أبويه ويبذل مجهودًا ليبدو خطيرًا حتى لا يضربه من هم أكثر قوة. قام بتدريبات قاسية فى الأشهر الماضية؛ ولكنه يمسك بالبندقية كما لو أنه سيصيد بها ولا يعرف كيفية القيام بذلك. يقول كريم: «نقوم بطرد الكفار من بلدى وأنت تعيننا على ذلك، لهذا العمل شأن كبير» . . «أقوم بما أمرنا الله به» . . «بارك الله فيك» . . الإجابة على طرف لسانى: «لم أعرف هذا الشعور من قبل»، ولكننى لا أقولها . . أتمنى سؤاله: «مم تخاف أكثر، أن تموت أو أن تقتل؟» . . كان من الممكن أن يدور هذا الحديث فى ألمانيا وليس هنا . . وبالأخص ليس فى حضور الآخرين . . أقول من أجل قول أى شىء: «أود أن أكون جديرًا بهذه البركة».

كريم صديقى ولكن لهذه الصداقة معنى آخر هنا فى مصر. منذ لحظة خروجنا من الطائرة فى القاهرة بات هو من أهل البلد وأنا الضيف الذى يرعاه . . كثيرًا ما كنت أشعر بالامتنان لذلك، ولكن مع الوقت تأثرت صداقتنا سلبًا. يقول: ﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ ﴾ أنت تنتمى إلى هذه القلة يا عبد الله».

يظن أننى لن أجد طريقى فى الإسلام أو فى البلد دون مساعدته.

أصوب البندقية تجاه أحد القوارب: «اليوم وقت مناسب للموت»، يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: «الجنة تحت ظلال السيوف».

لقد تناقشنا مرارًا وتكرارًا فى خطوات العملية؛ وعلى الرغم من ذلك يجمعنا سمير مرة أخرى: «عندما نصل إلى النيل سننتظر لحظة مناسبة للعبور .. لن يستغرق هذا سوى بضع دقائق، بعد ذلك يجب أن يتم كل شىء سريعًا. الأقصر مليئة بعسكر الجيش.. إن شاء الله لن يلحظونا إلا بعد بدء الهجوم .. لا نعلم ما سوف يحدث .الأهم هو تعطيل قوات الأمن حتى نصل إلى المعبد دون أن يتمكنوا من حشد أعداد أكبر .. لو استطاع أحد منكم أن يساعد أخاه فى الاستمرار فليساعده؛ ولكن قبل وصولنا للهدف لن يلتفت أحد لمصاب .. نضع أعمارنا بين يدى الرحمن .. قد يسمح لنا بالتراجع .. قد يُهدينا الشهادة، إنه أعلى تقليد للمؤمن».

يدرك الجميع تمامًا أن الهروب ليس جزءًا من الخطة .. ستكون بمثابة معجزة لو ترك أحدنا محيط المعبد حيًا.

يركب خالد القارب أولاً، سيقودنا عبر القنوات .. يحدد سمير أن يركب كل من جمال وسمير والخولى معه .يركب محمد وكريم وأنا القارب الثانى، أما هو فيركب الأخير مع أحمد وصلاح، يتولى كل من خالد ومحمد وأحمد القيادة .. نضع الأسلحة إلى جانبنا ونغطيها بالمفارش حتى لا تكون ظاهرة ولكن فى متناول أيدينا، نخبئ القذائف ومدافع مضادة للدبابات تحت أغطية بلاستيكية .. تبدأ المحركات فى الوقت نفسه.

تُحدث ضجيجًا يصم الآذان على الرغم من أنها جديدة .. تنبعث ثلاث سحابات دخان زرقاء فى السماء، تتشتت صورة انعكاس السماء على سطح الماء إلى دوائر متحركة .. يتنحى سرب من

الناموس جانبًا كما لو كان ينفذ أوامر . . حتى هذه اللحظة كان هذا المكان مناسـبًا للاختباء بضعة أيام والتجمع ومناقشة بعض الأمور في هدوء قبل الشروع في تنفيذ العملية مُتَحِدين كيدٍ واحدة . . تهرع طيور مائية لتختبئ في الغاب . . يعاود الشعور بالحاجة إلى محادثة محمـد ، مرة أخرى لا أعـرف كيف أبدأ ، هناك ضـجيج على أي حال . . ترتفع مقدمة القوارب . . نتحرك سـريعًا في الماء تاركين أثرًا من رغاوٍ بيضاء وخضراء .

يتحدث خالد إلى سـمير بصـوت عالٍ ، ربما يشرح له الطريق أو يتحدث عن جودة المواد التي جلبها شـاكيًا من صعوبة الحصول عليها . . يومئ سمير برأسه . . أراه من الجنب مستقيمًا مثل الشمعة واضـعًا يده على فخذيه ، مشـدودًا مثل القوس قبـل الانطلاق . . عادة تنتقل ثقته في حربنا من أجل الحق إلى من حوله ، ولكن ليس اليوم . . ربما بسـبب أخطائه في المرحلة الأولى . . لقد أضـروا بمكانته . يتوجه إلى صلاح ويشير إليه بالاقتراب . . ينحني صلاح إليه حتى تصـير أذناه أمام فم سمير . . تعبر اللفتات القليلة عن ألفة بين أب وابنه ، أحسـد صـلاح عليها . . هو ابن متَبَنٍ لسمير . . أنا مرءوسـ يكنُ لـه الاحترام . نحيد عـن الطريق ونتـرك المنطقة المغطـاة بالغابات ونمر في وسـط بوص الـذي يتكاثف ونقلل من سـرعتنا . . يضيق الممر كما لو كان مغلقًا ؛ ولكنها خدعة بصرية . ضـوء يعمي الأبصار على الرغم من نظارة الشمس ؛ يدفع الخولي وجمـال بالبوص إلـى الجوانب ، تنكسـر وتقع تحت سـطح الماء وتفتح ممرًا . . شـك في أن يكون خالد على معرفة جيدة بالطريق كما يدعي . تتحول ضوضـاء المحرك إلى ضوضاء في الرأس . .

مــاذا لو ضــللنا الطريــق؟ أمل أحمق بأن نضــل الطريــق وتُؤَجَّلُ المعركــة والموت، إلــى الغد، إلى وقت غيــر معلوم؛ ولكن حتى لو تأخرنا ســاعتين ســيكون عدد الناس فى المعبد كافيًا لو افترضنا أن قوة ضرب الصواريخ مناسبة. يحرك محمد القارب باسترخاء كما لو كنا نوصــل حمولة صيد ســمك يومية إلى التاجر . . يعرف كيف يكون شــعورك عندما تقتل وشــعورك بالخوف من الموت؛ ولكنه تخلص منهما لأنهما لا يؤديان إلى شيء. أسأل كريم: «ماذا تدرس أختك؟» . . «إدارة أعمال» . . «لم أكن أعرف ذلك» . . «جربت أولًا علم الأرصــاد الجوية . . لمــاذا؟» . . بالفعل لماذا؟ بالكاد أعرفها ولا يعنينى أمرها . . «خطر السؤال على بالى الآن».

مــاذا لو كان خالد هو الخائن؛ ويتعمد أن يلقى بنا فى حارة ســد لتقــوم فرقة خاصــة بتصــفيتنا؟ وارد أن يكون هو وهانــى قد قاما بتأليف قصــة اختفاء رشــيد من أجل إيقاعنا فى فخ بعلم وبطلب من المخابرات. لقد وثق شــكرى فى رشــيد، إنه يعرفــه منذ أكثر من عشرين عامًا . . أنا أثق فى شكرى وإن كان أحيانًا يثير أعصابى . . بالكاد أعرف شيئًا عن خالد. الشعور بالاضطهاد عَرَض للبارانويا فــى مراحله الأولى . . تتســبب الضوضــاء المســتمرة فى جنون الأفكار، ممارسو التعذيب يتبعون هذا المبدأ: بعد تعرضه المستمر للضوضــاء لمدة أسبوع؛ يجيب الســجين عن جميع الأسئلة بمنتهى الصــدق لو تلقى وعدًا بالســكون. مــا من تراجــع . . لا أريد أن أتراجــع، أريد أن نبدأ لننتــهى قريبًا؛ حينئذ ســتبدأ الحياة الحقيقية: ﴿ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾ ﴾ صــور؛ ربمــا

تشبهها الجنة الموجودة فى ظل السيوف . . ربما هى مختلفة تمامًا، لا تشغلنى هذه المسألة . . الانتقال من هذا العالم إلى العالم الآخر هو الشىء الصعب.

فوق البوص تتضح فجوة ضيقة فى سلسلة الجبال التى نزلنا من أعلاها، ويرسم الغبار فى الهواء معالمها بنعومة. فى بعض الأجزاء تتواصل الجبال بانسيابية مع الزرقة فوقها . . نور دافئ لا تشعر معه بالبرد ولا بأنك تحترق، تستطيع تحمل وجودك فيه.

يلوح سمير بيده، إثارة غريبة ليست من طبعه . . ربما يريد أن يشجعنا . . لا أستطيع التحدث عن الآخرين، ولكننى على ما يرام . . أرفع له إبهامى . . يهز رأسه سريعًا مشيرًا خلفه؛ حيث اعتدل البوص مرة أخرى وحجب الرؤية . . لا أرى شيئًا غير مألوف: «هل ترون شيئًا؟» . . يهز محمد كتفيه وينظر إلى الأمام.

يقول كريم: «يريد أن نبطئ سرعتنا» . . فى الأغلب يملك سمير أسبابًا لذلك . . لا يفعل شيئًا دون سبب وجيه. أصرخ إلى الأمام: «توقفوا» . . بعد المرة الثالثة يعطى الخولى إشارة بأنه فهمنى وتلفت انتباه خالد إشارات يد تعبر عن تساؤلات . . لا أعرف الإجابة وأشير إلى سمير . . يقلل خالد من سرعته حتى ينضم إلينا . . «ماذا حدث؟». هدأ الآن صوت المحركات، نسمع أيضًا: خلفنا ليس بمسافة بعيدة قوارب أخرى . . ربما هم صيادون؛ أو أناس يصطادون البط البرى للفنادق الفخمة ويجمعون الفاكهة . . ربما يدر عليهم ذلك بضع جنيهات، هنا يسعد الجميع بأى دخل إضافى. ليسوا بقربنا بشكل مباشر حتى الآن. يقول الخولى: «هم

أربعة على الأقل، أكثر من أن تكون صدفة» . . بندقيته بالفعل فى يده.

يأتى أحمد إلينا ويقول سمير: «كان هناك تبادل لإطلاق النار من حيث أتينا» . . يومئ سمير: «لم يستغرق الأمر أكثر من دقيقة» . . «هانى . . » . . «غالبًا هانى» ، «أو عبد الرحمن ومسعود» . يقول كريم: «اللعنة»؛ ويلعن جمال بالإنجليزية: «فى الأغلب هانى» . . «ماذا الآن؟» . يزر شكرى أجفانه وتسقط الدموع على وجنتيه، يقول سمير: «لقد انهار رشيد» ، لا ينم صوته عن إدانة ولا عن احتقار . . إنهُ فقط يسجل ملحوظة: «اغلقوا المحركات حتى لا يسمعونا» . . يقول خالد: «لن نستطيع العودة، ليس لدينا أى فرص فى النيل» . . وضوح كامل للكارثة. أقول لنفسى بالألمانية: «كنت أعرف» . . يصرخ الخولى فىَ: «تحدث بالعربية» . . «أنا آسف . . أعتذر» . يقول محمد: «مروحية» . . دوىّ للمروحيات غربًا . . ما زال صوتها خافتًا . يقول الخولى: «يا أخى، كم واحدة أسقطناها من السماء؟» . . «واحدة» . . «أنا» . . «كان الأمر مختلفًا مع صاروخ ستينغر» . يتجاهل الخولى هذا الاعتراض بامتعاض . . «تقع على مسافة من هنا مزرعة للموز، بمعونة الله سنصل إلى هناك، يمكننا أن نختبئ ولدينا ساتر ضد هجمات من الجو» ، يوافق سمير: «هل يمكننا الاستمرار دون المحركات؟» . . «نستطيع المحاولة» . . «ماذا لو عبرنا المستنقع مباشرة؟» . . «أردت ذلك ولكن واردًا أن نظل عالقين ونضطر للسير على الأقدام» . . «ماذا لو سبحنا؟» . . «الماء ضحلٌ» . . . يقول سمير: «لن تضيع وقتنا» ، يوجه حديثه إلى الخولى: «لن نطلق

النار قبل أن يكتشفونا أو نصل إلى المزرعة». يعبر قارب خالد حائط البوص.. يحاول شكرى قدر الإمكان إزاحة العيدان.. خشخشة حادة للسيقان التى لها حدة السكين.. تقترب ضوضاء المحركات ببطء من اتجاه واحد.. لم يحددوا مكاننا بعد.. غالبًا لديهم تصور مبدئى عن هدفنا، الحمد لله.. هذا أمرٌ نافذ.. أنا محارب.. لا أخشى شيئًا.. نأخذ أنا وكريم المجاديف، يحمل محمد سلاحه مستعدًا.. وابل من رصاص بندقية آلية يقرع سطح الماء.. لا نرد.. الآن على أكثر تقدير يسود اليقين.. ما كنت أخشاه وما رفضوا التفكير فيه قد حدث؛ لقد وشى أحد بنا، باع روحه، أو فقد القدرة على تحمل الألم عندما كانوا يركلونه وينزعون أظافره بكماشة. نتقدم ببطء شديد.. فكرة مجنونة أن نحاول عبور المستنقع - خطأ آخر؛ هناك جبال وصحراء وجليد وأحيانًا غابات فى أفغانستان.. بالكاد يعرفون شيئًا عن طبيعة هذه المنطقة، خاصة أن الطيور المرفرفة تكشف عن أماكننا.. لو عبرنا القنوات بسرعة كاملة لوصلنا إلى المزرعة فى خمس أو عشر دقائق على الأكثر؛ بشرط ألا يقلل خالد من المسافة المتوقعة مرة أخرى. بعد قليل ستكون المروحيات فوقنا.. سيكتشفوننا سواء كانت لنا أصوات أم لا.. نحن بلا حماية تمامًا، صاروخ أو اثنان لكل قارب على مستوى طيران منخفض وينتهى الأمر؛ دون أن نكون قد قتلنا عدوًا واحدًا. يجهز الخولى مدفعًا مضادًا للدبابات للإطلاق.. لو يستطيع أن يصيب به صقرًا لن تكون المروحية مشكلة.. نباح.. يقول كريم: «معهم كلاب».. «لن يفيدوا شيئًا فى الماء».. «أكره الكلاب، إنها حيوانات نجسة».. «اطلق عليها النار».

نصل لمجرى مفتوح . . يبدو أن خالد اقتنع على عكس تعليمات سمير بأن الحكمة تفرض المواصلة بالمحركات، ويشد الحبل حتى يبدأ المحرك بالدوران. يشير إلى اليسار، يزيد السرعة ويبتعد لمسافة عشرين أو ثلاثين مترًا . . أرى أن الخولى يصرخ فى وجهه ويرد هو بالصراخ أيضًا . . يمسك الخولى به من رقبته ومعه فجأة سكين فى يده . . تنخفض سرعة القارب. أقول لمحمد: «ابْقِ المحرك دائرًا وإلا لن نصل إلى شىء» . . يمسك محمد بمقبض فى طرف الحبل ويلتفت إلى سمير قائلا: «ليس أمامنا خيار آخر» . . يومئ سمير . . يغلق للحظات عينيه ويهز رأسه . . من خلفنا دوى مطول لقذيفة . . تنفجر فور وقوعها على سطح الماء، وتمزق الخضرة إربًا وتحدث فجوة فى الماء حتى القاع، وتقذف بطين وجذور فى الهواء . . سحابة سوداء تقطعها ألسنة لهب برتقالية . . قذيفة ثانية . . المنظر نفسه . . يطلقون النار دون هدف. ما زالوا يجهلون مكاننا . . نصل إلى خالد . . عند وصول قارب سمير يبعد الخولى السكين عن رقبته ويقول ثائرًا: «لا أحد سوى سمير يعطى الأوامر هنا وأنت تستجيب«. يقول سمير: «اترك الأمر الآن . . زودوا السرعة» . . يشحب وجه خالد ويزيد السرعة بيد مرتعشة. . يعيد الخولى ضبط وضع المدفع فوق كتفه، إنه جاهز للحرب ويستطلع السماء . . لا يمكننى تصور أن قاربًا مطاطيًا بإمكانه استيعاب الصدمة الارتدادية؛ حيث يكون التصويب دقيقًا فى ظل تحرك القارب. أسأل محمد: «لماذا لا تحمل واحدة؟» . . «لن تفيد شيئًا» . . »ألا تريد المحاولة على الأقل؟« . . . «انسَ» . . «هل سيتمكن هو؟» . . «لا»، «ماذا إذن» . . . «ربما سننجح، ربما لا» . . . القناة ضيقة ويرتفع طول

البوص إلى مترين أو ثلاثة . . . لا يمكن رؤية شيء سوى المحيط القريب . . . يأتى من حرف نظارتى ضوء ساطع ويقترب إلى محيط نظرى؛ ثم يشع أبعد من الإطار . . إلى أى مدى يجب أن تقترب المروحية لنكون فى مرماها؟ هل يمكنهم رؤيتنا قبل أن نراهم؟ هل يجب أن يرونا من الأصل أم لديهم صواريخ تقودها درجة حرارة الهدف؟ هل محرك القارب كاف . . قد يصيبون أفرادهم على الأرض . . لم يتوقع أحد أنهم سيطلقون نصف جيشهم علينا . . قذائف مرة أخرى . . قريبة جدًا . . ضغط مفاجئ، يكاد يطرحنى أرضًا . . يدخل الماء داخل القارب . . شىء مبلل فى وجهى . . ليس دمًا.

يشير خالد إلى اليسار ويحيد عن الطريق . . نتبعه . . المزرعة . . غابات من شجيرات الموز تفوقها نخيل بلح فى الطول . . يقفز الخولى فى الطين، المدفع فوق كتفه وبندقيته الآلية على بطنه ويخطو بضع خطوات ليصل إلى الأرض اليابسة . . يصرخ: «اتخذوا ساترًا»؛ ينبطح أرضًا موجهًا نظره إلى الخندق . . يطردنا إلى الجوانب . . يزيح محمد نفسه إلى اليمين حتى يتمكن الخولى من أن يسدد إلى الهدف . . إلى قارب حديدى مسطح على بعد ثلاثمئة متر خلفنا ملىء بالعساكر وخلفه واحد آخر . . طلقات تضرب على السطح مثل قطرات ثقيلة وقت العاصفة . أوشكنا على الوصول . . ما زال كل من سمير وصلاح وأحمد داخل القناة . . يردون بإطلاق النار . أرى أحمد الذى ينزع ذراعه لأعلى وينقلب من على القارب، رؤية ببطء متناهٍ . . يتخذ الماء لونًا أحمر . . يعلو صوت المحرك ويتخبط القارب . .

ما زال أمام سمير وصلاح عشرون مترًا حتى الشاطئ وسط طمى بنى ارتفاعه حتى الركبة. . بنطال صلاح مبلل من الأمام، لقد تبول، ولكنه يغطى سمير: «تفرقوا» . . يصرخ الخولى: «الله أكبر» وهو يطلق صاروخًا، ﴿وَٱلْعَـٰدِيَـٰتِ ضَبْحًا﴾، إنه شعاع نار، ﴿فَٱلْمُورِيَـٰتِ قَدْحًا ۝٢ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا﴾ يريد الخولى أن يرجع إلى المركب ليأتى بصاروخ آخر؛ فيقطع وابل من الرصاص القارب إربًا. ﴿فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا﴾، بينما ينطلق الصاروخ حاملا أملًا: لو أصاب سنكسب بعض الدقائق. . ﴿فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا﴾ كتلة لهب. . يرفع الخولى المدفع صوب السماء ويطلق صوتًا مفزعًا . . انقطع قميصه فوق مرفقه، تسيل الدماء. أشباح لأجسام وبشر، كلب، تخرج أجزاء حديدية من سواد ينفجر وتبقى للحظة فى الهواء . . أصوات تحتضر، ببطء، بعيدة بشكل غريب . . تنتشر الأمواج مكان القارب . . سوف ننتصر . . سوف ندمرهم . . يطفو أحمد دون حراك بين مفارش وقطع مطاط . . راح وجهه وحَلّ مكانه لحم وأجزاء من عظام. تزيد ضوضاء المروحيات لدرجة أننى لا أسمع أى نداء . . إلى أى اتجاه يجرى سمير؟ لون المروحية مثل لون الرمال، للتمويه فى الصحراء . . توقعت لونًا داكنًا، حيوانًا أسودَ . . نجرى . . أرى كريم وعلى اليمين محمد . . الخولى هو الأخير . . يرجع إلى الخلف دون استعجال خطوة بخطوة ونظره على العدو . . يضرب حوله . . لا ينتبه لجرحه . . ليس لديه صاروخ آخر. عبر أوراق سميكة ولينة، قارب إنزال ثالث ورابع . . يدورون حول حطام وبواقى بشر . . يلوحون بأيديهم بعنف . . الجنود ليسوا أحرارًا . . لديهم ما يمكن أن يفقدوه . . يخافون، لذلك نضربهم . . ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَـٰبِ ٱلْفِيلِ

﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾﴾ تقف المروحية أمامنا مباشرة . . أراها بين الأوراق ، أشعر بهواء المروحة ، الجسم الخارجى مُدَرَّع ، لن يكون لذخيرة بندقية آلية أى تأثير . . وفر طلقاتك! ستار نارى من الهواء . . تتكسر الغصون . . أستمر فى السير باحثًا عن ساتر . . أختبئ خلف جذع . . كريم موجود إلى جانبى ويصرخ: «جنود مظلات» . . أرد: «سنطرحهم أرضًا ، ودعنا نبقى معًا» . . «إن شاء الله» . . نحن فى وسط شجر كثيف . . إنه يحمينا . . نتوغل عبر شجيرة وراء الأخرى . . طلقات من ناحية الماء ، صرخات تتكرر . . يا ترى من؟ أرى أحدًا يركض . . أحد منَّا . . أين الآخرون؟ أين محمد؟ محمد يعرف كيف يتعامل مع هجوم من قبل مروحية ، وكيف يتصدى لجندى مظلات . يجلسون فى الكوة ، جاهزين للقفز . . المسألة بسيطة ، هدئ يديك . . بيد هادئة ستكتفى بطلقة واحدة لكل واحد . . كل طلقة محسوبة . ينخفض مستوى المروحية مرة أخرى ، يبقى على مسافة عشرين ، خمسة عشر مترًا ثم عشرة أمتار من الأرض ، مباشرة فوق قمم الأشجار التى تهتز كما لو كان هناك إعصار . . مناورات فى المكان . . تسقط حبال . . يبدو ظهر جندى فى الكوة ، يتشبث بالحبل بيديه ورجليه . . أنظر إلى كريم وكريم ينظر إلىَّ . . يصرخ : «إنه لى» ، ويضرب . . طلقته بالكاد مسموعة ولا تصيب .

ينزل الجندى يتبعه واحد آخر تصيبه الطلقة فى رقبته من الخلف . . ينكسر رأسه ، ينفجر الشريان السباتى ويمطر دمًا على النخل؛ بينما تنسى أصابعه كيف تجد السند وتنحل قبضتها . أرى ،

أفكر: كم يبدأ السقوط ناعمًا. يتوقف زميله . . يسقط الجسد الميت بظهره ثم يستدير، تخترق الخوذة السعف أولًا وتختفى. على الجانب الآخر يتمكن ثلاثة جنود من الوصول إلى الأرض . . وابل الرصاص الذى أطلقه يذهب فى الهواء . . معى ثلاثون طلقة مضروبة فى أربع مرات، فقدت منها عشرًا. يهبط جنديان على ناحيتى . . إنهما فائقو السرعة لدرجة تمنع أن أصوب عليهما . . يرتديان قمصانًا واقية من الرصاص وخوذات حديدية. إلقاء قذيفة لن يفيد بشىء، ستقع وسط الشجر أقرب إلينا وليس إليهم. أصرخ: «يجب أنْ نختبئ» . . «ليس هنا، لا يوجد شىء هنا»، فجأة يقف محمد بجانبنا، يمسكنى من ذراعى ويصرخ فى أذنى: «هل أنتم بخير؟» . . «الحمد لله» . . «جمال وشكرى انتهَيا» . . «ماتا؟» . . «فى أمان الله». الفكرة تفوق قدرتى على التصور . . «إنهم أمامنا ومن خلفنا، لنحاول يسارًا»، إنه يتولى القيادة. موجة من الامتنان . . تكاد تكون سعادة، معه تكون الأمور سهلة.

وابل جديد من الرصاص مقبل من الهواء، على بعد أمتار قليلة منا . . تهتز المنطقة بين أشعة الشمس وظلال تمر سريعًا. نجرى بأقصى قدراتنا . . تتلاشى حدود الأشياء . . مروحية أخرى . . «هل نطلق عليهم النار؟» . . «لا توجد فرصة، هذا إهدار للذخيرة». إضاءة متضاعفة تأتى عبر الزجاج البنى للنظارة، بقع من الطرف ليست مرشحة. حبات العرق تمسح معالم الصورة . . لسنا مجهزين لاشتباكات تدوم ساعات، ربما يمكننا النفاذ إلى أى مكان. يجب أن يكون هناك طريق يعود بنا إلى الجبال . . يؤمن كريم الخلف . يبدو أنه لم يهبط أحد فى هذا الاتجاه . . الجبال ليست بعيدة . . لا أعلم أين سنخرج، ربما فى الماء . .

مـن المحتمل أن نجد قاربًا. تفقد الـكلاب أثرنا داخل الماء . . من المؤكد أننا سنصــل إلي أقرب طريق. نخطف سيارة ونقبض على سائقها حتى نكون فى أمان. هذا الغسق الملعون . . ألقى النظارة، لا أرى شـيئًا فــى اللحظات الأولى . . تبتعـد المروحيات . . يكاد يعم الهـدوء. أصـوات فروع شـجر تتكسـر، أوراق موز جافة ندهسـها، يتخللها وابل من الرصــاص، قريبة أو بعيدة . . صوت الخولــى: «الله أكبر»، معه قد ننجح فى الهروب، يصـيح محمد: «نحن هنــا، تعال إلينا»، لا يجيب! ربما أحارب من أجل احترامه لــى. . الأرض موحلة . . تحل شـجيرات المسـتنقعات والبوص محل الموز والنخل.

يصـرخ كريم: «الكلاب»، ويضـرب النار وسط الأدغال . . تقتــرب مروحية من جديد، تحلق فوقنا . . لم يعد لدينا أى وسـيلة حماية تقريبًا . . تزغلل الشـمس العيون، تتحول للحظة إلى اللون الأسـود . . نقف فى الطمى حتى الركـب. يقول محمد: «لا يوجد مجال للخروج من هنا»، يصرخ مرة أخرى: «الخولى»، ما من إجابة . . تنفجر قذيفة يعلو صــوتها فوق صوت المروحيات. . هل هى مِنّا أم من العدو؟ هل ستمنحنا بعض الوقت أم تَمزق أحد إخواننا. العودة بمثابة انتحار . . يتحول المستنقع إلى أرض منبسطة . . من سـيكون له قارب هنا، يتنفس كريم بعمق، يغلق عينيه، يبتسـم. . القيظ . . وميض الضــوء . . الله . . لا أتعرف على شىء، أغلق عينى بشــدة، أوجد لنفســى ظــلا، يدى كالمظلة علــى حاجبى . . عســكرى، ثانٍ، وثالث . . يطلق محمد النار بسرعة: «على أسفل البطن»، نفعل ما يقول . . ينشــطر جسد أحدهم إلى نصفين، تنبثق أمعاؤه من زيه، يتبرز من حبله السـرى. لا أعرف مِنْ رصاص

مَنْ . . تَمَزَّقَ فخذ أحدهم . . يسقط ويستمر في إطلاق النار . . نفدت ذخيرتي . . عادت الأرض متماسكة تحت الأقدام . . «يجب أن أعبئ طلقات جديدة»، يدي داخل جيب البنطال . . ها هو مصحف أروى . على الجانب الآخر، في ارتفاع الركبة . . استقر في مكانه ثابتًا . . يلحق بهم آخرون ويزيد عددهم . . يلقي واحد بنفسه بين الشجيرات، الآخرون قابعون خلف الأشجار، سلاحهم على وجناتهم مثل الدمى البلاستيكية للهنود الحمر، يصرخ محمد: «انبطحوا»، ما تبقى من يد كريم اليسرى جسم مبتور تملأه الدماء؛ بنطاله وقميصه بهما بقع قاتمة . . يرقد وتَتَلَوَّن الأرض من تحته . . يصرخ من الألم . . يصمت . . ينهض مرة أخرى، يمكن إطلاق النار بيد واحدة، يحتاج لذراع من حديد ومادة مخدرة يفرزها الجسم . . ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾، يجري إلى خط العساكر . . بذراعه اليسرى المرفوعة التي تندفع منها نافورة، مع إيقاع النبض . . هو دون حماية تمامًا، دون ساتر . . يقفز أمامه كلب شيفر ألماني من وسط الشجيرات، تتبعهُ تشكيلة جنود سلامية يتقدمون عبر شجرة وراء الأخرى . لم يتمكن الخولي من إيقافهم . . ماذا حدث للخولي وللآخرين؟ عددنا قليل . . لسنا مجهزين لهذا النوع من الحرب . . بقيت مسافة خمسين مترًا بيننا . . يجب إصابتهم في الوجه أو أسفل البطن، أو على الأقل في الذراع والأرجل لِنَشُلَّ قدرتهم على الحرب؛ أما باقي أجسادهم يحميها واقٍ من الرصاص .

أصيب الكلب قافزًا قبل أن يهاجم كريم . . يصوب محمد بسكين . . تركيزه عالٍ؛ كما لو كان يريد أن يربح في لعب المناطق

المفتوحـــة المعقدة . . لا يضـيع طلقة . . كريم أخـــى ، أحبه ، أخى الوحيـد . . يتلـون ظهره أحمر ثم أسـود. لقد كانـت طلقة مزقت عموده الفقرى . . يسـتمر فى السـير . . سيصـاب بالشلل. تطلق بندقيته الآلية الرصاص . . تشبث إصبعه بالزناد . . ينهار . . يسقط من طوله . . يسقط بعض الجنود الآخرين ، أصيبوا إما من طلقات بندقيـة محمد وإما بندقيتى . . أحتاج لذخيرة جديدة مرة أخرى . . يأتون الآن من الجانب الأيمن . . يسـقط محمد على وجهه . . أين ذخيرتى؟ تُصَـفِّى شـجرة إلى جانبى بالرصاص. يرتعش محمد ، أود أن أسـاعده ولكن لا أستطيع مسـاعدته . . يجب أن يعيش . . هناك أمـور كثيرة أود أن أسـأله عنها ، أن أتعلمها منه. أحشـاؤه المفتوحـة. يعـود إلى الله ، هناك قذيفة فى يدى ، أسـحب شـريط التأمين وأقذف على انخفاض وليس لأعلى . . كم تطير ببطء ، ألا يمكنها أن تطير بشكل أسرع؟ اصطدام بالأرض ، فرقعة ، دخان ، أجـزاء متطايـرة ، نبات ، حيوانات ، بشـر فى ملابـس تمويه . . عندما تطرحنى أرضًـا بضـغط على ظهـرى . . فوقى زرقة بين فروع شـجر ، وجوه تكشر عن أنيابها ، رائحة قذرة. عين سوداء للكلب هادئة وسـط ضـجيج . . عيون أروى؛ تتداخـل مع أحذية تقتـرب ، بناطيل ، بقع لونهـا بيج وزيتونى ورمادى . . إصـدار أمر . . يعضنى فى رقبتى . . . لا أشعر بألم . . لا يعضنى . يختلط الدم باللعاب ويسـيل دافئًا على رقبتى . . فوهة البندقية على جبينى وأخرى على صـدرى. أوامر بصـياح: «إنه الألمانى» . . «إنها موجهة لى» . . «الألمانى» . . يعرفون أكثر ممّا توقعت ، يعرفون كل شـىء . . تغلغلوا فينـا تمامًا ، يقلب أحدهم محمد ويضـربه فى وجهه ويبصق . . أراه بين سور من السيقان . . تتشنج عضلاتى ،

تريـد أن تقتل هذا الرجل، هذا الخنزير الذى يعامله بهذه الطريقة؛ محمد ابن جعفر الصديق، أفضل من عرفت. قدمان تضغطان علىّ لأسـفل .. تقف المروحية سـاكنة فى الهواء.. أشعر بالغثيان.. دوى المروحية، ريح بارد.. لا أحد يطلق النار، أو ربما تُطْلَق؟ غصة فى حلقى، أريد أن أتقيأ .. حموضة تكوى حلقى.. ما حجم خسـائرهم؟ محال أن يكون الخولى قد استسلم، سوف يأخذ الشيخ ثأرنـا؛ لو لم يكن اليوم فغـدًا أو بعد غد .. طلقة نار .. واحدة تلى الأخرى .. الكلب المقزز نفسـه .. ينفذون الحكم فى المصابين، ليصـمتوا إلى الأبد، موتنا ليس هباءً. يلهث بلعاب سـائل .. نحن الدعوى المقامة ضد إعراضهم عن الله .. يجب أن يتخلصوا منا، يجب أن يخرسونا، جبناء. يسحبنى أحدهم من شعرى .. لقد باعوا أنفسـهم بثمن رخيص، هرير. نظرة الضـابط وهو يسحب الكلب إلى الجانب، بدلًا من الكلب يضـغط ذراع بشدة على حنجرتى .. أريد أن أصـرخ فـى وجهه: «أنت تقتل خـادم الواحد الأحد الذى لا وجـود لأحد غيره»، ولكن لا أسـتطيع إخراج أى صـوت .. كريم، محمد.. هيا أطلق النار، لم تعد لى رغبة فى شىء، القرآن فى جيبى، كلماتـه المقدسـة: ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝٤ ﴾ حـركات عابثة للسـان، نقص فى الأكسـجين.. لقـد انتهـى كل شـىء .. عرق يتصـبب من خـوذة حديدية، يمر على الجبين والوجنة والذقن، ويسـقط علـىّ، إنه لنوبى .. يقول بالإنجليزيـة: «What the fuck do you want in Egypt، son of a bitch?»، له أسنان بيضاء مضيئة بين شفتين ممتلئتين، «This is not your country»، سيضـغط علـى الزناد فى أى وقـت «الله أكبر» «We will kill you!»، سـتعرف أروى ..

لن تعـرف أروى، لم يعد ذا أهميـة .. ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ۝١ وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ ۝٢ وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ ۝٣ وَإِذَا ٱلۡقُبُورُ بُعۡثِرَتۡ ۝٤ عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ وَأَخَّرَتۡ ۝٥﴾.

لـم أمـت، يقـف حولـى مـن عشـرة إلـى خمسـة عشـر من جنـود الصـفوة .. «هذا هـو الألمانـى» .. «يحيا هتلر»، يضـع أحدهـم إصـبعه فى محجر عينـى ويقطع جفنى .. بقع وأغصـان تتأرجح، سـماء سـاطعة وبيضـاء .. يكتشـف أننى ما زلت على قيد الحياة .. أهز رأسـى .. يأمرنـى: «Don't move!»، تعقب ذلـك وخزة ألم عندمـا يدفع بالبندقية فوق القلب إلى ضـلوعى .. يقـول: «Motherfucker!»، يفتـح جندى آخـر بنطاله ويخرج عضـوه ويتبول فى وجهى؛ قائلًا: «Be sure german asshole you will die، too» إنه صغير وأزرق وتعرض لعملية ختان .. أطبق فمى وأتوقف عن التنفس محاولًا الابتعاد .. دون جدوى .. سائل دافئ .. نباح الكلب وهو يؤخذ بعيدًا.

لماذا لـم أمت؟ كنت على اسـتعداد للموت، أردت أن أضـحى بحياتى .. على طريق الله الذى يؤدى إلى الجنة. يضـربون كريم كما لو كان جرذًا نافقًا على الطريق، يركلونه بأحذيتهم فينقلب على جنبه وظهره الذى كان ثقبًا أسود .. لقد نجح. يقول أحدهم: «Get up! Get up»، يتـورم حلقى .. «إنه يبكى»، ليسـت دموعًا بل بـولًا، «Stop crying. You will get reason to ..»، أنـا لا أبكى ... إنه يضحك علىّ. يأتى أناس بمحاف وضمادات بيضاء، لقد جاءوا برجال إسـعاف .. «أطلقوا النار علىّ، الموت هبة» ..

«Shut up»، عليهم أن يتحدثوا بالعربية، لو كان رشـيد قد أبلغهم لعرفوا أننى أتحدث العربية، لغة الله. سـوف أقفز وأركد فى اتجاه فوهات بنادقهم . . نعال أحذية تدفعنى لأسـفل، تليها ضربات حادة لدرجة أننى عاجز عن السـيطرة على أطرافى، لا أقوى حتى على فقدان الوعى . . يقترب جندى أكبر فى السـن مرتديًا زيًا نظيفًا، لم يخض المعركة بل أعطى الأوامر من مسـافة آمنـة مخاطرًا بحياة مرءوسيه . . لم يتعرض لأى إصابات . . يسحبوننى لأعلى، أشعر بدوار، لا تسـتطيع ركبتاىَ الصـمود، أتقيأ حموضة المعدة وخبزًا نصف مهضوم على أحذية الجنود . . أيديهم تدفعنى بشدة إلى جذع شجرة فتنكسر فقراتى وتغرز شظايا العظام فى أحشائى، يضعون ما تقيأته فى شعرى ويقذفون برأسى على جذع الشجرة . . صفعات . . بعظام الأصـابع . . هناك مكان ما بداخلـى لا يمكن انتهاكه، يجب أن آوى إليه، بينما يتحسسـون جسدى ويفتشون جيوبى؛ يخرجون السـكين السويسـرية. . الكتاب الصـغير «إنه القـرآن الكريم» . . ينظر إلى الكتاب، ينظر إلىّ متصـفحًا . . «مدنس !بأحمر شـفاه»، يعرضـه أمام وجهى، يركلنى فى عضـوى الذكرى، تخور قواى وأجْبَر على الاستمرار فى الوقوف مقاومًا رد فعل الألم الذى يدفع بالدموع إلى عينىَ . . «أيها الخنزير الكافر»، لا أستطيع الإجابة. . أحاول أن أتنفس . . أين هذا المكان فى القلب الذى يسكنه اليقين بأن المؤمن لا يحرم من رحمة الله. يقيدون يدىَ خلف ظهرى؛ لدرجة تقطع المفاصل ويقيدون رجلىّ . . يدفعون بى إلى الأمام . . كيف يمكننى أن أسـير . . على هذا النحو؟ متعثرًا . . نسير وسط غابات؟ فى ظهرى ألم من حديد البندقية . . دائمًا فى المنطقة نفسـها، نقطة ولا وجود لفكرة.

ربما تكون الفكرة أمرًا جميلًا.

إنهم يبعدون المصابين والموتى، موتاهم أولًا.. هل ما زال أحد غيرى على قيد الحياة؟ سمير أو صلاح.. إنه فى شبابه، سيفرجون عنه بعد عشرين سنة.. ربما يمكنه أن يبدأ حياته من جديد.. سينفذون حكم الإعدام ولن يكفى نفوذ أبيه الجنرال ليمنع ذلك.. لا أريد أن أقف وحدى أمام القضاة فى قفص حديدى مثل حيوان متوحش وخطير.. يجب أن يتحدث سمير باسمنا، أن يدلى بشهادته قبل أن يقتلونا.

يلقى أحدهم بجوال فوق وجهى.. القماش يشرب البول وتفوح رائحته.. يجب ألا أعرف المكان الذى سيأخذوننى إليه، من المفترض أن أخاف وأتوسل طالبًا الرحمة.. يضع أحدهم رجله فى طريقى لأسقط فى الوحل، لا أتمكن من منع السقوط واصطدم كتفى بجذع شجرة لا أراه، إنه من أجل الله.

الله أكبر.

صرخات، أنين المصابين.. أوراق تحف.. أغصان تنكسر.. أنا فى وسط عدد كبير من البشر.. صوت قد يكون للخولى، كيف تمكنوا من إلقاء القبض عليه وهو حىّ؟ سيشك فى أننى الخائن؛ لأننى لم أتلقَّ إصابة ولم أُقتَل.. ضوضاء محركات، صوت مياه هائجة، خطوات تغوص فى الوحل.. نحن على شاطئ.. قدماى مبللتان.. ضربة فى رجلى وأخرى فى بطن الركبة.. أسقط بطولى فى القناة.. لماذا لا يقومون بتصفيتى فى الحال؟ هذا أسهل، لن يسأل أحد عن الأمر، يمكنهم ادعاء أننى

سقطت في المعركة . . من سيتحقق من ذلك؟ القضاء فاسد وجهاز تنفيذى لحكومة منحطة . . سوف أصمت أيًا كان . . أشعر بالبلل ولكن يتسم الماء والوحل والهواء بالدفء. أحدهم يسحبنى لأعلى ويقودنى إلى سلم: «تحرك»، يدفعنى برأسى فى شىء صلب . . خشخشة، يتشرب القماش فوق شفاهى بالدم، طعم الحديد فى فمى. يدور محرك ليس كالمحركات الخارجية للقوارب المطاطية بل أقوى . . لديهم أجهزة أفضل، جيش على أعلى مستوى، مجهز بتقنيات أسلحة غربية ومعد كحصن ضد الإيمان . . خُطِّطَ لعمليتهم منذ زمن بعيد . . بمساعدة أحدنا، أيا كان مَنْ، سوف نعرف، سيكون شاهد ملك ويدلى بشهادته فى المحاكمة، ربما سيحالفه الحظ وتفى النيابة العامة بوعدها . . سيفلت دون عقاب وستُجَهَز له حياة فى مكان غير معلوم بهوية جديدة حتى لا يجده الزملاء ويحاسبونه.

لا يخفى على الله مخبأ.

يرفعون القيود عنى، ثم يكبلوننى بأغلال لليدين والقدمين فى قضبان حديدية . . تعاود الضربات فى بطنى وعضوى الذكرى . . أشعر بالغثيان، سوف يمر الأمر . . هكذا ستكون الحال فى المستقبل القريب، لا أوهم نفسى بشىء آخر . . نحارب من أجل ذلك أو حاربنا . . سوف تستمر المعركة، سيتبعنا آخرون؛ ربما سيكتب لهم النجاح عنَا. للشيخ طرق وسبل . . يرعاه الأعلى. . حتى الروس لم يتمكنوا من إصابته، حاولوا بشتى الطرق وفشلوا. . كان يحارب ثم يخلد للنوم، بثقة فى الله؛ ولم يخيب الله ظنه.

يتــأوه أحد بجانبــى ، ليس محتملاً أن ينقلوا جنودًا مصــابين فى القارب نفسه معنا ، إذن؛ نجا أحد غيرى . . الصوت ضعيف يحول دون تعرفــى عليــه . . كنا جماعــة والآن كل واحــد وحده ، يتخذ قراراته لنفسه؛ إما الخيانة وإما طريق الجهاد .

يجب أن أستجمع قواى ، سوف يقومون بتعذيبى بطرق لا تخطر على بال . . أنا بحاجة إلى يقين لأتحمل . . أى شكوك ستتحول إلى ضــعف؛ حينئذ ستنهار العزيمة . . أى حياة عشتها؟ حياة المحارب أم المجرم؟ حياة المجرم لو كان الله اختراعًا بشريًا ، لكنه استجاب لدعائى ولم يكن ذلك من وحى خيالى .

ســألنى جدى : «ماذا تريد أن تكون؟» ، كنت طفلًا عمره ســبعة أو ثمانيــة أعــوام ، وأجبت : «شــهيدًا» . تخيلت الهنــود الحمر فى الغابات ، وهم يطلقون أسهمًا مسمومة فى صدرى وأموت بآلامى من أجل المسيح .

أروى . . من أجلها ، لا ليس من أجلها ، قدمت المناســبة ولكنها ليســت السبب . . حب لامرأة كبداية لنهاية رحلة البحث التى بدأت آنذاك . . كان يجب أن أترجم البحث لأفعال؛ بمعونة الله الرحمن الرحيم .

الــركلات ، الضــربات ، الألــم . . لا أرى شــيئًا . . يراودنى خوف ، لــم أخف منذ زمــن بعيــد؛ كان الموقف مختلفًــا ، الموت قريب .

كم يتحمل المرء ليستسلم؟

لا يجب الاستسلام أيًا كانت الظروف، عندما ننزوى فى أبعد مكان بداخلنا؛ يصير كل شىء محتملاً .. يمحو الخوف الثقة؛ حينئذ يحتجب الله ولا يمكن العثور عليه.

نعبر النيل، لونه أخضر يميل إلى الزرقة، أخذ السد العالى من قوته، بناه عبد الناصر، أول رئيس كافر لمصر، قاتل سيد قطب.

غالبًا سينفذون حكم الإعدام فىَّ بالقاهرة، أجمل مدن العالم.

ضوضاء المحرك، حركات الأمواج، مُكَبَل فى قضبان، تحت قناع أسود، أوامر مقتضبة، ركلات، تساؤلات تتكرر: من نجا؟ من يتأوه بجانبى؟

تنخفض سرعة المحرك، دفعة، تأرجح، أوامر غير مفهومة.. لقد وصلنا إلى الشاطئ الآخر. يقوم أحدهم بفك قيودى وجذبى من ذراعى: «قم»، ليس من الضرورى أن يصرخ فى وجهى، ليس لدى سبيل للمقاومة.. إهانة ممنهجة، ولكن ليست ذات تأثير، إيمانى قوى مكبل ومبلل بالبول ومعصوب العينين.. أعلم لماذا أفعل ما أفعل.. هم يأخذون رواتبهم ويعلمون أن من يدفعها كفار، بالإضافة إلى ذلك؛ ثناء من الجنرال شخصيًا، وسام من صفيح محفور، علاوات مقابل أعمال جليلة؛ من أجل أبناء يجب إعالتهم؛ لهذا السبب دخلت أفواج من الشعب الألمانى الحزب النازى.

كل حركة كأنها طعنة، لقد كسروا ضلوعى.. يجب التوقف عن الحركة والانتظار حتى تلتئم الكسور. مهمة الجنود تعجيز الخصم

بشــتى الطرق ، الضابط هو إلههم ويخضــعون لحسابه، هو الذى يتحمل المسئولية . . أحدهم يدفعنى من الخلف . . خطوات مترددة، قبضة عنيفة أعلى ذراعى . . تصطدم رجلى بحافة حديدية، تضليل متعمد، ضــحكات شماتة . . أصــعد . . واحد، اثنان ست درجات سلم خشــبى، تندفع آخر خطوة فى فراغ، أسقط على ركبتى ويتم جذبى، ثم أشــعر بأحجار تحت قدمى، غالبًا هــذا المتنزه الذى تم إغلاق مســاحات كبيرة منه . أترنح مــن كثرة الألم والإرهاق . . صــراخ . . لماذا يقوم المصريون بالصــراخ طوال الوقت؟ حتى عندما يشترون الخبز . . «سريعًا !سريعًا» . . « أين الطبيب؟» . . « يا دكتــور، يجب أن ينجو، لديه معلومــات مهمة!» ، «اختراق للرئة، الوضع شائك» . . أصَاب بالذعر، لقد خلطت بين الضلوع والرئة . . « لن نستفيد منه ميتًا» ، «لديكم آخرون» . . «وليكن» ، من المفترض أن أشعر بجرح فى صدرى . . عمن يتحدثون ؟ من ســيموت؟ مرة أخرى فوهة البندقية فــى ظهرى . . «إلى الأمام يا أولاد الكلــب!» . . أحدهم يتوجع بجانبى؛ ثم يقول:«وَمَن يُضْــلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن سَــبِيلٍ» ، أعرف هذا الصــوت: «سمير؟» . . «عبد الله» . . «الحمد لله» . . «اخرس!» .

إنه على قيد الحياة، كونه حيًا سيســاعد حتى لوكان كل واحد منًا فى حبس منفرد، لن تكون لدينا فرصــة لتبادل الحديث . . ســوف يحكى الحراس أكاذيب عن الآخر لنفقد الأمل ونتكلم .

«استمروا فى السير» .

ضــربات بماســورة البندقية على الرقبة وعلى الكلى، يصيبون

دون سابق إنذار أى مكان، لا يمكن لأى رد فعل منعكس للعضلات أن يخفف الألم . . أسقط على رصيف شحن، تصطدم ذقنى وأنفى بشىء صلب . . «اطلع هنا»، أزحف إلى الأمام، حذاء بين رجلىّ، أرتعش مع كل ركلة . . ينتهى الرصيف إلى مساحة أفقية معدنية، حجرة شحن لسيارة نقل.

كل البشر الذين عرفتهم فى هذا البلد كانوا متدينين، يريدون أن تنال دولتهم رضا الله وتنفذ حكمه . . لماذا يبيع هؤلاء أرواحهم؟

تشد أيدٍ حزامًا حول صدرى وتُقَيِّدُ رجلى بسلاسل فى حلقات حديدية مثبتة فى الأرض . . تُغلق الأبواب وتوصد من الداخل . . سواد تحت الجوال الذى أُلْقِى فوق رأسى . . أتمتم: «أريد أن أرى شيئًا»؛ متصورًا أن ما من أحد يسمعنى أو مهتم من الأصل أن يسمع . . صوت شرير يقول بغضب: «اخرس أيها الفاشل»، تتحرك السيارة ويفوق ضجيجها صوت نفس الأصدقاء والأعداء.

﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ . . لم تنجح خطتنا، بالتأكيد وقعنا فى خطأ ما، أيًا كان ما نقوم به تتسلل إليه أخطاء . . مَنْ المسئول؟ أحمِّل من المسئولية؟ الأب الذى لم أره قط، الأم بعاطفتها الجنونية نحوى، القسيس المولع بالخطيئة، المدرسون، تاجر المخدرات، القاضى، أروى، أسرة أروى، الخولى، سمير . نظرة أروى منذ شهور أم مساء اليوم . . . أنا نفسى . . يبقى قدرى مجهولاً، تزيد وتنقص مساحته وفقًا للموقف. لا أعرف أى نسخة من قصتى تمثل الواقع، يجب أن أختار واحدة منها حتى لا أتورط فى تناقضات . . ماذا يريدون أن يسمعوا؟

ماذا يعرفون عنى؟ أى الأكاذيب سيصدقون؟ ما العقوبة التى ستلى اكتشافهم لكذبى؟ ماذا سيترتب على صمتى؟

على الرغم من كل شىء؛ فما كانت هناك فرصة لحياة مشتركة مع أروى، لو حصلت على فرصة ثانية لقمت بالشىء نفسه، أريد أن أحصل على مصحفها، مصحفى مرة أخرى.

يزيد ارتجاج السيارة على الطريق الوعر من الألم .. من الأفضل أن أتوقف عن التنفس .. ذبذبات فى رأسى الذى يصطدم بالأرض .. تقطع قيود اليد عضلات ظهرى .. تشنجات، تنميل يُفقِد الحس بسبب العجز عن الحركة وعدم وصول الدم إلى الأطراف.

مررت بعد وداع أروى على ممشى إلى جانب نهر الماين، كان يومًا جميلًا، ضوء الشتاء، يقل درجة عن الصيف .. يتلألأ النهر فى لون فضى .. أردت أن أكون وحدى. كان زوجان عجوزان آتيين من الاتجاه الآخر، يترقبان النهاية؛ ولكنهما يتشاجران .. صوتان واهيان من أفواه بائسة، محبة باهتة .. لو مات أحدهما لافتقده الآخر. أبطأت سرعتى وتوقفت، استمعت كيف أن كل واحد منهما يحمِّل الآخر مسئولية تعاسته.

كانت أوقاتًا عصيبة، ما من أخلاق، جحود الابن- «تربيتك»- «أنت لم تكن موجودًا قط» .. زوجة الابن لديها أطماع فى الإرث .. امرأة كاذبة، لا غرابة فى أن يفشل الأحفاد- «دون أموالى كنتِ ...»، «أموالك، دائمًا أموالك ...».

لم أرد أن يكون ذلك حالى . . حطام بنى آدم يشعر بالمرارة، لا يطيقه أبناؤه.

حر شديد، إفرازات عرق، رائحة بول، مطهر عارض بدلًا من الأكسجين . . درجة الحرارة أكثر من أربعين درجة، لا يوجد مكيف هواء . . تخترق السخونة جسدى من الخارج، دون أى حركة أتصبب عرقًا يتخلل ملابسى . . إلى أين سيقلوننا؟ يوجد سجن جديد فى مكان سرى وسط الصحراء، يجمعون هناك المؤمنين مثل الجمال فى سوق حتى يأتى الجزار.

تبقى، فى نهاية الأمر، ذكريات لبعض اللحظات، أشباح بمعالم غير واضحة، وجوه قريبة دون نظرة، دوائر فى الماء، أفخاذ مفتوحة، دخان متصاعد . . لا بد أنهم كانوا موجودين . . لماذا لم يحالفهم الحظ؟

صور مضطربة على شاشة سوداء . . فشل نهائى، الله باق . . ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾.

ربما صرنا فى زمان ومكان آخرين أبطالًا يحتفى بهم جميع أفراد القبيلة؛ ولكننى لا أعود إلى قبيلة . . سأساق مع المصابين والموتى إلى قاض مرتشٍ، سيحقق معى ويسجننى فى جُحر ملىء بالحشرات والصراصير ومعرض لضوء مستمر . . سيدفن الإخوة الشهداء سرًا، حتى أقاربهم لن يَخْطَروا أين يرقدون.

ستبكى أمى، ستسعى من خلال السفارة إلى تسليمى . . تتوافر

لها باعتبارها موظفة بالدولة سبل أكثر مباشرة ، هذا ما كانت تدعيه دومًا . . مكالمة واحدة للإدارة المالية العليا التي تعرف مديرها شخصيًا جيدًا تكفي .

لا أرغب في تسليمي إلى ألمانيا . . لا أريد أن أعود إلى هذا البلد الفاسد الذي نسيَ الله وصار عبدًا للمال ولأمريكا ، يجب أن يعدموني هنا وأُدفَن إسلاميًا مع الإخوة والأخوات الذين رحلوا من قبلي . . أيًا كان مكان قتلي وزمانه سأرحل في سلام . . لا يهم مصير جثتي .

الجزء الثانى

سـري خاص - محظور التـداول ولا يتم الاطـلاع عليه إلا بمعرفة المختص

عاجل جدًا

من القاهرة

15نوفمبر 1993، الساعة الثانية وست عشرة دقيقة بعد الظهر حسب التوقيت المحلى.

موجه إلى: وزارة الخارجية، قسم301.

موجه أيضًا إلى: رئيس ديوان المستشارية الألمانية، وزارة الداخلية

رقم الملف: 716 الشئون القانونية والقنصلية.

حرر من قِبل: سيزمار

بخصوص: إلقاء القبض على المواطن الألماني يوخن سافاتسكى، المولود فى 6 مارس 1963، ويحمل لقب«عبد الله» منذ اعتناقه الإسلام.

يتعلق الموضوع هنا بالاتهام بالعضوية فى جماعة إرهابية والتخطيط لهجوم، ومقاومة سلطات الدولة مع القتل العمد لقوات الأمن.

-للاطلاع-

الفقرة الأولى

ملخص:

ألقت سلطات الأمن المصرية – فى إطار عملية لمكافحة الإرهاب – القبض على ثلاثة معتدين .. توفى ستة إرهابيين آخرين، وهم فى الأغلب من جنسيات مختلفة. من ضمن المقبوض عليهم المواطن الألمانى يوخن سافاتسكى. لم يُتَحْ للسفارة الاتصال المباشر به حتى الآن؛ وإن كانت وزارة الداخلية قد منحت موافقتها فى هذا الشأن، وقد أفادت معلومات من المكتب الاتحادى للشرطة الجنائية الألمانية؛ بأن سافاتسكى من أصحاب السوابق فى ألمانيا بسبب جرائم مخدرات وعمل مخبرًا فى أوساط تجار المخدرات لصالح البوليس الجنائى فى مدينة كوبلنس دون تقديم إنجازات تُذْكَر. يجب الاطلاع مجددًا على الإجراءات الخاصة بهذا الشأن وإرسالها للقيام بتقييم أكثر دقة لشخصية المواطن الألمانى رهين الحبس.

-الفقرة الثانية-

التفاصيل:

أولًا: أُبْلِغَت السفارة اليوم الموافق 15 نوفمبر 1993، فى اتصال هاتفى من وزارة الداخلية المصرية، وذلك فى تمام الساعة العاشرة صباحًا حسب التوقيت المحلى؛ أنه قُبِضَ بالأمس فى تمام الساعة الواحدة بعد الظهر – فى سياق عملية للقوات المصرية –

على الأفراد الناجين من مجموعة من المفترض أنها إرهابية تنتمى إلى الجماعات الإسلامية والجهاد الإسلامى، بعد رفض مبدئى من قبَلِ المقبوض عليهم للإدلاء بأى معلومات أدت الجهود المتواصلة للشرطة والمخابرات بعد محاولات دامت لساعات؛ للقيام بتحقيق منظم إلى اعتراف أحدهم. لقد أدان اعترافه وفقًا لمصادر وزارة الداخلية المصرية سافاتسكى بشدة؛ وذلك بالإضافة لوجود شاهد ملك أتاحت معلوماته لأجهزة الأمن إمكانية إحباط الهجوم. ذُكِر أن المجموعة تخضع للرقابة منذ شهور من قبل محققين سريين، وتفيد معلوماتهم بأن المنظمة لديها اتصالات مكثفة مع منظمات إرهاب إسلامية على المستوى الدولى.. هناك عمليات أخرى مرتقبة للشرطة والجيش.

ثانيًا: جاء الاتصال من قبل الدكتور أحمد توفيق، رئيس قسم مكافحة الإرهاب بوزارة الداخلية والسفارة تعرفه شخصيًا، لذا يعد محل ثقة.

ثالثًا: لم تنجح محاولات كشف هوية كل من المقبوض عليهم والموتى إلا بعد مرور الليل. ذُكِر أن ثلاثة رجال منهم حاربوا مع ميليشيات المجاهدين الإسلامويين ضد قوات الاحتلال الروسى فى أفغانستان. يرفض سافاتسكى حتى الوقت الراهن الإدلاء بأى تصريحات فيما عدا ذكر اسمه.

رابعًا: اتضح وفقًا لعمليات البحث الحالية أن هناك أحكامًا نافذة صدرت ضد سافاتسكى فى ألمانيا منذ 2 فبراير 1985؛ بسبب جرائم مخدرات مختلفة. نص الحكم على عامين حبس مع وقف

التنفيذ علمًا بأن مهلة وقف التنفيذ قد انتهت. لم ينص الحكم على أى شروط. لم تَرِد معلومات بعد عن مقر إقامته الدائم أو محل سكنه.

خامسًا: حاولت السفارة فى الحال تحديد موعد للقاء سافاتسكى، إلا أن وزارة الداخلية المصرية رفضت هذا الأمر؛ مشيرة إلى أن التحقيقات لم تنتهِ بعد. أشرنا تليفونيًا إلى حق المواطن الألمانى فى رعاية السفارة له وهو ما اعترف به الجانب المصرى دون قيود؛ إلا أن محدثنا طالبنا فى ضوء الخلفية الحساسة للاتهامات بالصبر، وأكد أن موظفى السفارة سيُسْمَح لهم بلقاء سافاتسكى فى أقرب وقت.

سادسًا: تطلب السفارة تحديد هوية أقارب المتهم وإبلاغهم.

- الفقرة الثالثة-

التقييم

وفقًا للمعلومات الواردة حتى الآن؛ فإن التقييم الدقيق لمسألة انتماء سافاتسكى إلى منظمة إجرامية أو إرهابية غير متوافر هنا. تبعث فترة اختفائه المطولة على التفكير.. نتمنى فيما يتعلق بجانب دولة القانون أن تلتزم مصر فى إطار التحقيقات باتفاقيات جنيف، وأن تضمن التواصل بين المتهم والسفارة والمحامى.

مما هو مثير للقلق أنه نظرًا للتهديد الشديد الذى يشكله الإرهاب الإسلاموى على السياحة المصرية؛ لن تتراجع السلطات هنا

عن اســتخدام جميع السـبل بمــا فى ذلــك العنف النفســى والبدنى لإجبار سافاتسـكى على الإدلاء بجميــع المعلومات التى يملكها عن الجماعات المحظورة فى البلد. بما أن الحكومة قد أبدت إصــرارًا علــى مكافحة الحركات الإسـلاموية بأى ثمــن لا يمكن التوقع بأن المواطن الألمانى سيحصل على محاكمة دولة قانون.

السفير كلاوس سيزمار

ملحــق

الهجمات الإرهابية فى مصر منذ 1 يناير1993

(قائمة معدة داخليًا)

3 **يناير**1993: قتل عمدة قبطى بالقرب من مدينة ديروط. إلقاء قنبلة على صيدلية قبطى فى ديروط . لا توجد إصابات.

5 **يناير**1993: إطلاق النار على أتوبيس يقل سياحًا يابانيين بين الأقصر والقاهرة. لا توجد إصابات.

9 **فبراير**1993: إطلاق النار على أتوبيس يقل سياحًا ألمان بين الأقصر والقاهرة. لا توجد إصابات.

16 **فبرايــر**1993: إطلاق النار على أتوبيس يقل ســياحًا ألمان بالقرب من الأقصر. لا توجد إصابات.

26 فبراير 1993: إلقاء قنبلة على قهوة بميدان التحرير فى القاهرة. . . أربعة قتلى من بينهم أجنبيان و19 مصابًا.

3 مارس 1993: مقتل ضابط وابنه فى الوجه القبلى.

13 مارس 1993: إشعال حريق فى كنيسة إنجيلية شمال القاهرة. لا توجد إصابات.

15 مارس 1993: اشتباكات عنيفة فى القاهرة بين عدة آلاف من السكان وقوات الأمن أثناء مداهمة فى الحى الذى وقع به اعتداء 13 مارس 1993، 52 مصابًا وإلقاء القبض على 87.

26 مارس 1993: مقتل ضابط على يدِ إسلاموى داخل مترو أنفاق القاهرة أثناء مراجعة التذاكر. أصيب موظف ثان.

27 مارس 1993: إلقاء قنبلة فى وسط القاهرة، مقتل جنديين من الدفاع المدنى وإصابة أربعة آخرين.

28 مارس 1993: إلقاء متفجرات على مركبة للشرطة، لم تصدر معلومات عن وجود مصابين.

29 مارس 1993: إلقاء قنبلة فى أسوان، إصابة عشرة ضباط.

31 مارس 1993: انفجار، فى الغالب متعمد فى هرم خفرع، إصابة عاملين.

20 أبريل1993: هجوم على وزير الإعلام صفوت الشريف، إصابة الوزير والسائق والحارس الشخصى.

21 مايو1993: إلقاء قنبلة فى وسط القاهرة، سبعة قتلى من بينهم موظف حكومى وعشرون مصابًا.

26 مايو1993: إلقاء قنبلة فى إحدى ضواحى القاهرة، خمسة مصابين.

8 يونيو1993: إلقاء متفجرات على أتوبيس سياحى فى القاهرة، اثنان من القتلى وثمانى إصابات خطيرة (من بينهم خمسة مواطنين بريطانيين).

18 يونيو1993: إلقاء قنبلة فى حى شبرا بالقاهرة، سبعة قتلى وعشرون مصابًا بينهم إصابات خطيرة.

19 يونيو1993: إلقاء قنبلة فى أسيوط، ، اثنان من القتلى وثلاثة مصابين.

18 يوليو1993: محاولة اغتيال بالأسلحة الآلية للّواء العسكرى عثمان شاهين فى القاهرة، أربعة قتلى، لم يتعرض اللواء شاهين لأى إصابات.

20 يوليو1993: تبادل لإطلاق النار بين الشرطة والإسلامويين فى القاهرة، أربعة قتلى من بينهم اثنان من الإرهابيين وضابط ومدنى وستة مصابين.

7 **أغسـطس**1993: مقتل اللواء عبد الحميد غبارة، نائب مدير أمـن محافظة قنـا فى الوجـه القبلى مع حارسـه الخاص وسـائقه برصاص مقاتلى الإسلامويين.

9 **أغسطس**1993: هجوم على ضـابط شرطة فى الوجه القبلى وتعرضه لإصابات خطيرة.

18 **أغسـطس**1993: إلقاء قنبلة على وزير الداخلية المصـرى حسن الألفى وإصابته، خمسة قتلى وأربعة عشر مصابًا آخرين.

7 **سبتمبر**1993: مقتل ضابط بالقرب من أسيوط.

17 **سـبتمبر**1993: مقتـل مديـر أمـن محافظة أسـوان اللواء ممدوح محمد عبد الله عثمان برصاص إرهابيين إسلامويين.

29 **سبتمبر**1993: مقتل ضـابط شرطة فى أسيوط أثناء اعتداء لمقاتلى الإسلامويين.

9 **أكتوبـر**1993: إطـلاق النار من قِبَل متطرفيـن على رئيس المحكمة العسكرية السيد طه أثناء خروجه من منزله.

11 **أكتوبر** 1993: مقتل ضابطين ومهاجم إسلاموى أثناء تبادل لإطلاق النار فى الوجه القبلى.

11 **أكتوبر**1993: مقتل ضـابط وإسـلاموى على قائمة البحث أثناء تبادل لإطلاق النار فى حى المطرية. إصابة موظف آخر.

11 أكتوبر 1993: مقتل ضابط فى محافظة أسيوط داخل سيارته على يدِ قناص.

27 أكتوبر 1993: مقتل أمريكيين وفرنسى فى فندق فاخر بالقاهرة على يد مهاجمين إسلامويين، إصابات خطيرة لثلاثة نزلاء آخرين وموظف.

31 أكتوبر 1993: مقتل موظف بالمخابرات السرية أثناء هجوم قرب أسيوط.

1 نوفمبر 1993: مقتل ضابط برصاص مهاجمين أصوليين فى مركز البدارى فى الوجه القبلى.

7 نوفمبر 1993: مقتل موظف بالمخابرات فى أسيوط.

يشغله الأمر أكثر مما يجب . . لا يعرف السبب . . يقع فى نطاق مسئوليته باعتباره سفيرًا؛ تمثيل مصالح ألمانيا وإجراء مفاوضات. من ضمن مهامه أيضًا الحفاظ على حقوق المواطنين الألمان، ولكن لا يُنْتَظَر منه إبداء أى اهتمام شخصى . . لم يصادفه فى مشوار عمله الدبلوماسى حالة شبيهة . . ما كان من الممكن أن يقع حدث كهذا؛ لأن اضطرابات الأعوام السابقة فى العالم الإسلامى كانت من نوع آخر.

تعد مشاركة ألمانى فى هذا الهجوم الذى أُحْبِطَ؛ أكبر حادثة قد تحدث له على الصعيد الوظيفى . . تأثر بالإرهاب المستمر لشهور الآن وأصبح أكثر حساسية . . ليس الأمر مقتصرًا على الخطر الذى يتعرض له يوميًا ولا العمل الإضافى . . لقد نكأ سافاتسكى جرحًا أوشك على الشفاء.

يجب أن يفكر صباحًا على معدة خاوية فى أمور أكثر لطفًا . . الوجه المنعكس فى المرآة لا يبعث على ذلك؛ شعر مقصوص يتزايد لونه الرمادى، وتقل كثافته فى الخلف . . يمسح على حاجبيه الكثيفين ويضبط شكل شاربه.

الخاطر الأول بعد المكالمة؛ كان إنهاء المسألة فى إطار النهج المعتاد، ولكن سرعان ما نبذ هذه الفكرة. تتطلب أزمة من هذا النوع حلًا خاصًا بها . . لم يهتدِ بعد إلى طريق ممهد . . الاتهامات الموجهة ضد سافاتسكى خطيرة، وتسعى النيابة العامة المصرية للضرب بأيدٍ من حديد على المتطرفين المسلمين، ليس بالضرورة فى إطار القانون الدولى السائد . . أحيانًا يتفهم هذا الأمر.

يحاول سيزمار أن يسترخى . . يجد صعوبة فى ذلك . . تتعاقب الأفكار سريعة . . يجب ألا ينسى الاعتذار عن المحادثات الدورية مع ممثلى الاقتصاد ، إنها فى حقيقة الأمر فعالية لطيفة . . لقاءات مع رجال أعمال من البلد وتجاذب لأطراف الحديث مع احتساء المشروبات؛ تنشأ بأى حال علاقات تعود بالفائدة على الطرفين .

كان من المفترض أن يستقبل فى المساء الكاتب الألمانى الشهير جونتر فاريج فى معهد جوته ، ولكنه ألغى رحلته إلى مصر فى آخر لحظة لدواعٍ أمنية . كان سيزمار سيتعامل مع اللقاءين بروتينية ، باقتدار وحرفية ولطف معهود . . يومًا ما سيحال إلى المعاش دون ارتكاب أى أخطاء ، ولكنه ارتكب بالفعل الكثير من الأخطاء؛ ليست من النوع الذى كانت له عواقب تذكر ، بل كانت فى إطار ما يمكن التعامل معه . . هذا ما يقوله لنفسه كثيرًا . لا يرتاح ضميره جراء ذلك؛ ولكن لا وقت لبحث الأمر . لا ينام تقريبًا منذ تلقيه الاتصال الهاتفى .

يرفع شفته العليا ، لقد زادت حالة اللثة سوءًا . . الكثير من السكر والقهوة والشاى والدخان .

أناس من نوعية سافاتسكى يهدمون إنجازات بُنيَت فى سنوات . تقوم العلاقات بين دولتين وتنتهى وفقًا لمساحة الثقة بين ممثليها . . مجرد تعليق غير موفق أو قرار خاطئ فى التوقيت الخاطئ ويفسد الجو . . يرى المصريون سافاتسكى بوصفه ألمانيًا بالدرجة الأولى . . أيًا كان رد فعل السفارة ووزارة الخارجية سيؤثر ذلك على العلاقات الثنائية .

«عزيزة، من فضلك أدخلى شعبان، قدمى له شيئًا فأنا بحاجة إلى بضع دقائق»... فى صوته نبرة توتر، ليس بسببها تقوم عزيزة بمهامها على أكمل وجه، ضحكتها تدفئ المنزل. يود سيزمار لو استطاع تخطى اليوم والغد معًا وترك الأمور تتخذ مجراها، ولكن لهذه المسألة أولوية قصوى ولا يمكنه التفويض إلا فى أمور بسيطة.

ما المطلوب أولًا ؟ يحمِّلُهُ فى هذه اللحظة حتى اختيار رابطة العنق ما لا يطيق .. من الممكن اختيار أى واحدة منها .. معظمها يناسب البدلة الرمادية.. الأهم هو اختيار القميص؛ هروبًا من المشكلة. لو أخذ القميص الأبيض بدلًا من الأخضر لكان الاختيار أسهل .. لا يريد اللون الأبيض، على الأقل ليس اليوم.

لماذا يقرر رجل فى الثلاثين من عمره، ويعيش فى ألمانيا أن ينضم إلى منظمة إرهاب مصرية؟

يقلقه الأمر لمراحل أبعد من التعقيدات الدبلوماسية .. كانت الليلة الماضية هى الأسوأ على الإطلاق .. للمرة الثالثة على التوالى مراحل أولية للنوم، لا استغراق ولا راحة. يظهر وجه سافاتسكى الذى لا يعرفه مرارًا وتكرارًا أمام عينيه المغلقتين .. تحولت عينا سافاتسكى إلى هوتين تنعكس فى قاعيهما الصحراء وحواف حادة وكثبان رحالة وصور غير واضحة ولامعة وخواء. تحدث سيزمار إليه ووضح له جدية الموقف .. حديث تتناوب فيه حجج قاطعة ولجلجة. يجيب سافاتسكى من بين أزيز التكييف .. فهم سيزمار ولم يفهم فى الوقت نفسه. أزعجته أسباب سافاتسكى

التى لم يستطع أن يسميها على مستوى فى وعيه لم يهتدِ إليه بعد. . كيف يمكن تخيل قلب قتّال؟ تصبب سيزمار عرقًا وأزاح عن نفسه الغطاء. كان عاريًا، يتقلب من ناحية إلى الأخرى ويُقَلِب الوضع إلى زوايا مختلفة . . بقيت على حالها . . بدأ سافاتسكى فى البكاء. . بعثر مكيف الهواء نحبه وملأ صوت توسلاته الغرفة. . رأى سيزمار عينيه تكسوهما الحمرة وتغمرهما الدموع: «أخرجنى من هنا، أخرجنى من هنا»، حاول أن يكون له تأثير مهدئ عليه دون تجميل الموقف . . أثناء حديثه ابتسم سافاتسكى بشماتة، وباتت ملامح وجهه مخيفة وشريرة. قال سيزمار بغضب: «أيها الجرذ الوضيع، تعامل مع هذا المأزق وحدك».

قالت إينس بضيق: «اخلد إلى النوم»، تمتم باعتذار متذمرًا. . توقف سافاتسكى عن الحديث . . نباح بعض الكلاب فى الخارج . . قبل أن يرن جرس المنبه كانت نداءات آلاف المؤذنين قد أفزعته مع بزوغ النهار، نهض وارتدى الروب وتسلل عبر السلالم إلى حجرة المعيشة، تحدث أمام الشباك خلف السور أحد الحراس التابعين لهيئة حماية الحدود الاتحادية مع زميل مصرى. . عندما سمع مفتاح عزيزة فى الباب دخل إلى الحمام.

يعتبر سيزمار نفسه عقلانيًا . . يمالك تصورًا واضحًا لكيفية تصرفاته وأسبابها وأهدافها. . يصطدم سافاتسكى بكل قناعات سيزمار أيًا كانت مبرراته . . ما للصدمة الأخلاقية إلا دور ضئيل فى ذلك، لا تهمه الأخلاق فى واقع الأمر . . منظومة أخلاقه تتسم بالدنيوية، هى أساس لعمله وليست العقيدة . . يضمن الالتزام بهذه المنظومة أن تسير العمليات الاجتماعية بسلاسة، لكل واحد دور

فــى ذلك. يتمثل دوره فــى مزيج من الحفاظ على شـبكة معارف وإدارة الأزمات وفن التفاوض . . وفى حالة سافاتسكى مهمته رد شــاب مشوش إلى صوابه وإجبار محاميِ النيابة العامة المتربصين على تطبيق القانون الدولى بدلًا من قوانين مصرية خاصة، وذلك بهــدف التفاوض على الثمــن الواجب دفعه ومنع المصــريين من إحساســهم بالغبن. يحتاج لكل هذا لباقة فائقة، مع الافتراض أنه لا مجال لسوء فهم أو تجمع قدرى لأحداث مؤسفة، لا يضع ذلك فى اعتباره. ينتمى سافاتســكى فى الأغلب إلى الجماعة الإســلامية أو إلى الجهاد . . الأدلة التى تدينه فائقة العدد.

يقرص ســيزمار نفســه فى بطنه، يغلــق عينيه ويمر بأصــابعه على حامل رابطات العنق . . على الصــدفة أن تختار . . تمسك يده بواحدة ألوانها برتقالى وبنفسجى وأخضر وعليها رءوس لميدوزا، حينمــا تدخل إينس وتقول: «شــعبان ينتظرك، وهــذه لا تليق على الإطــلاق»، «ومن ينزعج من ذلك؟»، «أنا» . . هز كتفيه ويبحث عن قميص آخر . . هكذا يحفظ كل واحد منهما ماء وجهه.

كان لهما على مر حياتهما الزوجية أسلوب ألطف فى التعامل . . قرارات خاطئة تلو الأخرى، يسكنان الآن معًا داخل بناية تصميمها خطأ، هذا أفضــل من عدم وجود سقف، على عكس إينس، ليست لديه رغبة فى تغيير حياته.

ابتســامة ســاخرة على وجهها وهو ينزل على الســلم . . يسأل: «راضــية»، «هكذا أفضــل» . . لمحة انتصار فى صــوتها . . ماذا عساه أن يجيب؟

«أريـد قهوة فقـط» . . . يقولها لعزيزة التـى تحمل طبق بيض بالبسطرمة فى يدها، تتعجب عزيزة يوميًا من طلبه لقهوة عربية، فنجـان كبيـر، يا للهول ليسـت قهـوة ألمانية سـريعة الذوبان كما يشـربها المصـريون المرفَّهون . . يهتف فى طريقه إلى الخارج: «ربما أعود متأخرًا»، لا يدرى إذا كان أحدٌ قد سمعه. فتح شعبان الباب الخلفى للسيارة، يركب سيزمار.

شـارع الهرم شـديد الازدحام . . يعبر المشـاة الشـارع دون الانتباه إلى السـيارات . . تنجو الأغلبية بأعجوبة . . نعتاد العجائب عندما تحدث يوميًا . . يضرب شعبان بيده على جبينه ثم يمسك سريعًا بعجلـة القيادة . . يلوح بيديه فى الهواء . . احترامًا لهيبة السـفير لا يسـتخدم آلـة التنبيه وكذلك لعناته إلا فى الضـرورة القصـوى . . هدفه أن يكون الأسـرع وأن يحافظ على السيارة المرسيدس دون صدمات، عربات الكارو هى عدوه المفضل.

درس شعبان التخطيط العمرانى . . يراقب تطورات بلده بدقة ويضعها فى سياق عالمى وتاريخى، أحيانًا بطريقة غريبة، ولكن تلك الزاوية المختلفة ساعدت سيزمار، فى أحيان كثيرة، على فهم ردود الأفعال المصرية «شـعبان، ما رأيك فى الإسلامويين؟»، يرى سيزمار فى المرآة الخلفية وجه شعبان العابث، يود ألا يجيب الآن . . ربما لأنه يعلم بمشـاركة ألمانى فى الهجوم الذى أحبط . . كُتـبَ ذلك فى جميـع الجرائد . . قال: «إنهم سـيئون، يضـرون بالإسـلام، ولكن ليسـت كل مطالبهم خاطئة . . الحكومة سـيئة، ربما أسـوأ . .»، يعرف سـيزمار أن هـذا رأى ملايين . . تكتفى الأغلبية بصـب اللعنات . . القيام بثورة هى مهمة لآخرين مختلين

مثل سافاتسكى؛ يتصورون أنه من الممكن أن تقوم دولة الله بالقنابل ويعتقدون أنه دون الغرب ستحل المشكلات من تلقاء نفسها بل لن تنشأ من الأصل .. خليط من جنون العظمة والاضطهاد.. قرأ سيزمار العديد من النظريات المختلفة حول الإسلاموية والإرهاب، ولكن ما قيمة تحليلات تشرح أسباب تصدعات فى المجتمع المصرى وتهتم بصراعات العالم العربى فيما يتعلق بأمر سافاتسكى؟

يفرمل شعبان بشدة .. يجب أن يصرخ الآن؛ لأنه غير مسموح له بفتح الشباك لا يرى سائق السيارة المجاورة سوى قبضة يده.. يمرون من أمام حديقة الحيوانات .. لا يلتفت سيزمار إليها .. يكتفى بزيارته الأولى لها .. تبدو أقفاص الأسود والقرود كالتى أعدت للإرهابيين؛ خرسانة وأعمدة حديدية ولا شىء آخر .. فى مناورة مندفعة يحيد شعبان بالسيارة يمينًا .. يبدو لون النيل من خلال الزجاج الملون أزرق داكنًا .. ما زالت المطاعم على الشاطئ مغلقة .. تنجرف بعض مراكب الصيد مع تيار الماء.. يشغل شخص قصير القامة المحرك ثم يرجع .. ربما يكون القارب ممتلئًا بالمتفجرات بدلًا من السمك وينفجر فى اللحظة المقبلة إلى جانب دعائم الجسر فيدفع بالمئات وبنفسه إلى القاع .. توقعات بلا فائدة؛ ربما يحدث زلزال فى المساء أو تسقط طائرة فى الحى الذى يسكن فيه.

منذ شهور يقع محيط السفارة تحت حراسة مشددة تمامًا مثل سجن (شتامهايم) فى ذلك الخريف الألمانى .. حتى فى ذلك الحين كانت هناك ثغرات .. قال فيشتة من هيئة حماية الحدود الاتحادية:

«الوسـيلة الأكثر أمنًا هي ألا يدخل أو يخـرج أحد إلى محيط مبنى السفارة . . في واقع الأمر هناك مسكن رسمي لسيزمار ولكن مقر السـفارة يخضع حاليًا لأعمال إصـلاح . . أصيبت مساقط مكيفات الهـواء ببكتيريـا . . قامت وزارة الخارجية بإيجار الفيلا بشـارع الزهرة لفترة الإصـلاحات . . عندما ينتهي يوم عمله بعد منتصف الليل أو عندما يخشـى سـيزمار إلحاح إينس يستخدم الشقة الخاوية في المكتب . . هو، علاوة على ذلك، مكان يستطيع أن ينعزل فيه ليفكـر دون إزعاج. يدرك قيمة المسـافة بين مـكان العمل ومحل السـكن الخاص ويتمنى أن تدوم أعمال الإصلاح لفترة طويلة . . تحيط شـارع الزهور أحـداث الحياة اليومية فـي القاهرة، يعيش هناك حياة طبيعية وليس في عزلة خاصة به بعيدًا عن الواقع.

علـى المكتب الاتحادي للشـرطة الجنائية أن يسـتعين بالمكتب الاتحادي لحماية الدسـتور ووكالة المخابـرات الاتحادية لمعرفة كيفية انزلاق سافاتسـكي داخل المجموعة وطبيعة الاتصالات التي كانـت قائمة قبل الحدث مع مجموعـات أجنبية أخرى . . يجب أن يكون للمخابرات أي فائدة . . في أسـوأ الظروف على الوزير أن يلجأ إلى علاقاته الخاصة.

ينطلق سـيزمار من أن سافاتسـكي ذو شخصـية ضـعيفة سهل التأثير عليهـا، أنه أطلق النار أثناء القبض عليـه وربما قتل جنودًا وضـباطًا، وأنه كان ينوي قتل مدنيين . . سـبقت ذلك القصـص المعتـادة لجميع مرتكبي الجرائم ذات الخلفية الأيديولوجية؛ طفولة تعيسة، مرحلة شباب فاسدة، جرائم صغيرة . . الاستعداد لأن يتبع أي مخادع ما دام سيعطيه شعورًا بالأهمية . . بعد ذلك تدريب في

معسكر خفى . . تدريبات على ضرب النار . . مران على القتال المتلاحم . . تدريب على المتفجرات . . حلف اليمين أمام قائد ذى هالة . . يقوم كمبتدئ بأعمال مساعدة، يبحث فى أهداف ممكنة للهجوم ويوصل رسالات . . عندما ينجح فى هذه الأمور يتم اختياره لأول عملية . . واردٌ أن تكون الأخيرة وهذا أمر يدركه تمامًا . . تتشابه عمليات التحول من شخص مهمش إلى شخص متطرف أيًا كانت القنابل التى يلقيها ضد الرأسمالية أو الشيوعية أو من أجل إله بروتستانتى أو كاثوليكى أو إسلامى أو يهودى . . ماذا يحدث لغريزة حب البقاء التى تعد الأقوى داخل الإنسان؟ لماذا يريد أحد له مستقبل ينتظره أن يموت . . ليس العالم بهذا السوء . . من الممكن أن يصنع شيئًا بحياته . . ممّ تنطلق الرغبة فى التخلص من الحياة كما لو كانت جريدة مقروءة؟

تتكرر الأحداث منذ أن أصبح سيزمار سفيرًا فى مصر؛ يحاول الرئيس التخلص من الإسلامويين . . تهدف حملات بوليسية كبرى ومحاكمات علنية وتنفيذ أحكام الإعدام إلى استعراض الحسم وردع أشخاص مقبلين على اقتراف هذه الجرائم . . ينفذ الجيش جميع الأوامر ما دامت امتيازاته خارج دائرة الخطر.

تُنَفّذ عمليات استعراضية بهدف التأثير فى الرأى العام وكذلك عمليات عسكرية سرية . . لا شىء يفيد . . يأتى فى وقت قصير بدلًا من المسجونين والمعدومين محاربون جدد خططهم أكثر دقة وأعمالهم أكثر عنفًا.

وقف سيزمار منذ قريب أمام الأهرامات – يذهب إلى هناك

بشكل منتظم . . لا صفوف للزوار . . لم يرد أحد أن يركب أحد الجمال . . وقف أصحابها يتجاذبون أطراف حديث عقيم . . تزينت الجمال وأخذت تمضغ ما فى فمها برضا . . لم يفتقدوا عملهم . . يبذل بعض الرجال مجهودًا لبيع ورق بردى ومخبوزات ومشروبات. فكر: «فى يوم من الأيام سيطلق هؤلاء الناس – الذين يبدو صبرهم بلا حدود – النار، لأن أبناءهم يجوعون . . وإن لم يفعلوا سيقوم أبناؤهم بذلك حينما يكبرون» . . مخزون هائل من الإرهابيين لا يهتم به أحد إلى أن يقع ضحاياهم من السياح الأجانب . . حينئذ يتصدر الخبر العناوين الرئيسية لمدة بضعة أيام . . تليه تقارير وتعليقات ومقترحات حلول إلى أن تأتى فضيحة سياسية أو كارثة فيضان . . تظهر بعد ذلك الاعتقالات والمحاكمات والأحكام فى الأخبار القصيرة.

يزخر مكتب سيزمار بملفات كُتِبَت على عُجالة وتصريحات رسمية وملفات صحفية . . يمر سريعًا على هذا وذاك؛ انفعالات كبيرة وأنباء رنانة والقليل من الجديد . . من المعروف أن المحاربين فى سبيل الله يخططون حاليًا لهجماتهم فى الوجه القبلى . . يعد سرًا مكشوفًا أن معسكراتهم فى السودان وأن الحكومة هناك تدعمهم . يتم توصيف استراتيجية الهجوم وتحليلها؛ ليس مؤشرًا للضعف عندما لا يحدث شىء لمدة أسابيع فيبدو أن الحركة قد توقفت، هناك منهج متبع: إفقاد الثقة بشكل مستمر من خلال هجمات محكمة الهدف على فترات محسوبة بدقة . . بمجرد أن يعود الرأى العام إلى حياته المعتادة ينسى أحد حقيبته فى مقهى مفضل . . تنفجر مع أول لمسة، أو يظهر ملثمون أمام محل راقٍ

ويطلقون النار على الجموع . . إما يُقتَلون وإما يختفون دون أى أثر . . وفقًا للمعلومات يُجَنّد الجناة بشكل أساسى من جموع شباب خريجى الجامعات، ليس لديهم أى فرص عمل؛ سائقو سيارات أجرة بمؤهل عالٍ، ماسحو أحذية بشهادات دكتوراه، مثل شعبان . . الحرب المقدسة كوسيلة خلاص أخيرة من فقدان الإحساس بالذات.

يمكنهم الاختباء فى أى مكان . . هناك حقول لقصب السكر وكهوف وصحراء وعشوائيات على شكل متاهات . . يغض الآلاف من المتعاطفين بصرهم عنهم أو يقدمون المساعدة فى الخفاء . . من يمكنه أن يقوم بالرقابة؟ بأى الوسائل؟ لا يوجد جيش فى العالم لديه مروحيات كافية . . هناك ثغرات فى رقابة الحدود مع السودان . . يجد موظفو الجمارك بعض الورقات النقدية داخل جواز سفر مزور: «يمكنك العبور»، يتقاضى الموظفون على الجانبين رواتب بائسة ويسعدون بأى مبلغ إضافى، أو أنهم ينتمون شخصيًا إلى الحركة.

ماذا يدفع بألمانى لأن يتورط فى أمر كهذا؟

ينحى سيزمار الملفات جانبًا ويأخذ ورقة خاوية . . لا يكتب شيئًا بل يقضم القلم . . منذ هذه اللحظة يصيبه تخيل المقابلة مع سافاتسكى بالتوتر على الرغم من أن اللقاء ربما يكون بعد أيام . . يحاول إقناع نفسه أن هيكل أفكار سافاتسكى سينهار فى غضون دقائق . . قناعات نابعة من التلقين وتتحطم تحت ممارسة الضغوط . . من ناحية أخرى؛ ليس لديه كإسلاموى شيء يفقده سوى إيمانه بأنه

يعمــل بتكليف من الله . . عندما ينزع هذا الإيمان عنه ســينهار . . مــاذا لو رفض التنــازل عنه؟ تنطلق «الله أكبر» مرات لا حصــر لهــا من فوق المآذن يوميًا . . لا عبارة دون «نحمد الله» ، «الحمد لله» ، «بمعونة الله» و« إن شاء الله» .

نشأ سيزمار فى أسرة بروتستانتية من نبلاء مقاطعة هولشتاين ، تمتلك أراضــى شاسعة . . كانت الصــلاة تقام صباحًا ومساءً وقبل وجبــات الطعام . . يوم الأحد كان الجميع يذهب إلى الكنيســة . . خصصــت لهم مقاعــد عليها لافتات أســمائهم محفورة كلفتة شــكر للتبرعــات الســخية التى قدموها علــى مر الزمــان . . يطلق على نفسه «متشكك ذو أصــول دينية» ، وجد هذه الصيغة منذ سنوات ، ما زالت صــحيحة وتعطى مجالًا للتصــرف . . يــدرك أن تاريخ المســيحية تحددت معالمه من قبل متطرفين . . تحول المحرضون وسفاكو الدماء إلى قديسين وحماة المسيحية .

كيف يمكنه مســاعدة سافاتسكى كسفير وكإنسان؟ يعمل من أجل الصــفة الأولى فى خدمــة الوطن . . يكتب فى وســط الورقة: "لا يعنينــى كمبدأ أى شــىء آخــر" . . يحملق فى المنظــر الخارجى ، يخفف من ربطة العنق ويضيف: "ما هو أى شىء آخر؟" ، يشطب على الجملة ويأخذ سماعة الهاتف: «مدام صمدى ، أريد قهوة وأى شىء آكله» .

ينظر إلى الســاعة ، التاسعة والنصــف ، ينهض ، يفتح الشباك ، تلفحه موجة من الحر والتراب . . ضوء ساطع لكنه رمادى ، يمحو المعالــم ويبتلع الأفق . . يجــب أن يكون الجو باردًا فى هذا الوقت

من اليوم . . فى نوفمبر من العام الماضى كانت تسقط الأمطار . . خلف الشــارع نخل وشــجر كافور وطلوح ، تتبع لنادى الجزيرة الرياضــى؛ وهــو عبارة عن مســاحة مــن الأرضــ الواقعة تحت حراســة مشددة بها حمام سباحة وملاعب رياضية ومطاعم خاصة ومساحات خضراء يُعْتَنى بها . . يملك واحد من ألف قاهرى أموالًا لدفع الاشتراك السنوى . . هؤلاء هم من يخشون الانقلاب .

عليه أن يحصــل لسافاتسكى على حق تســليمه لبلده حتى يُحاكم فى ألمانيا: حمل الســلاح دون ترخيص ، العضــوية فى مجموعة إرهابية والإعداد لهجوم . . ســيجد شيئًا يعلل به الطلب المقدم إلى الحكومة المصرية . . لو أخِذَ إجراء الشاهد الملك فى الاعتبار ربما ستكون عقوبته أبســط من سجن مدى الحياة كما حدث مع سوزان البريشــت . . ولكن يتطلب ذلــك أن يتخلى سافاتســكى عن موقفه ويتعاون .

أحيانًا يصيبه الأمر بالغثيان؛ هناك من يقوم بتهريب المخدرات وآخــر يهرب الآثار . . رجال يعتدون جنســيًا على أطفال مقدمين إليهــم من أهاليهــم . . رجال أعمال يتقدمون ببلاغات ضــد فتيات ليل؛ لأنهن ســرقن حافظات نقودهم ثــم يتعجبون من أنهم يذهبون إلى السجن . . لم يقل لهن أحد إن الدعارة يعاقب عليها القانون . . كثير من هواة الجريمة والساذجين والشاذين؛ ينتظرهم حبل المشنقة أو الســجن أو الجلــد أو الغرامة . . يبكــون ويندمون ثم ينكرون ، يلعنون البلد المضــيف مرة وشركة السياحة مرة أخرى ، يذكرون أعــذارًا غبية ولهم مطالب يقف لها شــعر الرأســ . . الآخرون أو الظروف هم دائمًا السبب .

«قهوة سيادتك، وساندوتش جبنة . . . أتمنى أن يكون مناسبًا» . . ينظر سيزمار إلى مدام صمدى ويحتاج إلى لحظة ليفهم ماذا قالت: «شكرًا» . . تبتسم مدام صمدى . . يحب وجهها وينظر للحظة إلى شفاهها الممتلئة ولونها الأحمر الداكن . . إنها فى الثانية والثلاثين ومتزوجة: «لدى سؤال يا مدام صمدى: ما رأيك فى الإسلامويين؟ أعرف أن الكثيرين هنا يتعاطفون معهم حتى . . »، «أنا قبطية»، تردد سيزمار: «فعلاً؟ طبعًا . . اسمك الأول مريم» . . «نعم» . . «ماريا» . . «لدينا تخوفات ولكنها ليست كبيرة» . . . تزيح كم بلوزتها وتشير إلى وشم الصليب على معصمها، «شكله جميل» . . تنظر مريم صمدى إلى الأرض: «لن أدق وشمًا لأبنائى».

يُشَغِّل الحاسوب الآلى وينظر إلى الشاشة وهى تتكون . . يظهر رمز يلى الآخر أمام خلفية لمنظر طبيعى خالٍ عند بحر البلطيق؛ شاطئ وبحر وسماء بها غيوم . . تهب فى الخارج رياح بلون الرمل . . الصحراء تتنفس . . لا يعرف، اسم هذه الرياح ولا من أى مكان تأتى، ربما من المغرب . . سواء كانت النافذة مفتوحة أم لا سيفسد تراب الصحراء لوحة المفاتيح للمرة الثانية هذا العام . . حروف الـ «Q وX و J» تصدر أصواتًا، يجب أن يضرب عليها بقوة وإلا لن تستجيب . . يرن هاتفه . . يقول صوت مريم صمدى: «الدكتور توفيق على الهاتف».

يبلغه الدكتور توفيق بأنه تم نقل سافاتسكى أمس من سجن الأقصر إلى سجن جديد على مستوى عالٍ من التأمين بالقرب من القاهرة . . هو موجود الآن على حدود المدينة بدلًا من معسكر

المسجونين السرى بوسط الصحراء الليبية . . قام عدد من المحققين باستجوابه . . بدا سافاتسكى عنيدًا بشكل واضح، رافضًا لأى نوع من التعاون على الرغم من مساع مختلفة . . يومئ سيزمار برأسه وينحى شعورًا عابرًا بالفخر جانبًا . . من الأفضل ألا يعرف طبيعة هذه المساعى . . من الممكن تحديد موعد لقاء فى الأيام المقبلة، ربما الاثنين إذا كان موافقًا . . هو موافق بالفعل . . للأسف الاطلاع على محاضر التحقيقات ليس متاحًا للسفارة فى الوقت الحالى حتى لا توجد خطورة على الإجراءات المقبلة ضد المنظمة. يقول الدكتور توفيق: «يمكن هذه الأيام أن تتعاون أى عاملة نظافة مع العدو» . . هو يعرف تمامًا أن ما من عاملة نظافة سترى حتى مظروفًا لأوراق سرية . . يعد حجب الملفات بمثابة تعنتًا ويخالف الاتفاقيات التى وقع عليها البلدان . . بدأ استعراض القوة . . يقول الدكتور توفيق: «سوف أنتظرك يوم الاثنين فى الساعة العاشرة أمام سجن الحرية» . . ينهى سيزمار المكالمة بشكر مقتضب وملحوظة بأنه سيبلغ وزير الخارجية بالوضع الحالى؛ تهديد ضمنى من جانبه.

يشعر بالاستياء . . لقد اتهمه الدكتور توفيق بأنه يتعامل باستخفاف مع أمور سرية ليستعرض أن جانبه هو الأقوى فى الوقت الحالى . . من المفترض أن يعترض وزير الخارجية لدى نظيره المصرى على هذا الأمر ولكن فى هذه الحالة ستحتد النبرة فى مرحلة مبكرة . . لا بديل الآن إلا أن يتغاضى عن هذا التطاول.

لو تم أول لقاء بعد ثلاثة أيام بالفعل؛ فهو بحاجة ماسة إلى كل المعلومات المتاحة عن حياة سافاتسكى فى المراحل السابقة . .

يجب أن يكوِّن صـورة خاصـة به، أن يقرر بنفسه ماهو مهم وما يمكن الاستغناء عنه . . لماذا لم تصل الملفات بعد؟ جاءت حقيبة بالأمس، فيما يبدو كانت مليئة بالمقانق واللحوم للسيد (بوزن إدر) الذى يجوع دون لحم الخنزير . . على السيد (كلوسن) أن يمارس بعض الضغط عليهم هناك.

يُجرى سيزمار اتصالًا هاتفيًا: «(فريدهيلم)، أرجو أن تسدى لى صنيعًا، اسأل فى وزارة الخارجية عن ملفات سافاتسكى . . أنت على علاقة أفضل بالسيد (فيرهاين)».

وفقًا لمعلوماته الحالية؛ اتسم ماضـى سافاتسكى بالفوضوية: الخروج من المدرسة الثانوية، لا دراسة تأهيلية، تجارة مخدرات . . سيزيد هذا الأمر تعقيدًا.

يرن الهاتف مرة أخرى: «زوجة سيادتك على الهاتف» . . «أنا فى اجتماع» . . «تقول إن المسألة ضرورية»، «حسنًا، ليس حسنًا . . إذا لزم الأمر».

يعرف ما ستقوله إينس: والدتها فى حالة سيئة وتفكر فى السفر إلى ألمانيا، لا تجد شيئًا ترتديه فى دولابها الزاخر بالملابس أو عزيزة أسرفت فى شراء المواد الغذائية . . «حبيبتى، ليس لدى وقت على الإطلاق»، «هناك رجل يأخذ الشارع أمام المنزل إيابًا وذهابًا . . إنه ذو لحية» . . «ربما ينتظر أحدًا» . . «يرتدى سترة سميكة فوق الجلباب، ألا تجد ذلك مريبًا؟» . . «لماذا؟».

يعمل منذ عام ونصف العام سفيرًا فى القاهرة . . انفجرت

فى هــذا الوقت قنابــل بمقاهٍ فى ميــدان التحرير وقتلت مصــريين وأجانب . . أطلق النار على جموع من السياح ، تم تفجير أتوبيسات وقتل سياسيين ومثقفين .

«يبدو متوتــرًا وينظر خلفه طوال الوقــت» . . . «هذا يؤكد أنه ينتظر» .

لو أقيمت انتخابات حرة ســينجح المتطرفــون ويقيمون دولتهم الثيوقراطية . . سيرجمون الزانيات ويقطعون أيدى اللصوص . . فى الغالب ســيهدمون المعابد ويكســرون صــور الآلهة ويغلقون المتاحــف؛ لأن التماثيل تطرد الملائكــة . . على الرغم من ذلك لا يتملكه الخوف .

«يحيط رجــال من هيئــة حماية الحــدود الاتحادية والشــرطة المصــرية المنزل» . . . «لــم أرَ أحدًا منهم منذ نصــف ســاعة» ، «ســأتحدث مع المســئول . . تأكــدى أن جميع الأبواب موصــدة واجلسى فى غرفة المعيشة» .

بدأ ســيزمار يشعر بالحرج عند الاتصال برجال الأمن : «عذرًا يا ســيد (فيشــتة) ، هل يمكن لأحد من رجالك أن يدق الجرس على زوجتى فى شارع الزهرة . . لقد عاودتها المخاوف» .

الخــوف مؤهل ســيئ للعمل فى الســلك الدبلوماســى . . معظم البــلاد خطيــرة . . هنــاك حــرب عصــابات ، منفــذو الانقلابات العســكرية ، منظمات إرهابية تعمل لصالح الحكومات ومجرمون معتادون . . قلما تتمتع بشعبية فى هذه الوظيفة . . لا عند الثوار أو

عند الحكومات . . إلا إذا تمت الموافقة على منح اقتصادية سخية؛ أو أن الحكومة فاشية والحاكم متحمس للرايخ الثالث . . يُكِنُّ الإسلامويون لألمانيا كدولة غربية أقل نسبة كراهية . . يعد هتلر بطلًا هنا . . كل بائع كتب على الرصيف لديه كتاب «كفاحى»، لدى الناس قناعة بأنه ما كان وجود لإسرائيل أو للأراضى الفلسطينية المحتلة حاليًا لو كانت ألمانيا قد انتصرت فى الحرب . . فى الغالب هذا صحيح.

ليست لديه التزامات حتى موعد الغداء . . قد يقرأ فى القرآن ويكتب مواضيع مهمة لمصطلحات مختارة: الجهاد، الكفار، عقوبة الموت، الجنة، النار . . ربما هذا مفيد . . سيعرف فى هذه الحالة ما يتحدث سافاتسكى عنه ويستطيع أن يضربه بسلاحه، ولكن الدكتور (لودرز) مؤهل لهذه المهمة بشكل أفضل لكونه عالمًا فى الدراسات الإسلامية . . عليه أن يجهز قائمة بأهم الاستشهادات بعد مراجعة السور . . يطلب سيزمار رقمًا، اثنان، ستة . . اتصال يرجو مزيدًا من الأوراق.

لقد بدأ حافظ شاشة الحاسوب الآلى فى العمل . . يحل محل بحر البلطيق قرود تقفز وسط الغابة الافتراضية، تذكار من كولومبيا . . كان يحب أيضًا فترة إقامته هناك ولكن ليس بحجم حبه للقاهرة . . كثيرًا ما كان يذهب إلى (غابات مطيرة) . . كانت إينس تحاول فى كل مرة أن تمنعه، بسبب أمراض خطيرة، ثعابين سامة، حيوانات متوحشة وخطورة أن يصاب أو أن يغرق.

لماذا أصبح دبلوماسيًا؟ لماذا أراد أن يأتى إلى القاهرة تحديدًا؟

منذ منتصـف الثمانينياتِ على أقصـى تقدير بدت توجهات واضحة إلى العنف . . لماذا يُعَرض نفسـه وزوجته لهذا التهديد المسـتمر؟ لحسـن الحظ لـم يرزقا بأطفـال، مـع الأطفال ما كانـت الأمور ستسـير . . علـى الرغـم من ذلك لا يعلـم إذا ما كان قـرار الحياة المشـتركة صـائبًا . . لماذا الـزواج ما دامت لا توجـد الرغبة فى أطفال؟ الزواج كان رغبـة إينس وليس رغبته هو . . يأخذ الكثير مـن الزملاء أبناءهم إلى كل مكان . . يذهبون فى بلاد على درجة عالية من الخطورة تحت حراسـة الشـرطة إلى مدارس دولية فى أحياء سـرية، أو يقضـون المرحلة الثانوية فى مدارس داخلية فى ألمانيـا . . كانت إينس حتمًا سـترفض هذا وذاك . . كان سـينتهى بـه الحال كمحام . . منزل فى ضـواحى المدينة بحديقة للأطفال، يأتى الزملاء والأصـدقاء لحفلات شـواء فى الصيف . . بعد فترة علاقة مـع زوجة الطبيب التى ملـت حياتها فى المنـزل المقابل، إينسـ تدخل الفراش مع مدرس البيانو . . فى وقت ما كان أحدهما سـيجد دليلًا أو يضـبط الآخر متلبسًـا . . الطلاق مكلف والأطفال كانوا حتمًا سيذهبون إلى المدرسة الداخلية فى هذه الحالة أيضًا.

أراد سـيزمار لنفسـه شـيئًا آخر غير رتابة الحيـاة المنظمة . . ولكن لم تكفِ شـجاعته لتغيير مسـار حياته . . طالبه أبوه بوظيفة محترمة . . كانت الضـغوط أكبر من أن يحتملهـا دومًا . . بما أن أخاه (كريسـتيان) ملزم بإدارة أمـلاك العائلة، لم تبقَ له خيارات كثيـرة بخلاف الحقـوق والطب . . زار أثناء دراسـته اجتماعات اتحاد طـلاب ألمانيـا الاشـتراكى، وتظاهر ضـد حـرب فيتنام؛ ولكن دون أن يثبت اسـمه فى الدفاتـر . . حذف كلمة «فون» من

اسـمه، وهذا ما لا يعرفه والداه حتى اليوم . . كانت وظيفة السلك الدبلوماسـى بمثابة حل وسط واهٍ؛ ولكنه، على أى الأحوال، حل وسط وليس استسلامًا تامًا.

يخشى أباه . . لا يتحدث فى هذا الأمر . . يتساءل إذا كان هناك مجال للمقارنة بين هذا الخوف وخوفه من إينس؟

قبـل تَسَلُم أول وظيفـة لـه فـى الخـارج كملحـق ثقافـى فى الرباط؛ تحدث طويلًا إلى زميل صـاحب خبرات اسـمه (لمبرت زيندولفنجـر)، أراد أن يتأكد من أن توتره قبـل الانتقال إلى البلد الآخـر لا يُقْلِق . . (زندولفنجر) الذى تـورم أنفه على مدار حياته الدبلوماسية ذات المحطات المختلفة وباتت فى حجم ثمرة المشمش أومأ برأسـه قائلًا: «خليط من التوتر والقلق من السـفر . . يصيب الكثيريـن ثم يذهب لحالـه» . . «هل خفت يومًا من بلد ما؟ أقصـد خوفًا حقيقيًا»، أجاب (زندولفنجر): «أنا أكره الخوف . . إذا بدأت بالخـوف سـينتهى بك الحال خلـف جبال من المسـتندات . . ولن تعيش أى شـىء من شـأنه تغيير حياتك»، لم يكن سـيزمار متأكدًا من رغبته فـى التغيير . . «هل نتغير أم نبقى نفس الأشـخاص فى سياقات مختلفة؟»، هز (زندولفنجر) كتفيه مانحًا معانى كثيرة وأخذ رشـفة كبيرة من النبيـذ: «كيف يمكننى أن أعرف مَـنْ أنا إذا كنت شخصًـا آخر كل ثلاث سنوات؟ وإن كنت لا أعلم مَنْ أنا إذن كيف سأعرف أن الذى يسكن جلدى قد تغير؟ ربما هو ليس موجودًا من الأصـل» . . «وإلى مَنْ أتحدث الآن؟» . . «إلى سـفير جمهورية ألمانيا الاتحادية فى هولندا، (لمبرت زندولفنجر)»، ضحك.

سيزمار موجود ولكن في حالة غير مُرْضية، هو ابن فلاح موهبته محدودة، لديه أصول نبيلة ينكرها؛ لأنه يرى أن فكرة الدم الأزرق لا تلائم العصر الحالي .. ينجز أقل مما يريد ويستطيع أن يقوم بأمور أكثر مما هو مسموح به .. قصته ليست بالضرورة مجموعة من اللقاءات والأحداث بل مجموعة من الأماكن .. كان في المغرب واليابان وكولومبيا بالإضافة إلى مهمات قصيرة ومؤتمرات حول الكرة الأرضية .. في كل مرة كان يتعثر في فهم أمور مختلفة عنه، ويضطر إلى تعديل تصوراته عن العالم .. يمكن تغيير تصوراتنا عن العالم بسهولة، إنها لا تمس الجوهر .. لم يتحول إلى شخص أفضل وأذكى، لا يعرف عن نفسه أشياء أكثر مما كان يعرف وهو في العشرين .. يتجنب أباه قدر الإمكان.

تطالبه إينس دومًا بالتغيير لأنها خائفة .. يرتعش صوتها حينئذ وأحيانًا تبكي .. الخوف حجة واهية .. البكاء ابتزاز .. في بلد مثل بوجوتا أو القاهرة يجب تحديد المخاطر بعين العقل تمامًا كما في الحب .. أن تكون من بين سبع عشرة مليون نسمة وعدد سياح غير معلوم ضمن خمس أو عشر ضحايا لهجوم إرهابي؛ يعد احتمالًا ضئيلًا جدًا تمامًا مثل أن يلتهمك يغور في أدغال كولومبيا .. من الأرجح أن يموت بسرطان الرئة أو في حادث سيارة .. الخطر الوحيد الحقيقي في حياة إينس هو السقوط في الفراغ، نتيجة للشلل .. تخاف أن تركب سيارة الأجرة بمفردها، أن تذهب إلى الأسواق لشراء الخضروات واللحوم والحلي وأغراض رخيصة وبلا ذوق .. تشعر بعدم الراحة حتى في بوتيكات المصممين الأوروبيين والأمريكان الخاضعة لحراسة صارمة. إنها تخاف من

كل يوم . . على نفسها . . عليه . . تعتقد: الأوروبيات الشقراوات هن هدف للمتطرفين، والمتطرفون يتربصون فى كل مكان . . لماذا لا تصبغ شعرها؟ أو ببساطة أكثر: لماذا لا ترتدى حجابًا؟

إذا كانت الحال بهذه السوء لإينس فلتعد إلى ألمانيا . . هو على استعداد لإقامة علاقة عن بعد . . الشقة فى بون كبيرة، برؤية على نهر الراين، وسائل تسوق متعددة مباشرة أمام باب المنزل . . يمكنها توفير جميع احتياجاتها دون عناء، سيكون لديها كل مميزات مدينة حديثة تقع فى غرب ألمانيا: بنية تحتية متقدمة، متاحف، مسرح، حفلات موسيقية، مطاعم . . ما زال يمكنها إنهاء رسالة الدكتوراه . . القرار متروك لها.

لا يعلم سيزمار سبب حبه للقاهرة . . لا يوجد تفسير للسحر؛ مدينة تبتلعك بشراهة، حارة، غير منظمة، قذرة، ضجيج، زحام، دخان . . يستعرض كل من الشرطة والجيش على كل ناصية قوته . . يعوضان نفسيهما عن النجاح المفقود بجبروت . . يلقى الرئيس بنظره من فوق لافتات على شعبه . . إنه القائد الأعلى، الحاكم الصارم، الصديق الواسع الصدر والأب الحنون . . يرى أبناءه فى ملابس رثة وهم يلمعون سيارات ليموزين فارهة وسط الزحام لأصحابها الذين أصيبوا بالتخمة . . يرى سيدات بزينة فاقعة يتبخترن بكعبهن العالى؛ ويرتدين فرساتشى أمام المعاقين والمجانين . . يلوح للشحاذين الذين افترشوا الأرض فى اتجاه القبلة على درجات السلالم الرخامية أمام البنوك ذات الواجهات الزجاجية . . الخرابات مرعى للأبقار، أحد يذبح فرخة . . مَنْ لديه عمل يقوم به ببطء حتى لا ينتهى . . تبقى أمور كثيرة للقيام

بها؛ الصلاة واجبة، الشاى ينتظر، يجب التفاوض على عملية بيع وشــراء، يبدأ البث المباشــر لمباراة كرة قدم .. تختلط الشكاوى والإهانات والضحك وصــرخات السعادة مع أصوات الزهر على لوحة اللعب التى لا تتوقف .. عندما خلق الله الوقت كان كريمًا .. لكن عند ركوب السيارة يصبح الوقت عزيزًا.

يفضــل سـيزمار الســير على أقدامه .. يتجول فى البازارات وشــوارع التســوق ذات الطابع الغربــى والمقابر أو يمشــى على النيل مرورًا بمبانٍ آيلة للسقوط، قصور بواجهات زجاجية، أبنية فاخرة منذ عهد الأســتعمار وأكواخ من صفيح .. كثيرًا ما يشرب عصيرًا طازجًا ويأكل ساندويتش طعمية .. حتمًا يقف فى وقت ما أمام تلك الأسوار المرتفعة والممتدة التى لا تمتلك نوافذ .. المدخل غيــر ملحوظ وأحيانًا تجــد إلى جانبه لوحة زرقــاء أو لافتة بلغتين عند المقبض تخبر عن المؤســس وســنة التشــييد .. يدخل ويومئ برأســه للحارس الجالــس على مقعد ويخلع حذاءه .. فى الســاحة الداخلية للمسجد للصمت صــوت .. تمتد السماء من فوقه أو يوجد ســقف يقوم علــى أعمدة بزخارف لا بداية لهــا ولا نهاية .. هناك برودة لطيفة .. ظلال بأشــكال هندســية تنعكــس دون أن يلحظها أحــد .. يجلس إلى جانب أحد الأعمــدة حافيًا أو مرتديًا جوارب، مُلحد لا يزعجه أحد .. إنه ينظر، ينصــت، يقــرأ ويمعن التفكير؛ آيات من القرآن الكريم محفورة فى الحجر، الخطوط الناعمة لقُبَّة فوق البئر، قطرات ماء تنســاب علــى بلاط أزرق .. لديه رائحة المانجو والثوم.

يفكر سيزمار فيما يجب أن يحدث ليقوده إلى القتل؟

يجب أن يتحدث مع الإمام الأكبر . . إذ يمثل الإمام الأكبر الإسلام المستنير . . التقاه فى مناسبات مختلفة . . شخص لطيف، هادئ مثلما هو حاسم، يزن الأمور ويهدف إلى خلق اتزان . . يكرهه المتطرفون . . يتهمونه بالتعاون مع العدو .

«مدام صمدى ، أحتاج إلى ميعاد مع رئيس جامعة الأزهر الشيخ البصال ، قدر الإمكان قبل يوم الاثنين ، راجعى الجدول واعتذرى عن مواعيد إن تطلب الأمر . . سوف آخذ الدكتور (لودرز) معى» .

ما زال الضوء فى الخارج لونه رمادى على الرغم من أن درجة الحرارة أربعون درجة مئوية . . يفكر سيزمار فى القيام بجولة فى وسط البلد ، بمفرده ودون هدف لترتيب أفكاره وتكوين استراتيجية للحديث مع سافاتسكى . . يمكنه تغيير ملابسه ، توجد بناطيل جينز وفانلات بالشقة . . ستكون البدلة لافتة للنظر ، وتؤكد على كونه أجنبيًا غربيًا ضل طريقه . . وفقًا للحى الذى سيكون فيه سيتلقى دعوة أو لعنة؛ ويدخل عنوة إلى محل ليفرض عليه شراء أى شىء . . يهز سيزمار رأسه ويبقى جالسًا . . يقع نظره على يده اليسرى . . يعكس الخاتم الذهبى العريض وجهه مشوهًا: أنف كبير ، شارب ضخم ، عينان مخيفتان ، فم يصل للأذنين . . الزوج فى هيئة وحش . . يجب أن يشترى هدية بمناسبة عيد زواجهما . . ماذا؟ إينس ليست سعيدة بأى حال . . إنها امرأة جميلة من أسرة وجيهة ، تعيش إلى جانبه وتزعجه . . سافاتسكى حتى الآن عبارة عن أحلام يقظة ومذكرات وتوصيفات من أطراف ثالثة . . لا يقوى فى هذه الحالة على أن ينحى إينس جانبًا . . إنها تنام إلى

جانبه كل ليلة، يتبادلان الحب أحيانًا، نادرًا .. على عكسها لا يقول لها إنها تشخر.

يتساءل سيزمار عن كيفية جمع اهتمامات شخصين، أن يقيما جنبًا إلى جنب دون أن يضر واحد منهما الآخر، طرف لديه التزامات مهنية، والآخر لا، .. عدم تكافؤ فى الماديات، اختلاف فى الهموم، عدم تفاهم، إهانات .. هل يكفى ذلك للاستسلام؟ الاعتقاد الخاطئ بأن هناك بداية جديدة يوحى بوعود واهمة .. ألم يلتقِ سافاتسكى فى حياته شخصًا يستحق أن يعيش بجانبه .. فى الغالب يفضل الخيالات التى تسكن ذهنه على البشر .. البشر حمل ثقيل عندما يتعلق الأمر بتحقيق المدينة الفاضلة .. يتذكر سيزمار مرحلة دراسته فى نهاية الستينيات وبداية السبعينيات .. آنذاك جرت محاولات لاستبدال الفرد بفكرة، بحلم أن الطبقة العاملة تحارب تحت قيادة الطليعة المثقفة ضد النظام الفاشى الرأسمالى.. كان يقف على الجبهة ولكن فى الصف الثانى .. مع الوقت أصبح يكره اللهجة الرنانة التى تنم عن مراهفة متأخرة لمصلحى العالم والثوريين .. تختبئ وراءها أنانية ورفض للنضوج .. يعنى النضوج تقبل حلولاً وسطًا .. لا أحد يحب الحلول الوسطية؛ ولكن لا يمكن أيضًا تنفيذ مطالب متطرفة .. يدرك ذلك بوصفه دبلوماسيًا.. «الحياة ليست أغنية مفضلة» يعرف ذلك من أبيه.. عندما يطبق هذه المقولة على حياته الخاصة يجد صعوبة فى إيجاد تفسير .. من الصعب تبرير أنه يفضل مدينة على السيدة التى يحبها .. بالطبع يمكنه أن يطلب نقله .. لأسباب شخصية أو بسبب التزامات عائلية .. فى الغالب سيجدون زميلًا سيسعد بالمجىء

إلى القاهرة . . فى غضــون أسابيع ســيُنَظّم كل شىء . . ولكنه لن يبادر باتخاذ خطوات فى هذا الشأن.

أحيانًا يكره نفســه بســبب البرود الذى يجعله يمارس وظيفة فى ظل معاناة إينس . . لقد اكتســب هذا الشـعور ليحصــن نفســه ضد لحظات الوداع . . صــداقات نماها بعناء تنتهــى بانتهاء مهمته . . تبهت الذكرى عن المكان الذى تركه . . لا يســتطيع أن يقول متى بدأ فى تحصــين نفســه ضد إينس أيضًــا . . ما هو أكيد: القاهرة هى أول مدينة ومصر هى أول بلد يود أن يبقى فيه . . يكاد يكون ذلك مســتحيلًا، إلا إذا اســتقال . . تعلــم فى العامين الماضــيين التفرقة بين الأشــكال المختلفة للصحراء: صــحراء رملية وصخرية وذات حصــوات وملحية، جميع درجات الألوان بين الأبيض والأســود والأصــفر والبنــى . . يتخللها الأخضــر القاتم للواحــة، حفنة من النخل، شجيرات، أكواخ من الطوب آيلة للسقوط . . نزح السكان عندما انقطعت القوافل . . رفضــتهم القاهرة، أبَى النيل أن يمنحهم العمل والخبز . . جمال النهر لآخرين، لناس مثله هو . . بلشونيات بيضــاء يقفون خلف شــبورة، ورواير زاهية الألوان والمليارات من الناموس . . الجاموســة التى تســد الطريق دون حراك – أحد الأســباب التــى لا تحصــى وتجعل الانضــباط فــى المواعيد ليس بفضــيلة . . تقل حركة النهر بالاتجاه إلى الســاحل . . له تفريعات لا حصــر لها، نهيرات، ســيل هزيل . . ثم البحــر فيروزى وفى منتهى الصــفاء . . يمكــن رؤية القاع . . لا وجــه للمقارنة باللون البنــى فى جروميتســ عند بحر البلطيق . . ينظف صــبى ســمكًا، يرمــى المخلفات الدموية لكلاب جائعة . . أمهات بزينة صــارخة

يرتديـن الحجاب ويتبخترن باحثات عن معجبين . . الآباء يأكلون ويدخنـون ويغفـون داخل خيام . . تجمـع ابنة ملك نوبـى أطباقًا ورقية من أمام مطعم للمشويات . . لا يلحظها أحد .

تجـد إينس كل ذلك مخيفًا . . إنه غريب وكل شـىء غريب هو معادٍ بطبيعته . . تريد وجوهًا مألوفة، ردود أفعال متوقعة، حينئذ تدعى أنها سـعيدة . . هو يشـك فى ذلك . . ليس لتعاستها سبب، لا شىء يستدعى خوفها . . يتكاثر بالانقسام . . ينمو كل جزء ليصبح وحشًا جديدًا . . تريد إينس أن تهرب على قلعة مستأجرة فى بون؛ ولكنه رأى بالفعل أشـباحها هناك . . فى عيونها هو شـخص أنانى يفرض تلبية احتياجاته دون مراعاة أحد . . ربما تكون على حق . . لا يتخيل امرأة قد يتخلى من أجلها عن هذا النوع من الوجود .

يسمع سيزمار صراخًا فيقترب من النافذة . . رجلان يتعاركان فى وسـط الشـارع . . تجمهر البشـر حولهما فى ثـوان . . آلات التنبيه، غضب . . لا تستطيع أى سيارة التقدم إلى الأمام . . ينزل سـائقون غاضـبون ويندفعون داخل الجموع . . سـيبدأ الضرب فورًا . . فجأة يُظهِر أحد المتعاركين مسدسًا ويلوح به فى الهواء . . تتسع الدائرة، يشتد التوتر . . هل سيطلق النار أم لا؟ يفكر سيزمار فى ضـرورة استدعاء الشـرطة . . انتهى الأمر . . بالسرعة نفسها التى أراد بها الرجلان قتل بعضهما تحولا إلى صديقين يتعانقان . . انفض الجمع . . تذهب أسرة إلى الرصيف المقابل، أب وأم وسيدة عجوز وأربعة أطفال . . يلوحون بأيديهم، يضـحكون ويحمدون الله، يبكى الصـغير ويأخـد حلوى ليهدأ . . كادوا يشـهدون على حادثـة إطـلاق نار . . سـتكون هـذه الواقعـة مـادة لحديث على

مدار أيام . . سيحكون لجميع معارفهم ما حدث، بتفاصيل أكثر ومأساوية متزايدة.

يقبل سافاتسكى على نفسه قتل بشر مثل هؤلاء بهزة كتف . . لا يعرفهم ولا يأخذون حيزًا من تفكيره . . يحارب، فى الواقع من أجلهم حتى لو كانوا فى عينيه لا يستحقون . . لماذا إذن يقوم بهذا العمل؟

تطرق مدام صمدى الباب: «يزور الشيخ البصال مؤتمرًا فى جدة . . لن تتمكن من رؤيته قبل يوم الخميس المقبل» . . «هذا سيئ، على أى حال شكرًا، فى أى ساعة؟» . . «بين الثالثة والرابعة والنصف» . . «هل لديك أى فكرة لهدية؟» . . «لدينا الكتاب المصور لكاتدرائية كولونيا وإصدار الفاكسيميل لإنجيل جوتنبرج وبورسلان مايسن» . . «لا أريد شيئًا من المخزن، شيء أقل رسمية وشخصى» . . «لا أعرف سيادتك بالقدر الكافى ولا . .»، «حسن، سوف أجد شيئًا».

لا يتوهم سيزمار أن سافاتسكى سيتأثر بتعليقات منسوبة إلى الإمام الأكبر أو بخبر لقاء سيزمار معه . . لا يعرف تحديدًا فائدة هذه المقابلة؛ نقض للموقف الإسلاموى، بواسطة عالم دين فى منصب عالٍ؟ فهم الأصول الفكرية للإرهاب، رؤى للتعايش السلمى للثقافات؟ أم أنه يبحث عن مشورة شخصية حول كيفية التعامل مع سافاتسكى . . ربما تلك رواسب لثقة قديمة فى سلطة أصحاب القامة الدينية، تمامًا مثلما كان فى صباه يرجو البركة لقريته وبيته وأسرته من زيارة الأسقف لهم؛ حينها لم يكن لأى

مَصَــاب أن يهز من عقيدته . . فى الغالب بدأ شَطَحُ سافاتسكى أيضًا بهــذا الفكر البرىء . . عــادة تختفى هذه المشــاعر الدينية فى فترة المراهقة . . لا أحد فى محيط معارف ســيزمار ينتظر شيئًا من الله أو ممن يمثلونه، بعضهم يذهب أحيانًا إلى الكنيسة، الآخرون لا . . لا يخطر ببال أحدهم أن يغامر بحياته من أجل سلطة أعلى فكيف له أن يضــحى بحياة آخرين . . لذلك يريد أن يعرف ماهية هذا الدين الذى يحول شــبابًا ذكيًا لقتلة يدعون لأنفســهم القداســة . . يريد أن يعرف لماذا يومئ مواطنون أفاضــل بالموافقة عندما يسمعون عن هجمات؟ أو فقط الأســباب التى تدفع برجال ناضجين إلى الركوع خمســ مرات يوميًــا والبكاء عند ســماع ترتيل القــرآن؟ يريد أن يعرف ذلك لنفسه وليس من أجل وزارة الخارجية .

فى أى حال سيجد سافاتسكى؟ تستخدم الشرطة المصرية وسائل مختلفة للإرغام على الحديث؛ تهديدات، ضرب، تعرض مستمر للضــوء، الحرمان من النوم، صدمات كهربائية . . إن وجد آثارًا للتعذيب ســيعترض بشــكل رسمى بصفته ســفيرًا لجمهورية ألمانيا الاتحادية، ويطالب بالامتناع مســتقبلًا عن أى شــكل من أشــكال ممارســة العنف ضــد المواطن الألمانى يوخن عبد الله سافاتسكى؛ شــريطة ألا تصــدر وزارة الخارجيــة تعليمات أخــرى أو تطلب بالإشارة إلى مصالح أمنية عدم التدخل .

ســيرغب المصــريون فى إعدام سافاتســكى . . يقع فى نطاق مســئوليته منع ذلك ســواء تعاطف معه أو كرهه . . يتســاءل كيف يبدأ الحديث مع سافاتسكى ويخشى ألا يصيب الأسلوب المناسب . . مهم لنهاية هذه القصــة أن يكســب ثقة سافاتســكى . . ربما سيحكى

أكثر مما ورد فى الملفات أو محاضر التحقيقات المحجوبة . . إذا فشل فى اختراق صمت سافاتسكى لا يرى فرصة لتحقيق تسليمه، وستبقى الأسئلة التى تؤرقه بلا إجابة.

يجب أن يحضر للإمام الأكبر علبة من معجون اللوز الشهير لمدينة لوبيك . . مذاقه قريب من الحلويات المصرية ولكنه أيضًا مختلف تمامًا.

السبت عبارة عن اجتماعات ومحادثات واتصالات هاتفية. . فى الوقت المتبقى يحاول سيزمار جمع أكبر قدر ممكن من المعلومات حول تطور الإسلام السياسى واشتعال العنف . . توجد كتب فى المكتبة حول هذا الموضوع باللغات الألمانية والفرنسية والإنجليزية والعربية . . يسأل الدكتور (لودرز) عما يجب أن يقرءه أولًا ويضيق بأن مستواه فى اللغة العربية غير كاف لقراءة كتب علمية . . حتى أعمال المنظرين للإرهاب وعلى رأسهم سيد قطب لم تُتَرْجَمْ إلى الإنجليزية أو الفرنسية . . لا توجد إصدارات على الأقل . . يتصفح قرآنًا بلغتين ليشعر بشىء من إبهار الكتاب ولكنه لا يشعر بشىء . . إنه مشوش مثل كل مرة يقوم فيها بهذه المحاولة، فى غمرة الأحداث تتصل إينس، دائمًا فى توقيت غير مناسب وتريد أن تعرف إذا كانت ستتناول العشاء بمفردها؟ ماذا عن زيارة الأوبرا غدًا؟ هل تتخلص من التذاكر أم تهديها لأحد؟ يقول: «لا أعرف»، لا يهتم بالأمر . . يلاحظ عندما يشعل سيجارة أن هناك واحدة مشتعلة فى الطفاية أوشكت على الانتهاء وأخرى غير مشتعلة إلى جانب لوحة مفاتيح الحاسوب الآلى . . يحاول أن ينظم مسألة معجون اللوز كما لو كان بلا عمل . . يريد أن يقوم

أخوه كريستيان بالأمر . . فى وقت لاحق ينسحب إلى شقته، ينام على الفراش ويحملق فى السقف . . يتساءل إذا كان صوت الكحت الخافت هو لأفكاره وهى تتصادم داخل رأسه؛ أم أنها منبعثة من المروحة . . عندما يسود الهدوء مدينة القاهرة يضطرب العقل لدرجة أنه يخترع أصواتًا . . يشعر برغبة فى السباحة، يود لو كان هناك بحر . . قد تستغرق الرحلة ساعات . . يفكر فى الاتصال بصديقه يسرى، العضو فى نادى سبورتنج والذى قد يدعوه إلى هناك بالتأكيد . . حمام السباحة كاف لإرخاء توتره العضلى . . تنتهى المسألة لأن لباس الاستحمام فى المنزل . . سيقضى الليلة فى السفارة . . سيتعلل أمام إينس باتصالات مهمة ينتظرها . . ولكنها لا تأتى . . بدلًا من ذلك يجرى اتصالًا هاتفيًا مطولًا مع (فرانسواز ديتريو)، الملحقة الثقافية الفرنسية . . يعرفها منذ أعوام كثيرة حيث عَملَا أثناءها فى الوقت نفسه فى طوكيو . . حينها لم يكن قد ارتبط بإينس بعد . . لا تمتلك فرانسواز رجاحة العقل والصوت الرخيم فقط . . يشرب الاثنان النبيذ الأحمر ويقرعان الكأسين عبر الهاتف . . عندما ينهى المكالمة فى الساعة الثانية صباحًا يشعر بأن حاله يكاد يكون جيدًا.

يقضى سيزمار يوم الأحد فى دراسة الملفات . . يفقد الرغبة فى الاستمرار مع بداية فترة الظهيرة . . يمكنه قراءة آلاف الصفحات وستظل معلوماته غير كافية . . بينما يجهز الحقيبة التى سيأخذها لزيارة سافاتسكى يرن الهاتف . . إنه الدكتور توفيق . . يريد التأكيد على الميعاد . . لسيزمار رد فعل رسمى بداية . . فى الواقع هناك احترام متبادل بينهما . . لقد قضيا وقتًا كافيًا فى العمل

الدبلوماسى ليدركا أن الفاولات جزء من اللعبة . . يبدأ الدكتور توفيق بالعبارات المعتادة قبل أن يدخل فى الموضوع: «أرجو أن تتفهم الأمر . . أقوم بما فى وسعى . . ولكنك تعرف موقف وزير الداخلية وأسبابه لذلك؛ الهجوم الذى تعرض له لم يمر عليه سوى ثلاثة أشهر»، يقول سيزمار: «يحدد الوضع القانونى الاطلاع على الملفات من قبل السفارة . . سوف أتحدث معه يوم الثلاثاء بصفة شخصية فى الأمر»، لا يجيب الدكتور توفيق فى هذا الشأن؛ بل يستفيض فى الحديث عن إصرار الحكومة المصرية على مكافحة الإرهاب . . فى رأيه هناك سوء تقدير لخطورة انتقال العنف إلى الغرب فى أوروبا وأمريكا . . يصف سيناريو الرعب عن قنابل فى نيويورك وباريس ولندن أو برلين إذا ما فشل اقتلاع جذور السوء . . يجب من أجل ذلك سلك سبل غير مألوفة واتخاذ إجراءات محل خلاف . . يوافقه سيزمار فى الرأى ويذكر أيضًا استثناءات . . يؤكد على الاستعداد الجوهرى لجمهورية ألمانيا الاتحادية لمساندة القاهرة فى مكافحتها للتطرف؛ ويشير إلى تعزيز التعاون فى الفترة الأخيرة ويؤكد التعاون الأفضل بين أجهزة المخابرات، ولكن لدى الحكومة الألمانية قناعة أنه لا سبيل للدفاع عن الحرية والديمقراطية بمصداقية إلا فى ظل الحفاظ على حق سلامة البدن دون مساس به وحق المُدّعَى عليه فى محاكمة عادلة . . لا يذكر اسم سافاتسكى إلا نادرًا . . ما زال الوقت مبكرًا للتحدث عن حلول محددة . . أصبحت نبرة الحديث أكثر إلزامًا . . كلاهما يعرف حدود صلاحيات الآخر، يجعلهما هذا أكثر تساهلًا . . تنتهى المحادثة بالذوقيات المعهودة وتحيات إلى الزوجة.

يهز سيزمار رأسه وهو يضع السماعة ويفكر: 'الدبلوماسية مثل لعبة اجتماعية من القرن الثامن عشر .. يمكن أن تكون الأمور أكثر بساطة' ، يضع بقية الأوراق فى الحقيبة وأخيرًا المصحف دون أن يعرف غرض استخدامه بعد .

الساعة الثالثة والنصف .. لو عاد إلى المنزل الآن هناك وقت ليذهب مع إينس إلى الأوبرا (ريجوليتو) .. لا يحسب (فردى) ضمن ملحنيه المفضلين .. يمكنه بدلًا من ذلك دعوة فرنسواز إلى الطعام .. تعرف كثيرًا عن الوجوه المختلفة للإسلام .. سيكون حديث عمل وأفضل إعداد لمقابلته مع سافاتسكى .. على الرغم من ذلك يأتى قراره فى صالح إينس حتى لا تتعقد الأمور دون داعٍ .. لو قابل فرنسواز وأبلغ إينس بالحقيقة ستصاب بالغيرة .. لو كَذب عليها ستشعر بذلك وتتهمه دون أى دليل .. حلول وسط بدل من أغنية مفضلة .. يقوم بالاتصال .. لإينس رد فعل بارد .. بدلًا من أن تفرح تتهمه أنه أجَّل قراره دون داعٍ وأن الوقت ضيق وأنها تكره العجلة .. لا يدافع عن نفسه .. فى وقت لاحق تنتقد العرض المتخلف قائلة: «هذا مسرح الخمسينيات باللغة العربية .. غاية فى السوء» .. «لماذا لم تغلقى عينيك؟ المطربون كان مستواهم جيدًا» .. «أتقصد لماذا لم أنم على عكس ما فعلت أنت؟».

الليلة مليئة بالأصوات والأسرار .. تنتهى بالنسبة لسيزمار فى السادسة .. يتناول الفطور بمفرده، يقرأ ويفكر، تتبع عيناه دوائر الدخان فوق الطفاية .. ابتداءً من التاسعة ينظر بمعدل كل دقيقة إلى الساعة .. يدق شعبان بمرح الباب فى الساعة التاسعة واثنتى

عشــرة دقيقة . . يأمل سـيزمار فى أن يوفر عليه ثرثرته وهم فى الطريق، ولكن شــمس الصـبـاح تَشـرق بين مآذن المدينة القديمة بجمال إلهى يصعب معه الصمت . . يحاول سيزمار أن يركز بينما تمر من جانبه قصــص عن شوارع ومبانٍ، عن فراعنة وسلاطين وملوك . . يفخر شـعبان ببلده . . ولكنه يُخجل فى الوقت نفسه من القذارة وكسـل الناس والرئيس والحكومة والاقتصاد الذى تديره أسـرة كبيرة والفسـاد، كل هذا لا يمنعه من حل مشكلاته بمساعدة الأقارب والهدايا والمجاملات.

يأخـذ الطريـق وقتًـا طويلًا . . يمـرون على أحيـاء لم يزرها سيزمار من قبل . . منذ توليه منصبه لم يدخل ألمانى سجنًا مصريًا حصينًا . . هيئة المبانى - يمين وشمال الطريق الواسع والمرصوف حديثًا - تزداد فقرًا . . ينام المعز داخل هياكل سيارات، تتصارع نصـف دسـتة من القطط الهزيلة علـى مخلفات طعـام . . تتحول المنازل إلى أكواخ والأكواخ إلى خيام، تم تجميعها من عوارض خشبية ومواسير وأغطية وملاءات وبلاستيك . لا شك أن من بناها كان فى ذهنه تصميم الخيام التقليدية المصنوعة من قماش اللباد . . بعض الجمال المتبقية من قطعان كانت لآلاف السـنين هى أسـاس التجـارة . . أقيمت على أطراف المدينة علـى منحدر جبلى منطقة سكن لبدو لا يعرفون إلى أين يذهبون . . يرى شعبان كيف يقطب سـيزمار جبينه، ويتحدث كما لو كان وزير الإسكان المسئول عن برامج للتأهيل ومشروعات للتوطين تحاول بها الحكومة إدماج بدو اقْتُلِعُوا من جذورهم فى مصـر المعاصـرة . . رأى سيزمار نتائج تجارب مشـابهة أجريـت على هنودٍ فى منخفضـات فى كولومبيا؛

فشل وانسحاب . . ذُكِر كتعليل أن الهياكل القبلية واحتساء الخمور تحــولا دون تطبيق نظم مدنيــةَ . . اختفت الموارد بـأى حال فى قنوات مجهولة . . يبدو شعبان أكثر راحة بعدما اختفى ما تبقى من حياة بشــرية . . يأتى فى الاتجاه المعاكس أسـطول من السيارات العسكرية . . يجرى هيكل دراجة بخارية بطقطقة هربًا من الدخان الذى يصــدر عنه . . لا تعليق على الأمرين . . لا تؤكد الصــحراء علــى نجاحــات ولا هزائم، لا شــىء يحتاج إلى تفسـير . . يحيط بالرؤية إطارٌ وينقســم المشهد إلى نصــفين: لون رملى فاتح بأسفل ولون أزرق زاهٍ بأعلى . . ينفصــل الجزء الأسـفل بخط مسـتقيم يتضاءل كلما اقترب من الأفق . . تتضح الآن فى نهاية الخط معالم عماد أفقى بلون رمادى ترتفع فوقه مربعات وأبراج تعلوها أعمدة بأجهزة اسـتقبال وإرسال وأطباق أقمار صــناعية . . العماد سور محصن بأسلاك شائكة فضية طويلة تنعكس عليها أشعة الشمس . . لو لم يكن زجاج السـيارة ملونًا لأذهب الضوءُ الأبصار . . ثُبِّتَتْ على الأبراج كشافات وتجهيزات لإطلاق النار . . أجزاء أجساد علوية لكائنات شــبه بشــرية بلون أســود داخل ممرات لسور الحصن . . يتحركون ببطء مثل عرائــس يحركها لاعب خفى . . وقفت خلف الأســوار الإلكتــرونيــة والقضــبان الحديدية الخالية من الأسـلاك الشائكة؛ مركبات مدرعة فى مواقعها مجهزة بروبوتات . . تتوقف السـيارة المرسـيدس أمام الحاجز . . ينتظــر الدكتور توفيق على الجانب الآخر . . يتحدث إلى جنود الحراســة . . يظهر ســيزمار بطاقته الدبلوماسية وأوراق شعبان على الشباك . . يتبادل الضابط المسـئول الحديث عبر اللا سلكى مع رؤسائه فى الداخل . . يتخلل العبارات هسـيس وطقطقــة للجهاز . . بعد فترة يومئ برأســه . .

يرتفع الحاجز . . تبقى مسافة مئتى متر حتى البوابة الفعلية . . يسبق الدكتور توفيق بسيارته، يمشون فى ممر اصطفت على جانبيه مركبات مشاة قتالية . . تصوب مدافع آلية فى اتجاهات مختلفة، ينظر (سيزمار) إلى داخل فوهة مظلمة . . أخيرًا يتم فتح حائط من صلب سمكه عدة سنتيمترات.

الساحة الداخلية مغطاة بالكامل بالخرسانة . . هنا أيضًا التفت الأسلاك الشائكة على كل شىء، حتى على النخل الصغير الذى لا يعرف أحد سبب وجوده . . يحدد مسلحون لشعبان مكانًا يوقف فيه السيارة . . عند نزوله يضرب القيظ والضوء رأس سيزمار، يشعر لوهلة بأن قدميه لا يقويان على حمله . . سيترك انطباعًا خاطئًا لو استند على السيارة . . يحاول أن يسترجع فى ذهنه حقيقة أنه أعلى ممثل لجمهورية ألمانيا الاتحادية فى مصر.

يرحب الدكتور توفيق به بشبه حماس . . يشير إلى المأمور ليقترب ويتعارفا . . قبضة يد المأمور قوية، لا تعبر عيناه عن شىء يمكن استنباطه . . يقودهما إلى ممر مؤمن إلكترونيًا، يدخل شفرة رقمية . . أومض ضوء أخضر صغير بينما يفتح باب بطنين . . لا يتفوه أحد بكلمة . . يشير المأمور بذراعه إلى اليمين . . حوائط الممر ليست مطلية ولا مدهونة . . انطبعت على الخرسانة العارية تجزيعات لألواح خشبية؛ تجمدت خطوط سائلة فتحولت إلى حواف حادة - كما لو أخذَتْ بصمة لسطح الماء ونشرت إلى أجزاء . . تبدو الأبواب الحديدية على عكسها فى نقاء تام . . يعطى ضوء النيون لبشرة المصرى الداكنة لمحة خضراء؛ بينما يبدو سيزمار أكثر شحوبًا . . يعتقد أنه يشعر بعداوة مكتومة . .

من وجهة نظر المأمور؛ فإن كل زيارة تزعجه أيًا كان المبرر .. وفقًا لتعليمات وزارة الداخلية لن يتم تفتيشه ذاتيًا .. ليس متاحًا، على أى حال، جهاز للكشف عن المعلومات السرية المختبئة فى الرأس .. يعد سيزمار عنصر مخاطرة وعائقًا محتملاً فى عملية البحث عن الحقيقة .. ربما يمنح سافاتسكى أملاً .. الأمل يزيد من صعوبة كسر الإرادة .. قد تقضى على مجهود دام لأيام .. يجاهد سيزمار شعوره بالاشمئزاز .. السقف منخفض جدًا مقارنة بكم الحديث المكتوم، إنه يضغط على الصمت .. صدى صوت لخطوات ثابتة كما لو كان آتيًا من فيلم سينمائى .. يندم سيزمار علـى قراره بعدم اصطحاب أحد رؤساء الأقسام معه كما هو معتاد .. كانا الآن سيشكلان كتفًا إلى كتف خط دفاع .. ينتهى الممر عند بوابة تأمين أخرى بداخلها نافذة بها قضبان، على اليسار حجرة زجاجية صغيرة داخلها لوحة أزرار وجهاز للمحادثة .. يتوقفون .. يمسح سيزمار العرق عن جبينه .. اتخذ من خلفهم جنود ملثمون مواقعهم، أسلحتهم الآلية جاهزة للاستخدام .. لا شعور ولا خاطر حتى يخشخش المأمور بسلسلة مفاتيحه .. يفكر سيزمار "نتعرف على أشخاص ذوى أهمية من كثرة المفاتيح، ولكن المهمين حقًا لا يملكون إلا مفتاحًا واحدًا" .. يُفْتَح باب لغرفة لا يزينها إلا العلم المصرى عند الحائط الرأسى والصورة الإجبارية للرئيس، هذه المرة ببدلة عسكرية .. مائدة بقرص أسود وأرجل بطلاء من الكروم، معها أربعة كراسٍ من النوع نفسه .. يقول الدكتور توفيق: «قد يستغرق الأمر عدة دقائق» .. يضع سيزمار حقيبة المستندات ويحرك مفاتيح القفل .. يقفز الغطاء لأعلى .. يأخذ ملفًا ليكون هناك شيء بيده، يتصفح واقفًا .. يقال إنه يستطيع

التحدث هنا مع سافاتسكى دون إزعاج وفى سريةٍ . . يسأل نفسه: أين وضعت الميكروفونات والكاميرات؟ . . أُغْلِقَ باب على الممر . . يمتزج مع الصوت العميق لنعل أحذية خشخشة معدنية . . يأتى اثنان ملثمان برجل هزيل لون شعره أشقر داكن إلى داخل الغرفة . . قيود على الأيدى والأرجل تجعل حركته حادة . . يتبعهم مراقب بزى مدنى يقوم بفتح القيود .

يحاول سيزمار أن يكوّن صورة وأن يظهر على الرغم من ذلك غير متحيز ، يفكر: يجب أن يتحدث ، إنها مسألة وقت . . قضى الرجل الثمانية أيام الماضية فى حبس انفرادى . . تعرض فى الغالب لشتى أنواع التعذيب ، لم يحقق أيًا من أهداف الهجمة التى كان من المفترض أن تصل بحياته إلى الكمال . . لا يمكن أن يرضى بمجرد تدوين بعض الخطابات على حوائط زنزانته . . إذا كانت لديه قناعة سيخبرنى بها . . أنا اتصاله الوحيد بالعالم الخارجى .

– «صباح الخير سيد سافاتسكى ، اسمى سيزمار ، أنا سفيرك»

يظل أى حوار مفتوحًا ، لا يمكن التكهن بخط سيره أو نهايته .

– «سفيرى أنا؟» .

– «سفير جمهورية ألمانيا الاتحادية» .

– «هنيئًا لك .»

بداية هذا الحوار ليست مبشرة .

ثم نظر سافاتسكى إلى سيزمار بشكل مباشر ، إنها النظرة الثانية لهذا اليوم التى لم تنبئ عن شــىء ، عيون ســيزمار تتفحصـــه إذ لا تظهر عليه أى إصـــابات بالغة سوى بعض الكدمات وتورم بسيط فى وجهه ، ويبدو أن رفع ذراعه اليســرى يسبب له ألمًا ، بعد ذلك يغادر الدكتور توفيق والمأمور وحارسه الغرفة .

قال سيزمار : «تفضل بالجلوس» .

جلس سافاتسكى بحرص مترفقًا بأجزاء محددة من عضلاته . . يظل على مسافة من ظهر المقعد ، فيما يبدو بسبب الكدمات .

أخذت أوراق المســتندات التى فى يدى ســيزمار تحف؛ وبدت عليه حالة من التركيز والاندهاش أيضًــا من الصــوت العالى الذى يصــدر عن تقليب الأوراق ، بينما يدا سافاتسكى هادئة . . ما زالت محتفظة بأظافرها .

«ســيد سافاتســكى ، أنت متهم من قِبَل النائب العام العســكرى المصــرى بالاشــتراك فى الهجوم الإرهابى على مدينة الأقصـــر الذى تم إجهاضه منذ ثمانية أيام» .

هز سافاتسكى رأسه وابتسم بتكبر وثقة قائلًا: «أعلم ذلك .»

وَضُحَ من ابتسامة سافاتسكى أنه فقد نابه الأيسر .

«هل تريد التعليق على ذلك؟ بالطبع كل ما ســوف تقوله سيظل سرًا بيننا ولن يستخدم ضدك أمام المحكمة» .

هز سافاتسكى كتفيه محركًا فمه بألم .

«هل تم تعذيبك؟».

«لا أريد الخوض فى هذا الأمر».

تحدث بلكنة خفيفة مثل الذين عاشوا خارج بلادهم لفترة طويلة.. أمسك سيزمار بورقة دوّن عليها بعض النقاط والأسئلة.. ما أراد أن يعرفه حقًا لم يكن مكتوبًا.. لا يمكن أن تعبر عنه أى كلمات: «من تحدث معك حتى الآن؟».

«لم يعرِّفونى بأنفسهم».

قالها بلكنة ما بين العربية والإنجليزية، أجبر سيزمار نفسه على تجاهل نبرة السخرية قائلا: «هل كنت على اتصال بمسجونين آخرين؟».

«لا».

«يهمنا أن نعرف ما الأقوال التى أدليت بها حتى الآن».

«الاسم وتاريخ الميلاد والجنسية، كلها أمور كانوا يعرفونها سابقًا».

«أعنى فيما يتعلق بالقضية».

«وماذا يمكننى أن أقول فى هذا الشأن؟».

«أتمنى أن تفهم دورى بشكل صحيح، أنا كسفير موجود هنا لأساعدك».

رد بابتسامة ساخرة: «ليس أمراً لطيفًا بالنسبة لك».

«إن لم تكن راغبًا فى قضاء ما تبقى من عمرك داخل السجون المصرية فأنت بحاجة إلى مساعدة، فحكم الإعدام أيضًا».

«أنا لا أخشى شيئا».

«ربما، ولكن ..».

«سوف نموت جميعا».

«هذا يعنى تحديدًا فى مصر ... سوف تُشنق يا سيد سافاتسكى! حبل المشنقة ليس دعابة».

«لا أهتم بالدعابات».

ارتعش سيزمار من كثرة التوتر وضغط على الورقة التى فى يده حتى انقطعت:

«أيًا كان، سوف نحاول إقناع الجهات المصرية بتسليمك لألمانيا، هناك سوف تحصل على محاكمة طبيعية أمام قاضٍ مستقل».

«وماذا عساى أن أفعل فى ألمانيا؟ أتجول مع المجرمين داخل الساحات الخضراء فى السجون، وأقوم بطى الأكياس الورقية وأمارس الرياضة من حين لآخر؟».

«هنا سوف يكون الأمر أسوأ بكثير».

«هنا أعلم الهدف».

هدل سيزمار كتفيه .. ففى واقع الأمر لم يكن يتوقع قبل مجيئه أنه سوف يجد سافاتسكى يندب حظه ويتوسل إليه لإنقاذه من الجحيم، أو أنه سوف يستسلم من هول آلامه وخوفه من الموت معترفًا بالتهم المنسوبة إليه ونادمًا عليها سواء قام بها أم لا .. بل كان ذلك بمثابة أمنية ورغبة .. وهاجسه الخفى .. قام هنا بتغيير الموضوع: «وفقًا لمعلوماتنا؛ فإن والدتك السيدة جابرييلا سافاتسكى محل سكنها..».

«ليس لأمى دخل بهذا الموضوع».

«هذا أمر غاية فى الصعوبة .. النائب العام الألمانى فتح تحقيقًا ضدك .. وبالتأكيد سوف يتم استدعاء والدتك فى هذا الإطار».

«ليس لأمى أى علاقة بالعملية وهى لا تعلم شيئًا عن الوحدة التى أنتمى إليها .. ليس لديها أى معلومات عن تلك الموضوعات».

«إذن أنت لا تنفى اشتراكك فى عملية إرهابية؟».

«أنفى أنها عملية إرهابية بمفهومك أنت».

«ماذا إذن؟».

«عملية عسكرية وفشلت ... للأسف ... فى الظروف الحالية ليس أمامنا خيار سوى الكفاح المسلح ... كفاحنا عادل، فنحن ندافع عن دار الإسلام .. الله يطالبنا بذلك ما دام الكفار يحكمون بلدنا .. لذلك سيحالفنا التوفيق فى النهاية .. إن شاء الله».

يعرف سيزمار ذلك النوع من العبارات . . ففى السبعينيات شاعت عبارات مشابهة فى أوروبا . . مع فارق واحد: لم يكن لله دور فى ذلك . . الثورة حلت مكانه، يتساءل سيزمار إذا ما كان هذا فرقًا جوهريًا أم هو مجرد قناع آخر؟ على أى حال كانت النتيجة واحدة؛ لا يمكن مواجهة الممارسات الاستبدادية للدولة إلا بالعنف. . بدأت طلقات الرصاص الأولى تقاطع النقاشات والمظاهرات . . تلتها عمليات اختطاف وقصف بالقنابل . . كان موت الأبرياء هو ثمن مقبول دفعه . . فعصابة (بادر –ماينهوف) أصرت على أن تطلق على نفسها جماعة الجيش الأحمر لتتميز عن باقى المجرمين المعتادين . . أرادت اعترافاتهم الخطية أن تهز كيان الجماهير . . ولكن الجماهير لم ترغب فى الثورة بل فى حياة هادئة . . أصيب سيزمار بخيبة أمل مريرة . . يتذكر بعد ذلك خوفه حينما احتُلَت سفارة ألمانيا فى ستوكهولم عام 1975 . . تزامن الحدث مع بداية عمله فى وزارة الخارجية الألمانية . . فى تلك الأثناء كان الجيل الثالث يمارس القتل . . فى مارس قامت فصيلة (كاتارينا هامرشميت) بهجوم على سجن مدينة (فايتر شتادت)، فى يونيو تم القبض على (بيرجيت هوجيفيلد) ومات (جرامز) بعد أن أطلق النار على ضابط من الوحدة الخاصة لمكافحة الإرهاب التابعة للشرطة الألمانية . . لم تعد تصريحاتهم تثير الجدال . . تحول السابقون لعصرهم إلى ماض بلا عودة . . لم ينجح إغراؤهم بتحويلهم إلى شاهد ملك فى إخراجهم من مخابئهم . . باستثناء هؤلاء الذين اختفوا فيما بعد باعتبارهم مواطنين اشتراكيين فى جمهورية ألمانيا الديمقراطية . . وعلى الرغم من ذلك:

«إن أدليت باعتراف مفصل وتعاونت مع جهات التحقيق».

«وبِمَ عساى أن أعترف؟ أننى أؤمن بالله وأنفذ كلامه؟».

«ليس الله أساسًا لأى عمل سياسى، وبالتأكيد ليس مبررًا لارتكاب جريمة ... لأعيد عليك الأمر بكل وضوح وصراحة؛ أنت مهدد بحكم الإعدام».

«لا أفكر فى هذه الأمور ... اتُخِذَت القرارات منذ زمن بعيد .. الحرب دائرة بين المؤمنين والكفار وفى الحرب تصدر الأوامر لك ... يجب تنفيذها ... لا مجال لأسئلة تدور حول وجود الله من عدمه والحياة بعد الموت ... فنحن أقدامنا ثابتة فى الدين ونهب حياتنا دون مشاعر».

بدا سافاتسكى واضحًا بشكل غريب .. فهو يظهر قوة لا تقهر .. تَخَوّفَ سيزمار للحظة أنه يملكها بالفعل ولا يفتعلها: «أنت متهم بالتخطيط لهجوم إرهابى والمشاركة فى تنفيذه، أنت متهم بقتل عساكر».

«ومن يهتم بهؤلاء العساكر؟ إنهم قتلة مأجورون من حكومة كافرة».

هذا ما قاله نصًا.

«وكنت تنوى قتل الأبرياء».

«هل تريد إحصاء عدد الجثث؟ الضحايا المدنيون للعمليات العسكرية التى قام بها الغرب ضد المسئولين عن وحداتنا؟ لن

يكون ذلك فى مصلحتكم».

«لا يوجد ما يبرر قتل إنسان».

«وهل أبلغت الرئيس بذلك؟ هل فعلت؟»، احمرّ وجه سيزمار.. «إذن، ماذا قال؟ إنه سوف يكون لطيفا ومطيعًا للأوامر؟ بالطبع أنت لم تقل شيئًا.. بل قمت بدورك بمنتهى الأدب.. مسحت جوخه لأنه يجب عليك أن تسليه.. فأنتم بحاجة إليه.. (مبارك) هو الشريك الوحيد فى المنطقة الذى يمكن الاعتماد عليه.. إذن فليس ذو أهمية كم عدد الناس الذين يختفون ويُعَذَّبون ويُقتَلون لأنهم يدافعون عن الإسلام والله.. أنت تدعم إرهاب الدولة المصرية بمجرد وجودك هنا والتزامك الصمت».

تحجر وجه سيزمار.. ما قاله سافاتسكى عن الحكومة ليس عاريًا تمامًا من الصحة.. ولكن الخبرة تقول إن الإحساس بالتفوق على الآخرين لن يحقق شيئًا.. فالسياسة الدولية لها قواعد أخرى.. أساسها أولًا أن يظل الحوار قائمًا.. أهداف متنوعة يجب أن توضع فى الاعتبار، اقتصادية وسياسية وعسكرية وإنسانية.. المكاسب لا تتحقق إلا على مراحل.. حتى الأنظمة الدكتاتورية يجب أن تظل شريكة فى الحوار قدر الإمكان.. مع الأخذ فى الاعتبار أن الرئيس المصرى ليس من عينة الحكام التى تخجل من مصافحتها؛ وذلك على الرغم من بعض مطالبه التى أثارت جدالًا: «أتفق معك فى نقطة واحدة؛ للأسف فى مناطق كثيرة ليس العالم كما ينبغى أن يكون.. للأسف.. ولكن هناك إنجازات كثيرة».

«تقصد أن الإمبريالية الأمريكية أوشكت على الانتصار

الحاسم؟ يجب أن تبدو الأمور لك على هذا النحو . . فالشيوعية أعلنت عن إفلاسها . . تم تدمير الجيش العراقي . . البترول أصبح تحت سيطرة الغرب و ذلك الخنزير (فهد) الذى نصّب نفسه خادمًا للحرمين الشريفين يركع أمام أى رئيس أمريكى أيًا كان اسمه (بوش) أو (كلينتون)؛ فهو يتقدم بالشكر على احتلال بلاده ويعقد صفقات مع الغزاة . . بدلًا من أن يدعم الدول الأفقر فى دار الإسلام . . وفى هذه الأثناء تأتى شركاتكم تحت ستار إعادة البناء . . صفقات كبرى ، أليس كذلك؟ فالحرب هى برنامج ازدهار اقتصادى فعال للدول المنتصرة . . قطاع البناء يتعافى من تلقاء نفسه وشركات التسليح لديها قوائم طلبيات طويلة . . كل ما تم تدميره يباع مجددًا للخاسرين وبالطبع بشروط خاصة . . كم أنتم أهل كرم . . لا تعرفون إلى أين تذهبون بكرمكم؛ مصر تحصل على تعويضات سخية لتواجه خسائر السياحة المترتبة على الحرب ، وتُهَادُون الرئيس عرفانًا له بحمولات سفن بدبابات وصواريخ».

يسرح سيزمار بأفكاره . . ذلك البلد جميل . . يمكن أن يكون مكانًا للسعادة . . النيل . . الصحراء . . البحر . . هدوء وضوضاء فى آن واحد . . زوجته إينس ، دون إينس . . .

«أعلم أنك لا تريد سماع ذلك».

يفكر الكثير من العرب بهذه الطريقة حتى الوسطيون منهم . . تعميمات وأنصاف حقائق تُتَداول على طاولات المقاهى: «حركتكم تتلقى حاليًا طعنة تليها الأخرى . . فكثير من أصدقائك ماتوا أو

سجنوا . . تعلن يوميًا الجهات الأمنية عن اعتقالات جديدة».

«يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: الإيمان نصفٌ صبر ونصفٌ شكر . . فلقد احتجنا فى أفغانستان إلى عشر سنوات حتى تمكنَّا من هزيمة الجيش الأحمر الذى زعم أنه لا يقهر ، ولم يكن ذلك على أيدى وحدات خاصة بل رجال بسطاء لم يدرسوا بأكاديميات عسكرية ولم يملكوا إلا أسلحة محدودة . . ما كانوا يعلمون كيف لهم محاربة عدو خارق القوة . . لكن كانوا يدركون هدفهم . . لن يكون فرسان الحروب الصليبية أفضل حالًا من الروس . . إن شاء الله سوف ينسحبون بمهانة».

تمتم سيزمار قائلا: «غسيل مخ».

«ليست لديكم فرصة؛ لأن الشجاعة والاستعداد للتضحية ليسا للبيع . . . يجب أن يترعرعا فى القلب ، ولكن هناك خواء فى داخلك . . . أنت تهدر طاقتك من أجل أن تجد شيئًا يملأ هذا الفراغ . . . مادة بديلة لها تأثير سحرى ، جنة من البلاستيك ، ألف طريقة للَهو والنسيان».

ينظر سيزمار إلى ساعته: «لدى كل شخص فى ظل الديمقراطية التى تكرهها- حرية اختيار طريق مختلف ، لك أن ترفض وتعتزل . . لك أن تحاول إقناع الآخرين بفكرك . . السباق ليس مقتصرًا على المنتجات فقط ، ولكنه أيضًا متاح للأفكار . . ما دامت الغالبية لديها تصور مختلف عن أسلوب حياتها».

«هل من حق الكاذب أن يستمر فى كذبه ما دام المكذوب عليهم

يصــدقونه؟ فى نظــام مبنى بالكامل علــى الأوهام تصــبح الحقيقة عاجــلا أو آجلًا غير مرئية . . هذه مســألة تتعلق ببراعة صــانعى الأوهام . . قد لا يعنينا الأمر لو أنكم كففتم عن السيطرة على العالم من أجل الحفاظ على ماكينة الخداع».

«لا أحد يمنعك من قول ذلك بشــكل صــريح . . . لا فى أمريكا ولا فــى ألمانيا . . هناك حرية للرأى إنها من أكبر إنجازات الثقافة الغربيــة . . . لقد اســتغرق التخلص مــن التمييز الدينى واســتبداد الحكم خمسمئة عام».

«أســاطير . . يخترع كل مجتمع أساطير خاصة به ليوجد لنفسه مبــررات . . ليــس لهــا أى علاقة بالحقائــق التاريخيــة . . بداية برومولوســ ورموســ حتى الثورة الفرنســية . . بدأت بضــرب بين جموع من البشــر وانتهت بمذبحة . . كانت الحرية والمساواة والإخــوة مجــرد حجج . . فــى واقع الأمــر كانت المســألة تتعلق باستبدال سلطة النبلاء بسلطة أصحاب المصانع والبنوك . . جاءت الجمــوع الجائعة فى الوقت المناســب؛ أغبيــاء ذوو فائدة . . كان لنزع الســلطة عن الكنيســة الغرض نفســه؛ كان يجــب إبعاد إدانة القانــون الإلهى عن طمع الرأســمالية المبكرة المحتقرة للبشــر . . أنــت تتهم الأديان بالتمييز؛ لأن إعلان أن الله هو الحق وأن العالم لا يكون إلا به؛ يعترض طريق الرأســمالية إلى السلطة المطلقة . . شــعاره يقول: "لقد مات الله، والإنسان هو الحيوان الذى سيحقق الأرباح"، ما دام هناك شــخص واحد فقط على هذا الكوكب يعلن عن شيء آخر؛ فإن الخطر قائم بأن تتعرى الأكذوبة».

يفكر سيزمار: «إنه يقوم بدور النبى».

«حينما يقدم شخص على قول الحقيقة؛ لا يكون جزاؤه إلا تكميم فمه، تأتى قوات الأمن فى الحال للتعامل معه، يقبضـــون من باب الاحتياط على أى شخص ربما قد سمع ما قيل . . . هكذا الحال فى مصر . . . أما الغرب فقد تخلص من الإخضاع منذ زمن بعيد. . . ليســ من الضـــرورى حتى إجبار الناس على شـــىء. . . "هنا تجد كل الأطياف والاختيار صـــعب" . . لا توجد أيديولوجية تملك كل وسائل الســـلطة مثل الرأســـمالية، عسكريًا واقتصـــاديًا وإعلاميًا، مقارنة بجهاز إعلامكم باتت وزارة (جوبلز) مجرد جمعية للمنادين فى السوق».

يقذف سافاتســكى بعبارات خاويـــة . . لا يمتنع عن الحديث . . هذا يفوق توقعات سيزمار . . سيبنى جسرًا إليه: «أفهم ما تريد أن تقوله . . أعرف هذه الحُجج أكثر مما تتصور . . لقد بدأت دراستى فـــى عام 1967 فى هامبورج . . كانت حركة الطلاب فى مراحلها المكثفة . . غالبًا لا تعرف إلا قليلًا عن هذه الفترة».

«أعرف ما يكفى لأحكم بأنك . . . ».

«كان تفكيرنا أيضًا متطرفًا . . . أردنا بداية جديدة ونهاية لنظم الحكم الســـلطوية، مجتمع حر وتوزيـــع عادل للممتلكات . . . كان رد فعل الدولة فى منتهى الصـــرامة كثيرًا بشـــكل مُبَالَغ فيه، أحيانًا حتى بعنف يتنافى مع القانون . . . شعرنا بقلة الحيلة . . . فى وقت ما بدأنا مناقشـــة خيار العنف . . . هل تبرر الســـلطة المفرطة لدولة اللا قانون اســـتخدام العنف؟ ألا تجبرنا على ذلـــك؟ أين يبدأ العنف

وفى أى شكل يمكن السماح به؟ حصار؟ احتلال؟ تخريب؟ عنف ضد أشياء؟ وافقت الأغلبية . . ولكن ماذا عن العنف ضد أشخاص؟ هل هو مسموح به؟ إذا كانت الإجابة نعم؛ فضد أى أشخاص؟ ضد الحكام؟ أم ببساطة ضد من لا يمارس المقاومة؟ ماذا عن الأغلبية الصامتة، السابحين مع التيار؟ هل مسموح بقبول موت شخص، ولنقل سائق، لو كان الهدف هو أحد رءوس الصناعة؟».

«أنت تخلط بين . . .».

«اسمعنى! توصلت فى ذلك الحين إلى أن العنف ليس سبيلًا . . السبب لا يكمن فى الجبن، ولكن لأن الظلم لا ينتهى بظلم جديد؛ بل على العكس».

«لا يوجد عنصر مشترك بيننا وبين حركة عام 68. . تصوراتكم كانت مادية تمامًا مثل تصورات الدولة . . لقد طرحتم بعض التساؤلات الصائبة ولكن إجاباتكم كانت غبية وخاطئة. . كانت مجرد مسألة توزيع مختلف للسلطة والأملاك . . لم يخطر ببالكم أكثر من ذلك . . ولكن قلب الإنسان لا يجد سلامه فى السلطة والأملاك . . أما نحن فنعلم أن السلطة لله وحده . . التزامنا له وحده . . نريد أن نحيا كما أمرنا الله؛ لأن هذا هو الأفضل للإنسان . . أنتم تحاولون أن تثيروا البلبلة فيما بيننا بنشر الكحوليات والمخدرات والإباحية . . صناعة التسلية التى تقومون عليها تريد أن تسكرنا حتى ننسى الحقيقة ونخدم فى منظومتكم لاستعباد الأرواح . . والآن قم بترديد عبارتك المفضلة: 'أنتم أحرار . . إن كنتم لا تريدون فلا إجبار' . . أسألك :كم يستغرق

من الوقت حتى يحقن مدمن نفسه بجرعة وضعتها له على المائدة؟ كم يستغرق من الوقت حتى يشترى مسجون داخل بيت دعارة عاهرة؟ هل سيوافق شخص يكره لعبة الحظ أن يقيم أغرابٌ كازينو داخل أرضه؟ نطلب فقط أن تبتعدوا عنّا بقاذوراتكم» . .

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ۝٦﴾

«ما هذا النص؟» .

«إنه القرآن الكريم . . . الحمد لله» .

«مثير للاهتمام» .

«هل قرأت القرآن؟» .

«ألقيت نظرة عليه» .

«باللغة العربية؟» .

«معرفتى باللغة العربية محدودة» .

«تعمل فى بلد إسلامى ولا تعرف شيئًا عن الناس هنا» .

«قطعًا أهتم بالدين ، أيضًا بالإسلام . . أفكر كثيرًا بأننى يجب أن أتعمق بشكل أكبر . . على الأقل من أجل فهم الثقافات المختلفة بصورة أفضل ، . . ولكننى مقتنع بأنه اليوم ليس أساسًا للعمل السياسى . . نحن بحاجة إلى فكر مستنير وتسامح وانفتاح لحل المشكلات المعقدة التى تواجه عالمًا منصهرًا» .

«الدين كهواية . . . طبعًا . . . بعد انتهاء يوم عمل، عندما لا يذيع التلفاز شيئًا يستحق المشاهدة أو ليست لديك رغبة فى استكمال نموذج القطار المصغر، حينئذ تجلس على مقعدك براحة وكأس النبيذ فى يدك وتقول لنفسك: اليوم سأشغل نفسى بالله، سيسعد بذلك».

يضحك سافاتسكى بصوت عالٍ . . يشعر سيزمار بمهانة . . لقد حاول أن يبدى له تَفَهُّمَه وقوبلَ بالسخرية: «أتقصد أن ربك سيعجب أكثر بناس مثلك يقتلون الأبرياء بشكل عشوائى، نساء وأطفالاً؟».

«ليس لديك أى فكرة عن معنى الجهاد فى سبيل الله».

«بالتأكيد ستفسره لى».

«ليست للموت أهمية لدى المجاهد فى سبيل الله . . . لا موته ولا موت أى شخص آخر . . . إن ساعة كل بنى آدم مكتوبة من قبل ميلاده . . . ما أهمية أن تموت وأنت فى الثلاثين أو التسعين؟ تريد أن تعيش أطول فترة ممكنة دون أن تعرف الهدف . . أنت مثل اليربوع على العجلة . . تركض وتركض حتى تجوع أو تصاب بالإرهاق . . ينتهى عالمك عند قضبان القفص الذى بنيته لنفسك . . تتوقع أن هناك شيئًا خلفه، ربما حتى تراه ولكن خوفك أكبر؛ من يضمن أن هناك طعامًا وحطب قطن وألعابًا مرحة . . محتمل أن يتربص بك الأعداء . . لذلك سيكون يومك المقبل مثل الذى انقضى: العمل لساعات، ضغوط أوقات الفراغ، أكل، نوم . . تُهَدِر أيامك دون أن تعرف لماذا وُهِبَت لك».

يفكر سيزمار فى إينس . . فى مللها وخوفها: «لا أحد يريد أن يموت، . . هذا قانون الطبيعة».

﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝١٦ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۝١٧﴾

«ما هذا؟».

«سكينة».

إنها تملأ المكان . . عند هذا الحد من المفترض أن ينتهى الحوار . . ينظر سافاتسكى إليه، مرة أخرى هذه النظرة الغريبة، لا تنم عن تحدٍ ولا حياء . . يتحاشى سيزمار النظر إليه . . هناك شىء ما بداخله يُكِنُّ له الغيرة، يغير من صبره الظاهرى وعزمه الجنونى . . يؤمن سافاتسكى بإله واحد موجود بالفعل، ليس مجرد مساحة لانعكاس أفكار قد تفيد فى الأوقات العصيبة . . لا يكتفى بعبادة هذا الإله . . يتصور أنه يملك نموذجًا يحُتذى به فى جميع مجالات الحياة ولما تبقى من العمر.

ينظر سيزمار مجددًا إلى ساعته . . بَقِى بضع دقائق . . لم يتقدم سير الحديث به خطوة إلى الأمام، بل على العكس؛ لقد خاض مناقشة فقد السيطرة عليها . . أراد هذا النقاش . . ولكن لديه أيضًا طموحه باعتباره سفيرًا، هو بحاجة إلى رد اعتبار متمثلًا فى إخراج الرجل من هنا، هو بحاجة إلى تقدير وكيل الوزارة والوزير: «ربما ترى أن الإسلام هو الحل . . ولكن هذا لن يفيدك الآن . . ماذا تعتقد سيكون مصيرك؟».

«ما زلت أفكر . . أحتاج من أجل ذلك وقتًا . . وقت بدون آلام . . ويجب أن أنام».

«ليس لدينا وقت . . تعمل المحاكم العسكرية بشكل سريع ، وموقفك معدوم الأمل ما دمت لا تتعاون» .

«أنا بخير . . بصرف النظر عن بعض الأمور البسيطة» .

«لا أصدق ذلك» .

«صدِّق ما شئت وافعل ما تراه صائبًا» .

يسمعان في الوقت نفسه خطوات في الممر . . يصمت سافاتسكي . . يفكر سيزمار إذا ما قيل شيء ربما يضر بموقف سافاتسكي ، هل هناك ما هو أسوأ؟ ينظر الرئيس من على الحائط الرئيسي بصرامة . . يعرف سيزمار أنه قادر على الضحك . . هو شخص لطيف في اللقاءات الشخصية . . في الغالب لا يفضل التوقيع على أحكام إعدام . . ولكن بالتأكيد يود التخلص من سافاتسكي اليوم قبل الغد . . يفتح الباب . . تطل ابتسامة الدكتور توفيق بين بندقيتين: «لقد انقضى نصف الساعة» .

يومئ المأمور إلى الحارس . . يخشخش الحارس بقيود اليد . . يقف سافاتسكي ويمد إليه ذراعيه ، ينظر إلى سيزمار بينما تُغْلَق الأقفال: «كم منَّا نجا من الموت؟» .

«للأسف لا يمكنني إخبارك» .

«هل ستأتي مرة أخرى؟» .

«هذا واجبي» .

ســـرى خاص - محظور التـــداول ولا يتم الاطــلاع عليه إلا بمعرفة المختص

عاجل جدًا

من القاهرة

24 نوفمبر1993 ، الســاعة الواحدة وست وعشرون دقيقة بعد الظهر حسب التوقيت المحلى.

موجه إلى: وزارة الخارجية، قسم301.

موجه أيضًــا إلى: رئيس ديوان المستشــارية الألمانية، وزارة الداخلية.

رقم الملف:716 الشئون القانونية والقنصلية.

حرر من قبل: سيزمار.

بخصــوص: حوار الســفير ونائبه مع وزير الداخلية المصرى حول تحقيقات النائب العام العســكرى فى شــأن المواطن الألمانى يوخن عبد الله سافاتسكى.

يتعلــق الموضــوع هنــا بتأكيد وزيــر الداخلية المصــرى على قرار النائب العام العســكرى فى الاســتمرار بعدم السماح للسفارة بالاطلاع على مستندات القضية المذكورة أعلاه .

ورُفِضَ أيضا مطلب السفير بحق توكيل محامى لــسافاتسكى.

-للاطلاع-

الفقرة الأولى

ملخص

أكد وزير الداخلية المصرى حسن الألفى على قرار النائب العام العسكرى عمرو الباهى بعدم السماح للسفارة بالاطلاع على مستندات قضية سافاتسكى لحين إشعار آخر . . كما تم مجددًا رفض مطالبة السفير بتوكيل محامٍ بشكل فورى ويُحَدَّدُ من قبل السفارة ليقوم بدعم سافاتسكي.

تم التأكيد على حق السفير فى زيارة المواطن الألمانى فى محبسه مستقبلًا وذلك بالتنسيق مع وزارة الداخلية المصرية . . وإذا تطلب الأمر يشمل هذا أيضًا حق اصطحاب أعضاء آخرين من السفارة.

-الفقرة الثانية-

التفاصيل:

أولًا: أكد وزير الداخلية المصرى حسن الألفى فى حوار شخصى مع السفير ونائبه اليوم، الموافق 24 نوفمبر 1993، فى الساعة العاشرة والنصف صباحًا حسب التوقيت المحلى، على رفض طلب السفارة بالاطلاع على مستندات القضية الخاصة بالمواطن الألمانى يوخن عبد الله سافاتسكى والذى أُلْقِى القبض عليه يوم 14 نوفمبر 1993، بمعرفة النائب العام العسكرى عمرو

الباهى . . رد وزير الداخلية إشارة السفير إلى الاتفاقيات الدولية والثنائية بين البلدين؛ مستندًا إلى حالة الطوارئ القائمة داخل مصر منذ اثنى عشر عامًا.

ثانيًا: كما تم مجددًا رفض طلب السفير بالسماح لمحامٍ محل ثقة يوخن عبد الله سافاتسكى بالتواصل معه وبشكل فورى وذلك بتنسيق مع السفارة . . وبرر وزير الداخلية هذا القرار بأنه إجراء استثنائى يقره القانون الاستثنائى لمكافحة الإرهاب المطبق فى قضية سافاتسكى . . والذى يقنن تمامًا الحياد عن إجراءات قانون العقوبات النظامى من قبل جهات التحقيق ما دام الأمر يتعلق بالتحقيق فى جرائم إرهابية . . ولكن أكد وزير الداخلية أن رئيس مجلس المحاكم العسكرية فى القاهرة سيكلف فى الوقت المناسب محاميًا بتمثيل سافاتسكى.

ثالثًا: تمت تلبية طلب السفير بزيارة المواطن الألمانى المحبوس دون أى عوائق أو قيود . . كما صرح أيضًا لأعضاء السفارة بالتواصل مع سافاتسكى وذلك بتنسيق مسبق مع وزارة الداخلية المصرية من خلال ممثلها الدكتور أحمد توفيق . . يشمل هذا التصريح أيضًا التابعين للأجهزة الاستخبارية . . وأشار السفير فى هذا السياق إلى أن أى معلومات يتوصل إليها المكتب الاتحادى لحماية الدستور أو وكالة الاستخبارات الاتحادية لا يمكن تداولها مع الأجهزة المصرية إلا بعد الرجوع إلى المنسق التابع لجهاز المخابرات أو الهيئة الرقابية للمجلس النيابى الألمانى.

رابعًا: حسب تصور وزير الداخلية؛ لا يوجد شك سواء فى

عضوية سافاتسكى فى منظمة إرهابية إسلاموية أو فى مشاركته فى هجوم يوم 14 نوفمبر 1993 . . تعد ملابسات القبض عليه من وجهة نظره واضحة . . توافرت حسب قوله الشهادة الكاملة للشاهد الملك وأيضًا التقارير المفصلة لموظفى جهاز المخابرات الذين كانوا يراقبون تلك المجموعة منذ فترة طويلة . . علاوة على ذلك تم إثبات وجود سافاتسكى فى الفترة من 13 مارس 1993 إلى 30 يونيو 1993 فى مركز تدريب إسلاموى بالسودان . . كما أدلى سافاتسكى باعترافات أخرى . . ولكنه ما زال يرفض التعاون مع أجهزة الأمن.

خامسًا: أكد وزير الداخلية المصرى دعمه لقرار حكومته بعرض قضية سافاتسكى أمام محكمة عسكرية . . أى معاملة استثنائية للمواطن الألمانى فى الوقت الراهن غير وارد بالمرة؛ حيث إن مصر مرغمة على التعامل بكل حزم مع تلك المجموعات، خاصة بعد التصعيد القائم فى الاثنى عشر شهرًا الماضية من قبل الإرهاب الإسلاموى . . وعلى الرغم من ذلك وضحت فى تعليقات جانبية لوزير الداخلية أنه توجد مساحة ما للتفاوض.

سادسًا: سوف يقوم السفير بلقاء يوخن عبد الله سافاتسكى بمفرده مرة أخرى خلال الميعاد المتوقع يوم السبت 27 نوفمبر 1993، حيث إنه مقتنع بأن سافاتسكى وضع قدرًا ما من الثقة فى شخص السفير أثناء لقائهما الأول، وأظهر استعداده للتعاون وإن كان فى حدود . . فوجود أعضاء آخرين من السفارة أثناء اللقاء قد يشكل تهديدًا على هذا الاستعداد .

سابعًا: نرجو السفارة ذكر خدمات مقابلة لجمهورية ألمانيا الاتحادية يمكن عرضها على الحكومة المصرية فى حال استعدادها التنازل عن إصدار وتنفيذ حكم الإعدام فى حق المواطن الألمانى أو الموافقة على طلب الحكومة الاتحادية بتسليمه .. كما نرجو أيضًا ذكر وسائل للضغط لتحريك الحكومة المصرية إلى السماح للسفارة بالاطلاع على المستندات وكذلك الموافقة على تعيين محامٍ لسافاتسكى.

-الفقرة الثالثة-

التقييم:

وفقًا لتطور الحوار الذى جرى مع وزير الداخلية المصرى حسن الألفى فى أجواء تسودها الموضوعية، وحسب تقييم السفارة ليس من المتوقع تجاوب وزارة الداخلية المصرية دون ممارسة ضغط ملموس وتقديم خدمات مقابلة من قبل ألمانيا .. الواقع العملى للمحاكم العسكرية المصرية فى الماضى القريب يجعل تطبيق مبادئ دولة القانون ضد المواطن الألمانى أمرًا مستبعدًا .. حصل المحامون الذين تم اختيارهم من قبل الدولة فى محاكمات جنائية مماثلة على إجمالى مستندات تحقيق تقرب من ثلاثة آلاف صفحة؛ وذلك قبل بدء جلسات المحاكمة بأيام قليلة، مما لا يمكن تصنيفه على أنه فرصة دفاع حقيقية .. وإن وصل الأمر إلى المحاكمة العسكرية فى قضية سافاتسكى وكما هو مرجح من قبل وزير الداخلية المصرى يجب توقع حكمًا بالإعدام .. تم فى مصر الحكم على سبعة وثلاثين إرهابيًا بالإعدام شنقًا منذ بداية هذا العام، أدين بعضهم بنقاط إدانة لا ترقى إلى مستوى الدليل القوى .. كما أن الاستئناف ضد قرارات المحاكم العسكرية غير متاح .. قام

الرئيس مبارك بالتوقيع على جميع أحكام الإعدام الصادرة حتى الآن، كما تم إعدام اثنى عشر فردًا هذا العام .. وحسب التقييم المحلى من غير المتوقع أن تحيد أجهزة مكافحة الإجرام المصرية فى قضية سافاتسكى عن توجهها الحازم غير المشروط ضد المتطرفين الإسلامويين .. يعد إذن الهدف الرئيسى لمجهودات السفارة والحكومة الاتحادية هو التوصل إلى تسليم سافاتسكى ومحاكمته فى ألمانيا .. وهذا الطلب لا بد من اتخاذ السرعة فى تقديمه؛ حيث إن الوقت ما بين عملية القبض على مشتبه فيه إرهابيًا وإصدار الحكم عليه أصبح الآن أسابيع قليلة.

-الفقرة الرابعة-

الرأى الشخصى:

أعتقد أنه يجب على الحكومة الاتحادية فى أسوأ الظروف أن تكون على استعداد لتقديم تنازلات مؤلمة لمصر لتنجح فى تسلم يوخن عبد الله سافاتسكى .. تجاوبه غير المشروط مع أهداف الإرهاب الإسلاموى الذى تلازمه قدرة عالية على التأمل يمكن أن يعطيا لهيئات مكافحة الإجرام الألمانية رؤية قيمة عن الأسس الفكرية للحركة الإسلاموية .. من الممكن أن تكون هذه المعلومات على المدى الطويل أيضًا ذات قيمة للوقاية من الضربات، وكذلك توافر معلومات محددة حول الهيكل التنظيمى وأماكن الالتقاء وخطط وأهداف للمتطرفين فى ألمانيا.

كلاوس سيزمار (السفير)

سـيتحدث غدًا إلى الإمام الأكبر . . بالفعل وصـلت اليوم علبة من معجون اللوز الشـهير لمدينة لوبيك . . وصل معها ملف حماية الدستور الخاص بسافاتسكى.

يهز سـيزمار رأسـه . . لا يسـتطيع فهم الأمـر . . وقعت فى الغالب أخطاء فادحة فى المكتب الاتحادى فى كولونيا . . لقد مرت عشـرة أيام على اعتقال سافاتسـكى . . ومرت مدة مماثلة ليلاحظ أحد ما أن هناك ملفًا لشـخص بالاسـم نفسـه فى المكتب الاتحادى لحماية الدسـتور . . يذكر اسمه بشـكل منتظم على مدار شهور فى تقارير حول مسجد ابن تيمية فى فرانكفورت . . يلتقى هناك طلاب عرب ومن شـمال إفريقيـا ذوى خلفية أصـولية . . كما يدعى أن سافاتسـكى كان على علاقة وثيقة بشـابة من أصل مصرى . . يُعد مصـدر هذه المعلومات موظفًا بشركة مصر للطيران؛ يعمل مدير مكتـب فى مطار فرانكفورت. ذُكِرَ اسـم سافاتسـكى آخر مرة فى نهاية شـهر فبراير: «بات عبد الله مُدافعًا متحمسًا للجهاد . . يطالب بأقصى استعداد للتضـحية ويتحدث عن ذهابه إلى مصر للانضمام إلى الكفاح المسـلح» . . يبدو أنه لا أحد تولى الأمر . . تم تصنيف سافاتسكى على أنه مجنون مسكين وانتهت المسألة . . ثم اختفى بعد ذلك ولم يتم البحث فى هذا الشأن . . شىء لا يتصوره عقل. . وما يطرح لغزًا أيضًا أن المخابرات المصرية لم تبلغ وكالة المخابرات الاتحاديـة بمعلومـات مزعومـة عن بقاء سافاتسـكى فى معسـكر سـودانى . . لا يصـدق سـيزمار أنه تم حجب المعلومات بشـكل متعمـد . . من كان سيسـتفيد مـن ذلك؟ يغلق بـاب المنزل ويقطع عليه تخمينات بأن إرهابيًا ألمانيًا مُهَددًا بحكم الإعدام يقوم للحكومة المصرية بـ . . .

تصـيح إينس: «هل وصلت؟»، تضـع الأكياس من يدها، تأتى إلى حجرة المعيشـة، تسـقط على الكرسـى الثانى وتتنهد . . كان يومها مرهِقًا، أيًا كان مضـمون ذلك؛ اصـطحبتها سـيارة بسـائق إلى صـديقة هنا أو هناك، قامت على طريق العودة بشراء حلويات مصـرية مـع تعرض حياتهـا للخطر وحصـرت أعداد السـيدات المحجبات، لم تذهب إلى مصـفف الشـعر . . جلسـت صـامتة . . صـمتها مؤقت . . هدفه إضفاء المأساوية على ما هو قادم . . يطفئ سيزمار سـيجارته . . يشعر بخواء ويريد أن يشرب شيئًا . . شىء مثلج وكحولى . . ولكن قبل أى شىء يريد لنفسه هدوءًا . . من أجل ذلك لن يخبرها بميعاد لقاء وزير الداخلية: «هل لدينا ماء تونيك فى الثلاجة؟» . . «لا»، ينهض ويخلط لنفسه الويسكى مع الصودا . . تبدأ إينس بشـكوى بسـيطة من القيظ والعـوادم والزحام . . عليه أن يلحـظ أنها منهكـة . . لقد اسـتغرق الطريق مـن الزمالك إلى هنا سـاعة ونصف السـاعة . . يومئ برأسـه . . لو لم تكن تجلس فى عربة السـفارة لوقفت فى لجنتين للمـرور . . الجيش والرقابة فى كل مكان . . بدلًا من الإشـارة إلى ضـغوطه المتزايدة يقول: «أفهمك»، ولكن هذا غير كاف . . تضـع إينـس وجهها بين كفيها وتشـعث شـعرها، ترفع نظرها مرة أخرى، تضـيع نظرة عينيها فى مجال غيـر مرئى . . يفكر: لفتات مسـرحية، كان يجب عليها أن تصـبح ممثلة مسـرح وليس متخصصـة فى علوم المسرح . . «يجب أن تتغير الأمور . . لم أعد قادرة على ذلك . . أعصابى لا تتحمل» . . لا يعبأ سـيزمار بالنظر إليها بل ينظر إلى شاشـة التلفاز المغلق . . إنها تعكس تحركات فمها وأصـابعها المتشابكة بتشنج . . تأتـى كل مسـاء بحل جديـد . . قررت اليـوم أن يتولـى الدكتور

(فريبة) نائب سيزمار – مسئولية قضية سافاتسكى . . يقول: «هذا ليس متاحًا وأنت تعلمين ذلك» . . «ولكننى لا أتقبل الأمر! يأخذ هذا الوغد المجنون أكثر مما يستحق، أما أنا، أما نحن فيجب أن نلتزم بواجب المهنة» . . لا فائدة من أن يدافع عن نفسه . . «سيضعونك على قائمة الاغتيال وأنا معك»، يهز سيزمار كتفيه: «الواقع أننى هنا ممثل لحكومة غربية»، تأخذ إينس نفسًا عميقًا: «هل تريد أن أقول لك من أنت؟ أنت شخص أنانى»، لم يعد يطيق سماع هذه الكلمة . . لو تلفظت بها مرة أخرى، سيكون له رد فعل مناسب . . لا يعرف بعد ماذا سيكون تحديدًا. قالت له فرنسواز مؤخرًا إنه رومانسى ميئوس منه . . كانت تقصدها كمجاملة . . . على الأقل نصف الجملة . . ينصت إلى صدى صوت لكنتها الناعمة . . يتحول حديث إينس إلى صوت حفيف فى الخلفية، قد لا يُسْمَعُ . . يتقلص وجهه، يتجشأ الويسكى.

من الصعب أن تشرح أسباب شرود الذهن المفاجئ وعدم رؤية السيدة التى تعيش معها . . ربما الأفكار مجرد حجة . . على أى حال لا يمكن إخفاء الأمر أكثر من ذلك . . يغلف إحساس مزعج الحياة المشتركة . . يكمن داخله توتر . . يتجلى فى ثورات غضب من دون مناسبة . . تنخفض مقاومة الرغبة فى إهانة الآخر . . يتحول العراك إلى صراخ حتى يترك أحد الطرفين الغرفة . . فى وقت ما لا يترك الغرفة فقط بل المنزل مع علمه أنه يرتكب خطأ . . لا يمكن إصلاحه مرة أخرى . . هكذا تنتهى قصص الحب . . ولكنهما لم يصلا إلى هذه المرحلة بعد . . يقترب سيزمار من إينس ويضع يده على ذراعها . . لا ترده: «هل تريدين بعض

النبيــذ؟» . . «نعم» . . . «أحمر أو أبيض؟» . . «أبيض»، تنبعث رائحــة الثوم البارد عندما يفتح باب الثلاجــة . . لقد قامت عزيزة بعمل باذنجان محشــو . . يضع المكسرات فى صحن، يضعه على المنضدة ويعطيها كأســها: «يحيط موظفو حماية الحدود الاتحادية المنزل على مدار الســاعة، وتقف خلف الســور ســيارة للشــرطة المصرية» . . «أنت لم تفهمنى» . . «أنا أبذل مجهودًا لأفهمك» . . «يبدو أننى لا أراه» . . لن يُسْــتَفَزَ لقول شىء وضيع: «سافاتسكى مواطن ألمانى مهدد بحكم الإعدام» . . «وهل هذا ذنبى؟».

تفقد الظلال معالمها فى الحديقة . . يتحول النخل وشجر السنط إلى أشــباح . . تحولت الســاعة الزرقاء إلى اللــون الرمادى ولا تســتغرق ســوى عشــر دقائق . . يعانى من الحموضــة: «لا أهتم بمســألة الذنــب» . . يبدو على شــفاه إينس الضــجر: «يبدو أنك لا تهتم بى أيضًا» . . يزوغ ببصره وينهض، ويضــىء المصباح . . تعكــس الزخرفة المفرغة للغطاء المصــنوع من النحاس الأصــفر أشــكالًا هندســية من نور على الحوائط . . شكل مضــفر قام بأسر النجوم داخله.

لا تفهم إينس لماذا لا يتركه سافاتســكى حتى بعد ســاعات العمل وخــارج إطار الواجب المهنى . . لماذا يســتمع إلــى عباراته بدلًا من أن يصــرخ؟ لماذا يجب أن يتحدث إلــى الإمام الأكبر؟ ولماذا يقرأ القرآن مؤخرًا على الرغم من كل المقاومة التى يحظى بها؟ لم يحكِ لها عن محاولته استرجاع ألفاظ الصلاة الربانية . . ليس من أجلِ رغبته فى الصــلاة . . بل محاولة للعثور على ذكرى شــعور دينــى . . تأتى معه ذكرى ما تلى ذلك وهو فى الســابعة عشــرة،

وكان يخفيه عن أبويه: «دمروا ما قام بتدميركم» . . تدور هذه العبارة فى رأسه مثل أغنية قديمة شهيرة – لن تفهم إينس أنه يستطيع الحديث مع فرنسواز عن الأمر ولكن ليس معها . . أسئلته لا تزعجها أبدًا، لا تعرف الشرخ الذى يشتته بل الأقواس التى تساعده فى التماسك.

تصغره إينس بثمانى سنوات ونصف السنة . . رأت صورًا له وهو طالب . . كان وقتها له شعر طويل وسوالف، نظارة داكنة وبنطال جينز باهت. عبست بوجهها وتحدثت عن أخطاء الأزياء فى بداية السبعينيات . . ما كان ليخطر ببالها أن المسألة ليست بهذه السطحية، بل هى تعبير عن أسلوب حياة . . تعطى إينس اعتبارًا كبيرًا للمظهر الخارجى، لها شخصيًا وكذلك للآخرين . . قد تقترب من حدود الذوق البرجوازى ولكن يجب ألا تتخطاه . . يجب أن تتصف الملابس والأكسسوارات بالتميز ولكن ألا تكون مبالغًا فيها . . فى الأغلب ستنفى ببساطة ما قد يتضمنه ذلك من مدلول سياسى.

بعد صور الدراسة وجدت صورًا لحفل تخرجه فى مارس 1975؛ يمسك بكأس خمر فى يده، البدلة الداكنة مضبوطة ورابطة العنق لها أناقة خاصة . . قالت: «يبدو هذا أفضل بكثير» . . غضب من ابتسامتها المتعالية . . لم يقل شيئًا، أغلق الصندوق وأعاده إلى الخزانة.

كان قبل الامتحانات بشهور قليلة يتدرب فى مكتب محاماة كبير فى هامبورج، ويصارع نفسه من أجل الذهاب إلى جنازة (هولجر

ماين) . . بعد تردد دام طويلًا انتهى إلى قرار سلبى . . أولًا: لأن اشـتراكه كان ربما سيتسـبب فى مشكلات بالمكتب، ولكن قبل كل شـىء حتى لا يخاطـر بتعرض تقدمه للعمل فـى وزارة الخارجية للخطر . . تعلل بسـبب واهٍ وسـافر فى اليوم السـابق للجنازة إلى والديـه فى الريف . . كانت هنـاك دائمًا أمور يجب أن يتولاها . . فى الواقع كان هروبًا . . هرب من المعركة الكبيرة من أجل الثورة إلى حرب الاستنزاف الباردة داخل الأسرة . . ما كان لينتصر فى هذه الحرب أيضًـا . . حمل مشاعر الشـفقة والاحتقار لأمه الخائفة دومًا، ومشاعر الاشـمئزاز والخوف لأبيه المتسلط القامة المحلية السابقة للحزب النازى، (يوهنس إيبرهارد البارون فون سيزمار) الذى لا يسـمح بإدانته . . انتهت الأمسـية على نحـو كارثى؛ كان يفضـل أن يلقى بزجاجة البيرة على شاشـة التلفـاز عندما بدأ الأب بالصـراخ أثناء إذاعة خبر الجنازة فى نشـرة الأخبار: «عصـابة القتلى ! جرذان وذباب!»، ضـرب بقبضة يده على المنضدة، هَمّ قافزًا واستمر فى الصراخ: «اضربوهم بالمجرفة! دوسوا على تلك الحشرات!»، ولكن بدلًا من أن يلقى بالزجاجة شربها على عجالة وذهب إلـى غرفته متعللًا بعمـل يجب أن يقوم بـه . . بعد عودته إلى هامبورج أجاب عن التساؤلات حول غيابه – قبل أن يطرحها أحد – متعللًا بالعقود بالغة التعقيد التى تنظم وضـع أخيه عند تسلمه الأراضى، وتحدد صـلاحيات والديه المستقبلية وتحدد حقوقه هو وأخته فى الإرث . . كان يخجل من نفسه.

«دمروا ما قام بتدميركم» . . كانت هناك أوقات بدا له أنه لا مفر من اليأس لمن اختار طريق المعركة . . تَكَشّفَ مع نهاية الستينيات

الوجـــه الحقيقـــى للدولة؛ الوجـــه القبيح لضـــابط الوحـــدات القتالية للنازيـــة الـــذى يعمل فى خدمـــة رأس المـــال . . قوانين طوارئ، حصـــر لأعداد السكان، المنع من ممارسة وظائف بعينها . . تقذف الحكومة الأمريكية الإمبريالية زارعى الأرز فى فيتنام بالنابالم . . تم قمع إضـــرابات الطـــلاب بواســـطة وحدات شـــرطة على أعلى مســـتوى من التســـلح . . كان يعلم الجميع أن الأرفف الزاخرة فى المحال تدين بالفضل لجوع العالم الثالث، ولكن من كان يعلن ذلك يُتَّهَـــمُ بأنه حالم أو عدو للنظام الديمقراطـــى الحر . . لم يقبل الآباء تشويه ســـمعة عملية إعادة البناء والنهضـــة الاقتصادية الرائعة من قبل الأبناء الفاشلين . . لذلك قامت الحكومة بإجراء وقائى ألا وهو تحديد حـــق حرية التعبير عن الرأى؛ وفقًا لطبيعة الرأى نفســـه . . فكان هذا الحق ينطبق بلا شـــروط على إعلام (أكســـل شـــبرينجر) بما يشمل تشويه السمعة والتحريض . . تحولت زيارة الشاه القاتل مع عقيلته الإمبراطورة الرشـــيقة إلى حملـــة منظمة من قِبَل الدولة لزيادة مبيعات صـــحفهم التى تعبث بعقول الشعب . . تمت مواجهة حاســـمة لحجج الطلاب ورواد حركة اليســـار السياسية برشاشات الميـــاه المندفعـــة ومنطـــق كلاب البوليس . . مـــن كان يهرب من قبضة القوات المسماة بقوات الأمن؛ بات مجرمًا هاربًا، ومن كان يقف يُتَّهَمُ بمقاومة سلطات الدولة . . فى كلتا الحالتين الأمر كافٍ لاعتقال مؤقت وبضـــعة أيام للتحقيق . . لم تصل الأمور بسيزمار إلى هذا الحد . . لم يتحرك عندما علم بموت (بينو أونازورج) . . بدلًا من أن ينطلق إلى الشـــارع ظل جالسًا على الفراش . . لم ينتهِ غضـــبه إلى عصـــيان بل إلى لا مبالاة . . قال لنفسه: "لا يمكن فعل شىء، ولكن من لا يفعل شـــيئًا يقوم أيضًا بفعل خاطئ"، أو "يجب

إطلاق النار ولكن على مَنْ؟" لم يتعرض لإهانة بقدر كافٍ يجعله يكن كراهية شديدة، ولكن على أى حال بقدر يجعله يواجه الموت بشجاعة. . تابع تصاعد الأحداث على مسافة آمنة. . كان يشاهد تحول الضحايا لجناة والجناة لضحايا. . تصاعد متبادل لصلابة عنيدة ومقاومة صارمة . . من الصعب التفرقة بين المقدمات والنتائج . . أيقن تدريجيًا أن استقرار النظام قائم على إمكانية استبدال ممثليه . . يمكن قتل أفراد، ولكن لا يمكن تفجير الهيكل نفسه . . ما تبقى هو "المارش الطويل عبر المؤسسات" . . «تحدث» "عن استحالة أن يكون عادلًا وأن يتصرف بعدالة" وتقبل ضرورة أن يكون جزءًا من النظام لتغييره من الداخل؛ تحول من الحقيقة إلى ما هو متاح فعله . . كان القرار ضحية . . شمل وداع الأبطال والأعمال التى كان يمكن بحسمهما وقوتهما تحويل كل شىء إلى الأفضل . . البديل أن يصبح جزءًا من النظام، مع مرور السنوات وصل إلى نواة هذا النظام . . شارك فى عملية لصنع القرار هنا وهناك فى إطار معطيات محددة . . تحددت المعطيات بالأوضاع القائمة، أحيانًا هناك مجال لتقديرات شخصية. . برؤيته فى الوقت الحاضر يعتبر قناعته بتغيير المجتمع على مراحل بسيطة رؤية ساذجة؛ وتنم عن جنون عظمة تمامًا مثل حلم تدمير المجتمع بواسطة الإرهاب. . يعد الهدف الأساسى للنظام القائم هو الحفاظ على نفسه . . لقد أُخضع الفصيلان لهذا الهدف ولتكييف برامجهم عليه، مرحلة تلى الأخرى . . تم تقليص دور الزاحفين. . فى هذه الأثناء باتوا يعملون دون أى مشكلات . . يحلمون أحيانًا فى أوقات فراغهم بالأيام الماضية، ولكن يحلمون بشكل أكبر بإحالتهم

إلى التقاعد . . التقى الشتاء الماضى فى حفل استقبال وزارى فى بون زميل دراسته السابق (جرت بروكر) . . يرأس بروكر الآن شركة استثمار عقارى، وشرح له بمنتهى الجدية أنه يقود سيارة بورش؛ لأن الشركة لديها معايير صارمة فيما يتعلق بحماية البيئة. . بالإضافة إلى ذلك؛ يرى أن ظروف الإنتاج هناك تهيئ طبيعة عمل أقل اغترابًا مقارنة بالشركات المنافسة.

تتحدث كوادر من جماعة الجيش الأحمر ظلوا على قيد الحياة فى حوارات أجريت معهم عن أدوارهم التاريخية؛ بينما تصيب الدهشة مَنْ لجأ منهم سياسيًا إلى جمهورية ألمانيا الاتحادية، يضطرون الآن إلى المرور بتجربة السجن المؤجلة . . أما القلة المتبقية فأعلنت مؤخرًا عن وقف لإطلاق النار.

تتصفح إينس مجلات قديمة من مكتبة السفارة: «هل عرفت أن كاتبك المفضل قد حصل على جائزة بوشنر الأدبية؟» . . «لقد حان الوقت لذلك» . . «لا تبدو متحمسًا للخبر» . . «بلى»، يشعر بالغثيان: «هل لدينا أقراص للمعدة؟». . «ربما فى الحمام» . . ينهض ممسكًا ببطنه ويتذكر بيت شعر: «قبل أن يتوصلوا معك لاتفاق، قبل أن تنجرف وتتلقى أجرك، منتظرًا أن يصير القيء ذهبًا»، يلوح عبر النافذة إلى أفراد حماية الحدود . . هذا مثير للسخرية، . . لكنه لا يضحك بل يذهب إلى الردهة ويصعد ببطء الدرج.

تنبعث فى الدور العلوى روائح العطور والصابون من الممر. . اصْطَفَّت فى الحمام أغلى أنواع مستحضرات التجميل،

أحمر شـفاه بأربعين مارك للواحدة . . يسـتخدم بضغط من إينس لعينيه كريمًا مضـادًا للتجاعيد . . «من الأفضـل أن تشعل النار فى محل تجارى عن أن تقوم بإدارته» . . إلى جانب مجموعات عناية وأدوات تجميل أكوام من الأقراص ضد الإسهال والصداع وآلام الحيض، مراهم ضـد لدغات الحشـرات والجَزْع . . لا يجد شيئًا للمعدة . . يمر بيده على الكيمونو الحريرى لإينس فيقشعر بدنه.

كانت بمثابة صفقة صغيرة لبيع الروح، التنازل عن المتطلبات الشخصـية على أقساط . . لا دراما فاوستية بشعر أشعث ونظرات حائرة . . حل محل التوقيع المرتعش بالدم على البرشـمان إمضاء مختصـر بقلم جـاف على عقود موحـدة طبِعَـتْ بالكمبيوتر . . لا توجد وعود بمتعة أو سلطة مطلقة . . بدلًا من ذلك وعود بأوضاع منظمـة ودخل ثابت، رفيقة على مسـتوى عالٍ حسـب الرغبة . . يتضمن السعر بكل وضوح برنامج تسليةٍ شاملٌ يعوض بشكل دائم وآمن عن مظاهر النقص الطارئة.

إينس امـرأة ذكية وجميلـة . . يعتبرها معظم الناس شخصـية مريحـة . . يعتقـد أنه يرى فى الفترة الأخيـرة ملامح مرارة على وجههـا، علـى الرغم من كل منتجـات العناية . . لمـاذا؟ لم تجبر إينس على التخلى عن أى من مثالياتها . . ما زال فكرها، وهى فى العشرين، صـالحًا حتى اليوم، لا يشكل إحراجًا ولا يعد رجعيًا . . عندما تتحدث إينس عن «تخطى الحدود» أو «الراديكالية»، تقصد الفن وبالأخص المسـرح . . لم تضـطر إينس إلى الشـك بشـكل جاد فى أسـس منشـأها البرجوازى . . مع أنهـا كانت تملك مطلق الحرية لذلك . . تم التخلص من قائمة ممنوعات التفكير القديمة ولم

تــأتِ الجدِيدة بعد . . لم ترَ إينس آنذاك ضــرورة لتغيير المجتمع، تقــول:» أذكــر لى يوتوبيا واحــدة لم تنته بحمــام دم» . . رجعت حياة الجامعة إلى أوضــاعها الطبيعية أثناء فترة دراستها، لم تُجْبَرْ على توزيع منشورات أو احتلال قاعات المحاضرات، . . أتيح لها أن تنهمك فى أبحاثهــا وامتحاناتها . . تم تأجيل الثورة العالمية . . تَحول بعضــن مُرَوِّجيهَا إلى إيجاد حلول لمشــكلات جزئية: تربية الأطفــال، الطاقة الذرية، الزراعة العضــوية، نزع الســلاح . . هربوا إلــى الذاتية الملعونــة وبدءوا فى اختبارات عملية لأشــكال الحب الجديدة . . عقد آخرون جلســات تأملات روحية مع زعماء طوائف دينية هندية، وتناولوا أقراص هلوسة حتى فقدوا الوعى . . كان يمكــن أن تمر ســنوات هادئة لو لم تتخذ قلة مــن الثابتين على موقفهــم قرارًا بإزعاج الهــدوء العام بقنابــل وعمليات واختطاف واعتداء . . تفشى إرهابهم مثل السرطان فى جسد الدولة، . . بينما شــعر بعض المؤيدين تجاه أحداث القتل بسعادة فى الخفاء، تنفست جموع الجماهير المترقبة الصــعداء عندما علمت بانتحار (أولريكة ماينهوف) و(بادر) و(إنســلين) و(راســبرس) فيما بعد . . تحددت الإجابة عن الســؤال حول استخدام العنف بـ «لا»، بفضل وحشية الجيــل الثانى والثالــث لجماعة الجيشــ الأحمر مــع العبث الجلى لعملياتهــم، وذلك دون الانتهــاء الفعلى من النقاش حول الســؤال المطروح .

يقف ســيزمار حائرًا عند مدخل غرفة المعيشة، يشعل سيجارة وينظــر إلى ســاعته، الســاعة الآن الثامنة وعشــر دقائــق . . لقد أدارت إينس التلفاز: «التقى بيل كلينتون بالأمس مع سلمان رشدى

فى مكان سرى» . . «لا توجد أقراص للمعدة» . . »قلل إذن من التدخين» . . . «وما علاقة هذا بذاك» . . «منذ انشغالك بسافاتسكى هذا وأنت تدخن الضعف» . . . «هذا عبث» . . «على الأقل علبتان يوميًا» . . . تمتزج فى نظرتها إليه عدم فهم مع غضب ، «سوف أذهب إلى الصيدلية» . . . «وحدك؟» . . «بالطبع وحدى» ، أشاحت بوجهها . . . لا يقع هذا فى نطاق مسئوليته: «هل تحتاجين لشىء أشتريه لكِ؟» . . . «شكرًا» .

الجو دافئ فى الخارج . . تصبغ الكشافات الحديقة بضوء أصفر . . أسراب من الناموس والفراش . . «مساء الخير يا سيادة السفير ، هل ستخرج مرة أخرى؟» . . . «سأتمشى قليلًا» . . يحمل الرائد (ماير) بندقيته باسترخاء كما يحمل آخرون مضرب التنس . . سيبدأ فى اللحظة التالية بقص الحكايات . . تشعر مجموعة حراسة سيزمار بالملل؛ ولكنه لا يريد الآن الحديث والاستماع إلى أحد: «أتمنى لكم مساءً طيبًا» . . شعور مفاجئ بالراحة عندما أغلقت البوابة الحديدية من خلفه . . وهم الحرية . . ليس للهواء فى شارع الزُهرة طعم الخوف ، يتعجب سيزمار كل مرة من الهدوء الذى يعم الشارع عندما يترك محيط المنزل مع بداية الغروب . . كما لو كان يتمشى عند منتصف الليل فى وسط مدينة صغيرة فى غرب ألمانيا . . يستطيع أن يذهب إلى أى مكان يشاء للفترة التى يرغب فيها . . إلى الصيدلية ، إلى المقهى أو إلى النادى الليلى نصف القانونى ذى الواجهة المتلألئة الذى يرتاده أغنياء عرب الخليج ، يطلبون زجاجات من الويسكى وتباعًا الفتيات اللاتى يقمن بتقديمه ، بصفته سفيرًا لا ينصح الآخرين بهذه الزيارة على الإطلاق . . يخطو

فـوق زكائب قمامة مفتوحــة وكراتين وجذع شـجرة مقطوع . . لا تلتفـت القطط إليه . . ما زال صــبى المكوجــى وليد يعمل ، يبخ قميصًــا من فمه برذاذ من الماء؛ «مســاء الخير يا سيد كلاوس» . . وليد فى الخامســة عشــرة من عمره ويطعم نصف أسرته . . مُلقية على كرســى إلى جانب الدكان صــورة بحــوافَ ممزقة للكعبة . . يفكر سيزمار فى أسباب هذا التعامل المستهتر ، يرتَعش حينما يرى فى ظل أشــجار الدلب أمامه شــيئًا يتحرك ، ينظر فى عينين نصف مفتوحتين لكلب حالك الســواد . . تجلس امرأة لا يبدو عليها عمرها علــى بعد خطوات على الأرض . . فرشــت أمامهــا أنواعًا مختلفة من الخبز البلدى . . يشــترى ســيزمار رغيفًا بالسمسم ويأكله أثناء سيره . . يزداد الضجيج بشكل ملحوظ . . يدخل إلى شارع الهرم المضــاء بالأنوار . . تقترب السيارات من بعضها وتغير الحارات دون ســبب واضــح . . يتسـم المرور بالســيولة . . كان التحرك صعبًا فى سنوات الرواج السياحى؛ بسبب أعداد أتوبيسات السياحة الهائلــة . . لن ينزل ســائح هنا فى هذه المنطقة . . يرى ســيزمار بعيدًا الإعلانات المضــيئة للمركز التجارى الذى شُيدَ وفقًا لنموذج أمريكى ، لكنه أرخص ودون أى نوع من التأمين . . لن تصــيب قنبلة هنا أحدًا سوى أهل البلد . . تأتى مجموعات بالاتجاه المعاكس تحمل أكياسًا مليئة بالمشتريات ، تضع أربع فتيات الملابس الجديدة فوقهن ، يبتسمن فى وجهه ويتحدثن فى الوقت نفسه:

«Hello Mister!» . . «Where are you from? Welcome to Cairo! Welcome to Egypt!» . . «How do you like Egypt? Have you seen the pyramids?»

أجاب عن جميع الأسئلة . . لم يذهبوا قط إلى ألمانيا: «برلين» ، «الحائط» ، » أدولف هتلر» ، نِيّتهم ليست سيئة؛ «Here is a boring place. Why don't you go to Nile-Hilton or Sheraton-Hotel، there you will have fun» .

ينقصهم المال ، لو امتلكوه ربما ذهبوا معه . . ما يملكونه بدلًا من ذلك لا يُقدر بمالٍ ، سيتقاسمونه معه برضا ودون مقابل . . يشعر بالامتنان . . «Have a nice time» ، «السلام عليكم» . . . لا تفارقه الابتسامة حتى بعد مرور بضع دقائق ، قد تكون الأمور في منتهى البساطة . . يتخيل رجلًا مصريًا في عمره يقف عند (الهانزا رينج) في مدينة (كولونيا) .

يسود المركز التجاري زحامٌ . . تغلق المحال في وقت متأخر . . يجد أيضًا مكتب بريد . . لديه رغبة في كتابة بطاقة بريدية -لفرنسواز . . "أضاءت النجوم الليل وخطرتِ على بالي" . . كانت هذه الأعمال دون جدوى حتى وهو في السابعة عشرة . . كان يسبق لقاء الفتاة في ساحة المدرسة توقيت وصول الرسالة إلى صندوق بريدها وكان من الأسهل الاتصال بها هاتفيًا . . توجد هناك كبائن للاتصال الهاتفي . . ماذا لو رتب الآن لقاءً مع فرنسواز . . ستنزعج إينس ولكن هذا حالها دائمًا - غالبًا لن تشك في شيء . . يحدث أحيانًا أن يخرج ليشتري شيئًا ويغيب لساعات؛ لأنه سأل شخصًا عن الطريق فدعاه إلى منزله ، أو لأنه وجد نفسه في مكان ساحر أرغمه على البقاء . . رقم هاتفها موجود في حافظة نقوده والعملات المعدنية في جيب بنطاله . . كبائن الاتصال الهاتفي ليست في مصر أكثر تعقيدًا من إنجلترا . .

يتـردد . . لفرنسـواز نظرة متسـاهلة لعلاقات الرجال بالنساء . . ليسـت لديها علاقات ثابتة . . يلعب بالعملة المعدنية . . فى الأغلب لـن يكون لديها وقت . . عملة الخمسـة وعشـرين قرشًـا سـتكون كافيـة . . مـا فكرة هذا الثقب فى وسـط العملة؟ لا يسـمع صـوت العملة داخل الجهاز ولكن صـوت الخط . . فرنسـواز بالمنزل . . يقول ببسـاطة: «أود أن أراكِ» . . «الصـوت ليس واضـحًا» . . «هـل يمكنـك التحـدث بصـوت أعلـى؟» . . «أود أن أراكِ» . . «فعلًا؟ حسنًا، أين أنت؟» . . «فى شارع الهرم، عند مركز ناجية التجارى» . . «يوجد بالقرب من هناك مولد» . . لم يحضـر مولدًا مـن قبـل . . «لـمَ لا . . كم تحتاجيـن من الوقت؟» . . «نصـف ساعة» . . . «سأنتظرك عند شباك مكتب البريد» .

ليس متوترًا ولا يشـعر بالذنب أيضًـا . . لم يلتقِ بفرنسواز فى القاهرة إلا فى مناسـبات رسـمية ونصف رسـمية . . كانت إينس سـتنزعج بشكل أكبر من اتصالاتهما الليلية مقارنة بأسلوب التعامل بينهمـا فى حفـلات الاسـتقبال . . يجب أن يتصـل بإينـس ليبلغها بوجـوب عودته للمكتب مـن أجل مراجعة معلومـات متعلقة بلقاء الإمـام الأكبر غدًا، لن تشـعر بالقلق فى هذه الحالـة . . ما زالت لديه عملات كافية: «لقد خطر ببالى أننى نسيت شيئًا . . الأمر بالغ الأهميـة» . . تُحَوّل الضوضـاء الحوار بينهما إلى مهمة بسـيطة؛ لأنها تعرقله . . تجيب إينس: «حسـنًا» . . «أراكِ لاحقًا» . . . كاد ينسـى أقراص المعدة . . . ما دام سـيذهب إلى الصـيدلية يستطيع أن يشـترى محلولًا؛ لأن تأثيره أسرع . . . يدفع بسائلٍ أبيض إلى داخـل فمه . . . يسـتعرض بعد ذلـك واجهات البوتيـكات ومحال

الأحذية. . . لا يريد أن يشترى شيئًا، ولكنه يحب مشاهدة الآخرين أثناء التسوق . . . يقف بعد مرور عشرين دقيقة على نهر الطريق، ويحملق فى سيارات الأجرة التى تمر من أمامه، يمرون بسرعة فائقة تحول دون رؤية الجالسين داخلها.

تخرج فرنسواز من سيارة فيات متهالكة، تتفاوض مع السائق حتى يذكر سعرًا معقولًا . . ترتدى حجابًا وقميصًا بكم طويل مع بنطال واسع، تمد يدها إليه وتتخلى عن القبلات المعتادة على الوجنتين . . يقول: «فرنسية قديمة من جيل عام 1968 ترتدى الحجاب، هذا مثير للاهتمام» . . «كان يمكنك ترك لفظ قديمة»

«بِمَ تشعرين وأنت ترتدين الحجاب؟» . . «إنه عملى، لا أحد يتعامل معى على أننى سائحة . . ما دمت لا أفتح فمى» . . «مستحيل أن تفعل إينس شيئًا مماثلًا» . . «أتريد أن تتحدث معى عن زوجتك؟» . . «لا أحبذ ذلك» . . . «هل الأمور بهذا السوء؟»، تَنَحْنَحَ فقط . . تقول: «يجب أن نأخذ مسافة على أقدامنا» . . «عندما تقول فرنسواز «مسافة» يجب التوقع أن الأمر سيستغرق نصف ساعة، لا توجد مشكلة . . . إنه سعيد لكونه يتجول فى القاهرة معها، إنه سعيد لوجودها . . . لن تكون هناك لمسات بينهما، ما عدا صدفة وإجبارًا فى وسط الزحام قد تحدث فى مكان مختلف، يشعر بذلك، من نظراتها . . التحكم فى الصدفة، إطالتها لبرهة، تقليص مداركه فى مساحة يديه عندما يلمس أصابعها، إنها لعبة . . قبل بدايتها يجب أن يعبرا الشارع . . فرنسواز متمكنة فى التعامل مع السيارات، تصيح: «امشِ كما لو أنك لا ترى السيارات»، هذه مجرد نظرية . . ينجو دون إصابة؛ «كفاك ضحكًا»، لا يقصد أن

تعبّر نبرة حديثه عن شعور بالإهانة . . «لا أعتقد أنك ستتعلم هذا في حياتك الراهنة» ، على وجهه تعبير مثير للشفقة؛ «في الغالب لا» ، تسأل: «لماذا اتصلت بي؟» ، يجب أن يعتاد صراحتها المباشرة مرة أخرى . . تنتابه حيرة إذا ما كانت هذه الصراحة نابعة من طبيعتها أم أنها محسوبة؛ «لا أعرف لماذا ، رغبت في ذلك» . . يعرض عليها سيجارة ويشعلها لها . . تضع يدها حول يده حتى لا تنطفئ شعلة النار ، على الرغم من عدم وجود رياح . . يمشيان لمسافة في صمت . . يذوب ما تبقى من تردد . . رؤية جيدة للماضي . . لا تُطرَح أسئلة حول المستقبل . . لا يوجه أحد من المارة الحديث إليهما . . لا يتشكك أحد في انتمائهما إلى هذا المكان . . يرى الجميع حقهما في خصوصية التعامل بينهما . . لا يوجد سبب للترحيب بهما أو لصب اللعنات عليهما . . لون عينيهما بني . . غطت فرنسواز شعرها الأشقر ، وشعره هو الجاف والرمادي في أسود ، قد يكون لعربي وكذلك شاربه . . زوجان مصريان في طريقهما لتلبية دعوة . . يسأل: «لماذا يلحظ الجميع أثناء جولاتي أنني أجنبي؟» « . . ربما تتصرف بشكل مختلف» . . . «هل هذا أمر سيئ؟» . . . «بالنسبة لي لا ، يجب أن ندخل هنا إلى اليسار» .

الشارع ضيق وليس به أي إضاءة أو محال . . يبدو الطريق بلا نهاية وينتهي إلى ظلام . . «أظن أنني أعرف لماذا اتصلت بي» . . «لماذا؟» . . . «أردت أن تفعل شيئًا ممنوعًا» . . «إلى أي مدى؟» . . . «السفير المتزوج السيد كلاوس سيزمار يلتقي سرًّا مع . . . .» ، «آه فعلًا؛ كيف تصفني؟» ، يفكر وينظر إلى السماء . . لا يمكن قراءة ما هو مكتوب في النجوم؛ «لكِ حضور

لطيف؟» ، «ممتاز . . سفير جمهورية ألمانيا الاتحادية فى مصر ، السيد المتزوج كلاوس سيزمار يلتقى سرًا مع امرأة ذات حضور لطيف» . . تتردد لوهلة ثم تضحك: «فى واقع الأمر ليس هذا ممنوعًا ، فيما عدا السرية» . . «ومن أخبرك بأن إينس . . . » ، تشد بإصبعها الجفن الأسفل لعينها اليمنى ، «على أى حال نحن فى مهمة رسمية . . . نتعرف على العادات والتقاليد المحلية . . . يشكل ذلك أهمية قصوى لعملنا . . . دون معرفة دقيقة للسمات الثقافية والاجتماعية ، هل أقول لك: يا سعادة السفير؟» . . . «شكرًا ، حالى الآن أفضل بكثير» .

البيوت منخفضة ، دوران أو ثلاثة ، للنوافذ حواجب للضوء مغلقة . . بعض الشقوق تسمح بمرور شريط ضوء رفيع؛ اللون الأزرق الصناعى الذى ينبعث من التلفاز ، مثل أى مكان فى العالم . «كيف أحوال الإرهابى الخاص بك؟» . . «خاص بى أنا؟ »كان هذا هو نفس رد فعل سافاتسكى عندما قام بتعريف نفسه . «خاص بمن إذن غيرك؟» ، يحكى لها عن ملف حماية الدستور والمعلومات القَيِّمة التى يحويها ، وأنه سيستعين بها بشكل محدد ليسحب السجادة من تحت أرجله ويعترف: «سوف أراه يوم السبت مرة أخرى» . . «ها ، توصلت مع الألفى إلى شىء؟» . . . «لا شىء فعلى حتى الآن؛ ولكننى أعتقد أن هناك ما يمكن فعله لو كان العرض المقدم مناسبًا» . . «تدرك أن الألفى حصل على هذه الوظيفة لشهرته بالصرامة غير المشروطة حتى قبل تعرضه للحادث الذى كاد يودى بحياته» . . «مبارك بحاجة ماسة إلى المال . . هل ذهبت مؤخرًا إلى الأهرامات؟» . . «ما من بشر

هناك، أليس كذلك؟»... «لن تستمر الأحوال كثيرًا على هذا النحو».. «بون لن تقوم بإصلاح الميزانية المصرية من أجل مُخَرِّفك هذا»... «لم أعد متأكدًا بعد من أنه مُخَرِّف».

يزيد ازدحام الشارع.. على الرغم من آلة التنبيه تسير السيارات خطوات قليلة.. تظهر خلف أسطح المنازل قبة مضيئة تحتها أصوات لجموع من البشر يتخللها مقاطع موسيقية.. شيئًا فشيئًا تتضح النغمات والصوت المدعم للمطرب.. «إنهم يحتفلون بمولد شيخ صوفى... دعنا نذهب إلى اليمين، جميعهم يذهب إلى اليمين».

الساحة عبارة عن أرض بور مستطيلة، أرض فضاء ضخمة وسط المدينة.. يقع النصف الأمامى فى شبه ظلام.. تقف مجموعة حمير مربوطة بين شجيرات ومخلفات، مطأطأة الرأس.. لا ينمو شىء فى الجزء الخلفى، أرض مستوية، تشققت من الجفاف.. تنعقد فى بقية العام إحدى الأسواق الدائمة.. يحيطها مبانٍ بُنِيَت فى بداية القرن.. كانت منطقة للطبقة الوسطى وتنتهى الآن تدريجيًا.. نُصِبَ المسرح فى المقدمة تكسوه خيمة بيضاء مطبوع عليها إعلانات لمياه معدنية "بركة"، زينة كهربائية تستمد الكهرباء من مولدات وتلقى بضوء براق.. تقف العجلة الكبيرة مثل صورة مقصوصة أمام خلفية السماء.. يصرخ الأطفال وهم فوق الأرجوحة الدوارة، يأكلون غزل البنات ويمضغون الحلوى.. يرتدون ملابس احتفالية.. ترتدى البنات أطواقًا فوق شعرهن مرصعة بالأحجار.. ها هو كتف فرنسواز إلى جانبه، يشعر بدفئها.. يتحركان إلى الأمام فى اتجاه خشبة

المسـرح بحرص شـديد حتى لا يفقدا بعضـهما . . لا يصـح حتى للمتزوجين أن يمشـيا متشابكى الأيدى . . اتسخ بنطاله بطلاء لزج لتفاحة مغطاة بالحلوى . . لا يكلف الصـبى نفسه بنظرة حتى إليه، ولا كلمة اعتذار . . وما الذى يسـتدعى الاعتذار؟ تشـده أخته إلى كشـك يبيع حليًا وإكسسـوارات للشـعر وسط سـحابة من العطور الثقيلـة والحلويات المخبوزة . . تمتزج رائحة اللوز المحمص مع التوابل والثـوم ولحم الخروف . . محلول المعـدة له تأثير . . لا يشعر سيزمار بالغثيان . . عادة ما يكره أى تجمع بشرى . . ولكن هـذا التجمـع الحالى لا يشـكل أى خطر . . لا يخـاف على حافظة نقـوده الموجودة فى جيـب بنطاله الخلفـى دون أى حماية . ليس للضوضـاء صوت عالٍ، إنها تخضع للنغمات الأبدية للعود والناى والطبل . . "من ينصـتْ لقرع الطبول يسـمع صـوت السكون"، يـرى المطـرب أخيـرًا . . لقد أغلـق عينيه، يرتدى عمة بيضـاء وقفطانًا بنيًا واسعًا. تَمايُل جسمه يرسل موجات تصطدم بالضفيرة الشمسية . تهمس فرنسواز: «هل يعجبك؟»، يشعر بِنَفَسِها فى أذنه، يجذبها لوهلة إليه: «هكذا كانت الملاهى السنوية فى طفولتى ولكنها مختلفة فى الوقت نفسـه»، آنذاك كانت السـيدات المسنات يرتدين حجابًا، «يكره الإسـلامويون هنا تقديس الأولياء والتدين الشـعبى والموسـيقى» . . . «عمَ يغنى؟» . . . «عن الفراق واللقاء . . عن الحب والولع والخمر . . يصعب فهم كل شىء . . ولكنه حقيقى . . ليس فولكلورًا»، يرى سـيزمار أمامه الملاهـى فى جرومينس، يشـعر بطعـم الفِيشـار فى فمـه . . خيبة الأمـل عندما يخسـر فى اليانصـيب والسـعادة بأول وردة يربحها من النيشان . . لا شعور بخـوف من قنبلة قد تنفجـر فى أى لحظة أو أن تقوم فرقة مسـلحة

باقتحام المكان . . يحاول أن يستحضر جو الملاهى عام 1977 فى ألمانيا . . كان وقتها فى بداية الثلاثينات من عمره . . هل كانت الشرطة وقتها منتشرة فى المكان أم أن الأمر اختلط عليه؟

يأكلان شيش كباب ويشربان عصير القصب الذى له مذاق العشب الطازج . . يقوم سيزمار بالطلب ودفع الحساب . . قد تعرف فرنسواز كلمات أكثر منه؛ ولكنه يتحدث العربية دون لكنة. . يشعر كما لو كان جاسوسًا يعرف أن هناك معلومات قيمَة بالقرب منه ولكنه متأكد أنه لن يجدها . . يغير الغناء الغريب من سرعة الوقت، يمر بشكل أبطأ أو أسرع أو لا يمر على الإطلاق . . تحيطهم آهات مطولة: «الله، الله، الله» . . يشعر بأنه وحده فى مكان لم يذهب إليه أبدًا ولا يمكن كتابة تقرير مفيد عنه . . تقف فرنسواز إلى جانبه ولكنها على بعد سنوات ضوئية . . لا هذا ولا ذاك ذو مغزى . . تنبذهما فى وقت ما جموع البشر، معًا . . يقفان صامتين ومغيبين ينظران إلى بعضهما . . من يتحرك أولًا، سيخسر سيزمار . . يتجهان فى تردد إلى الشارع . . من يتحدث أولًا: فرنسواز: «يمكننا أن نأخذ سيارة أجرة معًا» . . يقع مقره البديل فى منتصف المسافة إلى منزلها.

السيارة ضيقة وقذرة . . يقتربان من بعضهما مع أنه ليس حتميًا. . تمسك فرنسواز بذراعه لتؤكد على شىء، يمسك هو بمرفقها وركبتها . . تطغى فتحات جسمها العارى على الملبس المحتشم . . كانت فرنسواز منطلقة مثل طفل يصرخ أثناء لعبه المتوحش . . لا تطرح هذا السؤال: «هل نحتسى فنجان قهوة فى منزلى»؛ الأمر فى يده . . يمكنه اقتراح حانة فى فندق . . بالتأكيد

هنـــاك غرف خاوية . . غالبًا ســتخلد إينس إلـــى النوم قبل عودته؛ لكنها ستشم رائحة عرق غريبة وهى مستغرقة فى الحلم . . القاهرة ليســت مدينة مناســبة لإقامة علاقات غرامية، على الأقل بالنســبة لدبلوماسى متزوج لم تخطر فكرة الطلاق على باله . . لو ضاجعها ســينزع عن هذه الليلة وضعها المبهم فتصــبح يقينًا لا يعرف إذا ما كان يريده . . على الأقل ليس فى الوقت الحالى . . يتصرفان مثل شخصــين ناضــجين يدركان عواقب تصــرفاتهما . . المرة المقبلة سيكون ما سيكون . . سيسبقها اتصال هاتفى؛ مفصل وخاص ولن يعرف أحد شيئًا عنه . . ينظر إليها، إنها توافقه فى الرأى . . يقول: «شــكرًا، كان وقتًا جميلًا» . . يمســح على ذراعها ويمســك بيدها القوية والرشــيقة، لفترة أكثر من اللازم . . فرنســواز لا تمانع. يقف ســائق الأجرة عند ناصية شــارع الزهرة . . تقترب بشفاهها ليودعهــا . . يطبع قبلة على فمها . . لوهلــة، يغلق الباب ولا يقف ليلوح لها بعد تحرك السيارة . . اقتربت الساعة من الحادية عشرة والنصــف . . أمامه من خمس إلى سبع دقائق سيمشيها بمفرده . . مــا زال الكلب راقدًا على الأرضــ . . انتهى وليد من عمله . . لقد تغيــرت وردية عمل موظفــى حماية الحدود: «مســاء الخير» . . النور مُضاء فى غرفة النوم، ما زالت إينس مستيقظة . . تقول عند دخوله دون أن ترفع نظرها عن كتابها: «هل وُفِّقْتَ فيما كنت تبحث عنه؟» . . «لقد اســتغرق البحث عن الموضع وقتًا طويلًا ووجدت مضمونًا مختلفًا» . . «بِمَ كان يتعلق الأمر؟» . . «بعلاقة الأديان» . . «تنبعث منــك رائحة ثوم كريهة» . . . «لقد أكلت ســاندويتش شاورمة» . . . «حال معدتك أفضل إذًن؟»، «حتى الآن نعم» . . تصدقه إينس.

يقف أمام المرآة ويتساءل إذا كانت الابتسامة الباردة دليلاً على الوصول لسن النضوج .

يجب ألا ينسى سيزمار يوم عيد زواجه . . يجلس على مكتبه ممسكًا بالمصحف ليعوض ما ادّعاه كذبًا . . تدق مريم صمدى الباب ، تقول وهى تضع التلكس أمامه: «أخبار سيئة» . . لقد انفجرت منذ ساعتين سيارة مفخخة فى هليوبوليس أثناء مرور موكب رئيس الوزراء عاطف صدقى . . كان فى طريقه لحضور اجتماع مجلس الوزراء . . لقد انفجرت القنبلة متأخرة لثوان؛ فنجا رئيس الوزراء . . توفيت تلميذة عمرها أربعة عشر عامًا ، عدد غير معلوم تعرض لإصابات بعضها بالغة. يأخذ سيزمار نفسًا عميقًا ، ينظر إلى مدام صمدى ويصب لعنات . . تومئ برأسها: «أكره هؤلاء البشر ، أحمد الله على كل واحد منهم يتم إعدامه» . . «لا يبدو أن لهذا الأمر نتيجة فعالة» . . تتردد وتسترسل فى حديثها: «أعرف أنك . . . . ، إنه يجب عليك إخراج هذا السافاتسكى لأنه . . . لو الأمر بيدى لجعلت هؤلاء الحيوانات» . . . . يقول بغضب: «لا أريد سماع هذا الكلام» . . تدير مدام صمدى ظهرها وتغلق الباب دون أن تتفوه بكلمة.

صمت مزعج . . يضغط سيزمار وجهه داخل كفيه ، يبرم شاربه ويحملق بنظره خارج النافذة. لا يمكن رؤية الحرب الدائرة خلف هذا الزجاج ، لولا علمه بها ما كان لاحظها . . أمامه التلكس والمصحف المفتوح . . ينظر إلى الكتاب كما لو كان قنبلة يدوية نزع فتيلها ويريد أن يقذف بها عاليًا من النافذة ، إنه رد فعل مؤقت لن يستجيب له . . إنه ليس شخصًا عاديًا ، بل ممثل لدولة ،

لإقليم ثقافى بالمعنى الأشمل . . لو رأى أحد مصحفًا يلقى من نافذة مكتبه، ستقتحم الجموع الغاضبة السفارة، إن لم يكن اليوم فغدًا على أقصى تقدير، تحرق الأعلام وتطالب على قلبِ رجل واحد بموته . . سيُجْبَر وزير الخارجية على ترحيله . . لا يريد ذلك بأى حال . . يجبر نفسه على العودة إلى التفكير الواضح: ماذا يعنى هذا الاغتيال لوضع السياسة الداخلية المصرية؟ إلى أى مدى سيؤثر ذلك فى موقف سافاتسكى؟ ما رد الفعل المتوقع منه باعتباره سفيرًا؛ وما رد الفعل الذى سيكون ذا فائدة؟ حتى إن كان غير مطلوب قد يكون لتوجيه رسالة عزاء قصيرة إلى وزارة الداخلية المصرية تأثير طيب؛ «باسم حكومة جمهورية ألمانيا الاتحادية أتقدم إليكم بخالص التعازى فى ضحايا الاعتداء الجبان والغادر على رئيس الوزراء صدقى . . نؤكد لسيادتكم أننا سنواصل دعمنا لكم لمكافحة الإرهاب على جميع المستويات»، يطلب من مدام صمدى الدخول . . ما زالت غاضبة . . لا يمكنه الآن التعامل مع هذا الأمر؛ »أرجو إرسال هذا على الفور إلى وزارة الداخلية . . شكرًا»، أمسكت بمقبض الباب عندما وقع نظره على علبة عجين اللوز . . «وهناك شىء آخر . . »، تستدير على مضض . . «من فضلك قومى بتغليف هذا . . ».

يخشى أن يطغى الهجوم الأخير على عضو حكومة رفيع المستوى على حديثه مع الإمام الأكبر، وأنه لن يترك مجالا للأسئلة الجوهرية . . بصرف النظر عن هذا لم يتضح له هدف زيارته بعد . . معلوماته عن الإسلام كافية؛ لأن يكون خبيرًا فى ألمانيا . . ولكنه لا يفهم شيئًا– تقريبًا مما يعرفه . . لا تأتى حيرته

من معلومات ناقصة . . يبدو أنه لا توجد أرضية مشتركة بين رؤى العالــم الدينية والعلمانية . . ربما تقـوم القيم الأخلاقية – المتطابقة فــى الظاهر فقط – على أســس مختلفة تمامًا لا يجمعها شــىء؛ ماذا يمكن أن يتفق عليه شخص يرى نسمة الهواء بمشيئة الله مع شخص آخر يعتقد أن وجود ســلطة معنوية تنظر من الفضاء بعدم اكتراث؛ ربما يكون واردًا؟ يقول الإسلامويون :لا يتفقان على شيء .

يتصــفح ســيزمار المصــحف وقد وضع ســيجارة مشــتعلة فى فمــه، يقرأ ما تقــع عينــه عليــه بالصــدفة:﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴾ ﴿ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًاۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۚ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾ ﴾ ﴿ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾، يشــعر بمسافة بينه وبين النص . . من لديه الحق فى الحديث على هذا النحو؟ يبحث سيزمار عــن الورقة بالمواضــع التى قام (لودرز) بتجميعهــا . . لقد اختفت فى الفوضــى . . يحتاج لهذا الموضع عن المســيحيين والمسلمين، يعتقد أنه كان فى الســورة الخامسة، ليس فى البداية بل فى منتصف السورة، يقلب الصفحات للأمام والخلف، فيجد كلمة «التوراة» فى الآيــة:﴿ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ﴾، وعلى «أهل الكتاب» فى الآية الثامنة والأربعين: ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًاۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمْۖ فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾. . يعيد سيزمار

قراءة المقطع مرارًا وتكرارًا . . لا يوجد شـيء مماثل فى اليهودية ولا المسيحية . . لماذا لا يكتبون ذلك على لافتاتهم؟ لماذا لا يستشهد الأئمة والشيوخ بها فى كل خطبة وكل حوار؟ يدين له أحمد البصال بتفسير لذلك . . له ولسائر العالم الغربى؛ معهم المفتاح ولكن يقفون بدلًا من ذلك أمام الباب بثبات ويطلقون النيران.

لا يُمَنِّى سيزمار نفسه؛ لن يستفيد بأى شـىء ملموس أو غير ملموس . . ستكون إجابات الشـيخ مطولة وآخذة كل العناصر فى الاعتبار حتى لا ينطبق الوضع على أى عنصر منهما . . لا يختلف الأمر كثيرًا عن تصريحات قائد كنائسى.

«مدام صمدى، أريد قهوة، شكرًا».

فـى الواقـع ليس النصـ مفيـدًا . . يتحدث عن مسـيحية لم تعد موجودة . . أشـكالها المجوفة القائمة بالفعل ليس لها سوى مدلول تاريخى وفولكلورى . . كل فرد مسئول وحده عن تشكيل قدره . . لن تعينه سـلطة عليا أو مؤسسـة دينية على ذلك، ولن تعوقه أيضًا؛ «التنوير هو خروج الإنسان من قصوره الذى اقترفه فى حق نفسه من خلال عدم استخدامه لعقله إلا بتوجيه من إنسان آخر»، لا يريد أحد فى الغرب أن يرجع الزمان فعليًا إلى ما قبل هذه المقولة.

ينتظره تحرير ملف لوزارة الخارجية حول الاغتيال . . يجب عليه بخلاف ذلك ذكر مشـروعات يهتم الجانب المصـرى بدعمها وليسـت لها موارد مالية أكيدة . . فـى أى المجالات يوجد اهتمام كبير بنقـل التكنولوجيـا؟ فى أى مجال سـتكون إجـراءات تأمين قروض التجارة الدولية مفيدة؟ بأى حجم؟

يطرق الدكتور (لودرز) الباب ويشرح دون سؤال أن تأثير البصال ضعيف فيما يتعلق بالرأى العام وقرارات الحكومة أيضًا. . يطرح سيزمار وهو فى طريقه إلى جامعة الأزهر، سؤالًا على شعبان: «ما رأيك فى الشيخ البصال؟»، بدا على الدكتور (لودرز) استنكاره للسؤال . . يلوح شعبان بيده وينتظر إعادة الطلب: «أخبرنى، رأيك يهمنى» . . «تعرف الكثير عن مصر يا سيادة السفير، ولكن ليس بالقدر الكافى، عفوًا» . . . «ساعدنى إذن»، «ليس لهذا الرجل أى مصداقية على الإطلاق . . إنه وصولى وانتهازى . . لقد قام مبارك شخصيًا بتعيينه، وإن قال البصال شيئًا خاطئًا سيستبعده من المنصب . . إذن يقول البصال ما تريد الحكومة أن تسمعه والحكومة تريد أن تسمع ما يجد إعجاب الغرب . . لا أدعى أنه ليس مسلمًا ولكن . .» . . «ولكن ماذا؟».

«حاول أن تفهم؛ كثير من المصريين يريدون أن يعيشوا على منهج القرآن؛ وليس كما يعجب مبارك أو الغرب . . نحن لنا ثقافة مختلفة، عريقة جدًّا . . فعلى سبيل المثال، أُجرِيَتْ هنا فى العصور الوسطى عمليات جراحية فى المخ . . آنذاك لم يكن هناك أى شىء فى أوروبا، فلاحون وقذارة» . . يسمع سيزمار ما سمعه مرارًا، اعترض قائلًا: «والكاتدرائيات!»، ولكن ليس لها وجود فى عالم شعبان . . يشرد سيزمار بفكره، يتخيل الفتاة القتيلة وبؤس أبويها، فرنسواز بالحجاب، كان يليق بها، إينس وهى تقرأ فى الفراش، إنها إنسان ذو قيمة، يكذب الإنسان أحيانًا . . كان ينبغى أن يعتذر لمدام صمدى عن نبرة حديثه . . تحول سعبان إلى الحديث عن تقدم العرب فى الرياضيات . . يتمتم سيزمار: «هذه نظرة سطحية

للأمـور» . . لا يسـمع هذا التعليـق أثناء حديثه المندفع . . يسـعد سيزمار بنزولهم من السيارة.

يشـعر سـيزمار بالحرج من العلبـة الضـخمة - المغلفة بورق مطبوع بالزهور - التى يحملها تحت إبطه، وذلك على الرغم من أن محتواها غير مرئى لأحد . . يقوم الدكتور (لودرز) بحك رقبته. . ينتظرهما سـكرتير الشـيخ ويقودهما عبر السـاحة الداخلية لقاعات ضخمة؛ ويقدم شرحًا لوظائفها وكذلك للزخارف والمعمار.

يسـتقبلهما أحمد البصال بترحيب غير مبالغ فيه . . إنه فى نهاية الخمسينات، ضئيل الجسم ورشيق وله لحية مهذبة . . يبعث مكتبه دفئًـا، مكان للعلـم تتملكه الكتب، يغطيه سـجاد عتيق وموبيليا من خشـب مزخرف . . تنم طريقته فى فتـح العلبة عن رقة زائدة . . يسـعد بعجينة اللوز ويتأكد أنها خالية من الكحول . . يقدم منها إلى الضـيوف والسكرتير قبل أن يذوق منها . . يمضغ بتمعن وبنظرة ذات تركيز عالٍ، بين حين وآخر يندهش من مذاق جديد اكتشفه. . ولأنه شـخصٌ ذو اهتمامات متنوعة يستفسـر عن طريقة التصنيع وتاريخ عجينة اللوز، ويتوقع بتلقائية أن لها أصـولًا عربية؛ نظرًا للتركيبة المعتادة فى الشـرق التى تجمع بين اللوز والسـكر . . قد يكون شعبان هو صـاحب هذه النظرية . . يدافع سيزمار - نصف مداعبًـا - عن وطنه . . يأتى السـكرتير بالشـاى . . يرى الشـيخ أن عجينة اللوز تتناسـب تمامًا مع الشـاى . . الحـوار عبارة عن درس فى الخطابة الدبلوماسـية . . تُقَيَّمُ الأسئلة والإجابات بعناية، تُطْـرَحُ علـى الطـرف الآخر دون إلـزام قد تختلـف طبيعته وفقًا للمضـمون. . أهم قاعدة هى الالتزام بالأدب واحترام حساسيات

الطـرف الآخر . . يجسـد الإمام الأكبر منصـبه بوقار وجدية . . ينتهج سـيزمار سـلوكًا مُنْتَظَرًا منه بصفته سـفيرًا . . باتت أنماط الفعل ورد الفعل جزءًا لا يتجزأ منه . . دون شـك؛ البصال زميل يقود مجالًا آخـر فقط؛ عبارات مثل: نعم - ولكن، فى واقع الأمر نعم ولكن يجب أن نأخذ فى الاعتبار أن . . ، أوافقك لكن باسـتثناء أمـر واحـد . . ، يسـتمع الدكتور (لـودرز) ويصـمت، فى واقع الأمـر يشـتركون جميعًا فـى رأى واحد . . لا يختلـف عن رأيهم قبـل اللقاء . . يتلقى سـيزمار تأكيدًا من رجـل ذى مرجعية أنه لم يخطئ الفهم . . ما أراد أن يعرفه حقًا صـعب وشديد الحساسية أن يُطْـرَح فـى أول لقاء من هـذا النوع . . يجب أن يتحسـس طريقه أولًا إلى العبارات الصـحيحة، بتلعثم، بأنصـاف جمل يقوم فورًا بالتراجع عنهـا، ربما تظهر هذه النقطة فـى المجالات المفتوحة، ولكن من المسـتحيل أن يقول: "ليسـ لدى أدنى فكرة، الأمر غير واضـح، قد أصـيبه بالمحاولة والخطأ، فى الحقيقة أبحث عن حل لمشـكلة لا أعرف جوهرها . . "، يمر الوقت دون صمت حائر . . الوداع وفقًـا للبروتوكول، يؤكد أحمد البصـال: «إن كانت لديك أسـئلة أخرى فأنا تحت أمرك فى أى وقت . . »، يجيب سـيزمار: «أشـكرك علـى صـراحتك، هناك أمـور كثيرة اتضـحت لى»، «وعجينة اللوز طعمها رائع، إنها حقًا شـهية» . . «ولكننى ما زلت مُصِرًا؛ تم تصنيعها بهذا الشكل من قبل صانعى الحلويات فى مدينة لوبيك . . »، يضحك الجميع.

مزاجه مُعَكَّر وتشغله على طريق العودة أفكار لم تتبلور بعد . . لا يخطر على باله أحد سـوى فرنسواز ليتناقش معه: "ماذا لو كان

سافاتسكى محقًا، أن الموت ليس مرعبًا بل الخوف منه؟ إنه ليس ذا أهمية أنك تعيش أو تموت بل الأهم هو كيف؟"، ستنظر إينس إليه على أنه مجنون.

لم يذق سيزمار طعم النوم فى هذه الليلة تقريبًا، يتقلب من جنب إلى جنب معانيًا من غثيان يتحول إلى آلام مبرحة فى المعدة .. يتناول بدلًا من الفطور عبوتين من محلول الدواء، تعتقد إينس أن هذا تصرف خاطئ .. يجبر نفسه وقت الظهر على الطعام، شوربة مع قليل من الدجاج .. مجرد التفكير فى طعام مقلى وفى الدهون يجعله يتصبب عرقًا .. يتناول فى المساء كأسين من النبيذ الأحمر مع قطعة خبز جافة .. كان النبيذ الأحمر دومًا يساعده لو كان التوتر هو سبب الشكوى .. بعد قليل يدفع القيء به إلى الحمام .. تقول إينس: «لديك التهاب فى جدار المعدة، ربما قرحة، يجب أن تذهب إلى الطبيب» .. «تحت وطأة الضغوط ...»، يحاول أن يبدو متماسكًا قائلًا: «تحت وطأة الضغوط يكون لكل جسم رد فعل مختلف ... نقطة ضعفى هى بطنى ... لو ركضت فى كل مرة إلى الطبيب لن أقوم بفعل شىء آخر».

زادت الإجراءات الأمنية على طريق سجن الحرية .. دبابات إضافية، لجنة مرورية ثانية قبل نقطة التفتيش الفعلية؛ مسموح له بالمرور .. يوجه الدكتور توفيق تحية باردة إليه ويقول بصوت منخفض: «هناك الكثير من المتورطين فى هذا الأمر، أؤكد لك ذلك ..»، يبدو هذا التعليق كما لو أنه يتهم سيزمار بالتواطؤ فى حادث الاعتداء على رئيس الوزراء .. تُصْدِر أحشاء سيزمار صوتًا، يشعر بالبرودة على الرغم من أن درجة الحرارة خمس

وثلاثــون ، على طرف لســانه أن يقول: 'إنه ألمانى واحد وسـط الآلاف مـن أهـل بلدتـك ، من فضــلك ضــع الأمور فى نصــابها الصــحيح' ، لكنــه يمنــع نفســه . . مــا من فائــدة أيضًــا لأن يذكر الاختراقات المستمرة من قبل وزارة الداخلية للاتفاقات الدولية . . نظرة المأمور واضحة هذه المرة «كراهية».

يصــاب ســيزمار بصــدمة عنــد رؤية سافاتسـكى وهــو يدخل الغرفــة؛ وجهه أزرق ومتورم ، خطوته مترددة ، نظره متشــبث بالأرضــ . . لا يرفع عينيه إلا بعد أن صــارا بمفردهما قائلًا: «لِمَ تأتِ إلى هنا منذ فترة طويلة . . . » ، يلقى بنفسه على المقعد.

«خمسة أيام . . . ».

«فعلا؟» ، يبدو متشككًا.

«كيف حالك».

«تسير الأمور . . . » ، يغلق عينيه ، يبدو أنه يستجمع قواه التى نفدت . . لا يعرف ســيزمار إذا ما كان يجب أن يشــعر بالشفقة أو بيقين الانتصــار . . سينكسر سافاتسكي ، إنه مقتنع بذلك . . بمجرد طــرح أحداث فترة فرانكفــورت على مائدة الحــوار - والتى من المفترض ألا يعرف ســيزمار عنها شــيئًا - سيتحدث ، على أقصى تقدير عند ذكر اسم صديقته.

«لقد ساء وضعك بوضوح . . . ».

«تستطيع أن ترى الأمور على هذا النحو . . . ».

يفتح سيزمار قفل حقيبته وينتظر اختفاء الصوت المنبعث: «أنجزنا القليل ولن تسهل الأمور بسبب الاعتداء الذى وقع على رئيس الوزراء صدقى يوم الأربعاء . . هل كنت تعلم شيئًا عنه؟» .

«هل مات؟» .

«لا» .

«خسارة» .

«ولكن ماتت فتاة فى الرابعة عشرة . . .» .

«هذا الأمر لا يخصنى . . . » ، تلك هى نوعية ردود الأفعال التى يود فى أعقابها أن ينهض ويضرب الذى أمامه .

«أسألك إن كنت تعرف شيئًا عن هذا الأمر» .

«يتم تخطيط وتنفيذ كل عملية بشكل مستقل» .

«هذه ليست إجابة» .

يؤلمه هز كتفيه .

«هل قمت فى الفترة الأخيرة بإضافة أى شىء إلى أقوالك يجب أن أعرفه؟» .

«لا ، على الأقل لا أتذكر . . . » ، يضغط سيزمار ظهره إلى الخلف وينحنى إلى الأمام مستعدًا للقفز . . . يجب أن يكون الهجوم تحت السيطرة ، «أريدك أن تحكى لى عن الفترة التى قضيتها فى

مســجد ابن تيمية . . . ثم نســتكمل بعد ذلك إلى القاهرة والسودان ثم أســيوط والأقصــر . . .»، يتابع وقع حديثه؛ يشــد سافاتســكى عضــلات وجنتيه كما لو كان يريد أن يسحق فكيه، تعلو وتنخفض حنجرتــه: «إذن الرأســ الكبير كان هنا، أو ماســح جوخ . . كان متوقعًا، مَنْ؟».

«هذا لن يفيد الآن».

«مَنْ؟».

«ليس لدىَّ ســوى ملخص للتقرير . . . »، لا يكذب هذه المرة بشــكل جيد . . . يرى سافاتســكى ذلك ويقول: «لــو كان لديكم ما يســتوجب العقوبة القانونية لاتخذتم إجراءاتكم منذ زمن ولكن هذا لم يحدث . . . »، يتنفس بصعوبة.

«تم رفع قضايا».

«شراء الخونة هو الأسلوب الأكثر قذارة لإدارة جدال . القيام بدفع دية حتى لا تتسخ يداك . صَــدِّقْنِى؛ أكره الخونة . كنت يومًا واحــدًا منهم . أما هــؤلاء الذين يحولون الآخريــن إلى خونة فهم حثالة الحثالة».

«أتقصد الوقت الذى تعاونت فى أثنائه مع مكافحة المخدرات؟»، لا يرد سافاتسكى . يصمت سيزمار لبرهة ثم يقوم بتغيير نبرته . . من يســقط على الأرض يمســك بأى يد تمتد إليه: «احكِ لى، يجب ألا تذكر أسماء، أنا أهتم بخط سير حياتك . أريد أن أفهمك . . ».

أغلق سافاتسكى عينيه ومسح بيده على رأسه الذى حُلِقَ تمامًا، ينصت إلى صوت ربما يقول له ما يجب أن يفعل: «هل تعتبر نفسك مسيحيًا؟ هل أنت مسيحى؟»، سيزمار ليس متأكدًا إذا كان سافاتسكى يطرح هذا السؤال من باب الاهتمام؛ أم أنه ينصب له فخًا، يجب أن يقرر فى ثوانٍ الإجابة الصحيحة.. أضاف سافاتسكى وعيناه ما زالتا مغلقتين: «يعتقد الناس هنا أنكم فى الغرب مسيحيون.. لا يمكنهم تخيل أنكم لستم كذلك..».

«يبدأ يوم الأحد عيد البشارة».

يبتسم سافاتسكى: «هل ما زلت تعرف ما أهم شىء فى المسيحية؟ هل تتذكر؟».

يجيب سيزمار: «الإيثار».

«يجب أن تحب الرب من كل قلبك وروحك وعقلك... هذه هى أكبر وأول وصية"... هكذا يقول الإنجيل، ولأنهم نسوا ذلك انحدر حال المسيحيين حتى أصبحوا أشبه بجمعية للسيدات المسنات الممرورات تحت قيادة أبناء مثليين... بلا سلطة...، يشعر سيزمار بأنه يفقد مجددًا السيطرة على الحوار... سيمنع ذلك: «لنعود إلى فرانكفورت؛ تفيد التقارير بأن مجموعة حول كريم هويدى ومحمد بشير وأنت معهما، اتسمت سلوكياتها بالتآمر المتزايد وتحدثت عن اتصالات مع جماعة إرهابية مصرية».

«قبل أن يؤذن الديك فى الصباح».

يشعر سيزمار بهواء له طعم العفن فى معدته ويصعد فى شكل

فقاعات لأعلى . . يبلع ، تمر أوراق الملف من بين أصابعه ، يفتح صفحة ويقرأ بصوت عالٍ: «يدَّعى عبد الله أنه التقى أكثر من مرة مُجَنِّدًا . . وصفه بأنه رجل من الإسكندرية حارب فى أفغانستان ويعمل الآن بشكل أساسى لصالح البوسنة والهرسك ، ويعرف الدكتور بصفة شخصية . . أكد على تقديم المساعدة فى حال قرار عبد الله وكريم الذهاب إلى مصر . . يهرب عبد الله من الإجابة عن استفسارات . . يشير كريم إلى رغبة الرجل فى السرية التامة . . الاستمرار فى الإلحاح قد يثير شكوكهما . . لا أعتقد أن هذه مجرد ادعاءات . . كان هذا فى الحادى عشر من أكتوبر العام الماضى» .

«هشام ، من المؤكد أن هشام كتب ذلك» .

ما كُتِبَ يوم الرابع من أغسطس مثيرٌ أيضًا للاهتمام . . `يقول عبد الله إنه – نظرًا لاحتلال الكفار المستمر للأراضى المقدسة– فرض ضرورى على كل مسلم مهاجمة العدو ، ألا وهو أمريكا– فى ألمانيا أيضًا . . كما يقول إن فرانكفورت هى أهم قاعدة لإمداد مجموعات العدو` . . ، يترك سيزمار فقرة يصف فيها المُدْلِى بالمعلومات كيف أن سافاتسكى يطلب منه بشكل مباشر إعطاءه بطاقة العمل لتحقيق الشخصية الخاصة به أو على الأقل يزوده بمعلومات عن المكان المستهدف من أجل التخطيط لعملية هجوم عليه: `يقول عبد الله إنه يعرف أحد العاملين فى تفتيش المسافرين بالمطار الذى يأخذ دروس لغة عربية لدى أصدقاء من المغرب ويريد محاولة الحصول منه على معلومات أكثر . . يبدو مقتنعًا بإمكانية تجاوز إجراءات التأمين فى المطار . . تسعون بالمئة

من عاملات النظافة ونصف العاملين في ساحة الطيران من الأتراك . . يستفيض الشخص المذكور في الحديث لو قام الطرف الآخر بجذبه إلى الحوار . . أرى مما يلي أنك تخليت فيما بعد عن هذه الخطة . . » .

«أو مصطفى . . . هشام أو مصطفى . . . » .

يعرف سيزمار أن قراءة معلومات من التقارير يعد تصرفًا غير مسئول . . إنه يخاطر بسرية هوية شخص يمد بمعلومات ، ربما يخاطر أيضًا بحياته . . شمل المحيط الضيق من ثمانية إلى عشرة رجال ، مجال الاختيار ليس كبيرًا . . كانوا يلتقون في أماكن مختلفة وفي سياقات متغيرة . . كان ينضم إليهم - أحيانًا- طلاب جدد لم يتأقلموا بعد على مدينة فرانكفورت القذرة ، وسعدوا بلقاء أشخاص يوقرون صدق إيمان ونقاء قلب أمهاتهم المحجبات وصرامة آبائهم .

لا يفلح سافاتسكي في إخفاء خيبة أمله .

يقوم سيزمار بمحاولة جديدة تتسم بالتفهم: «أستطيع أن أتصور مشاعرك الآن» .

«بل لا يمكنك ذلك ! » .

«خيانة الأصدقاء شيء مخيف» .

«زفت» .

«هناك أمر أنا متأكد منه؛ لو لن تبوح بما في داخلك ، لن

تتحمل ما تمر به هنا . . . لن يُمْنَح لك فى الوقت الحالى حق توكيل محام . . . ليست أمامك خيارات أخرى غيرى» .

يحاول سافاتسكى ترتيب مشاعره المتضاربة حتى يتوصل إلى استنتاج . . تزوغ عيناه باضطراب ، تمر على الأوراق ثم تركز على سيزمار وتتحقق من موقفه . . يجاهد سيزمار ليبدو مسترخيًا ، كما لو أن كل الخيارات تتساوى لديه .

«ماذا سيكون مصير المعلومات التى سأدلى بها؟ إن قلت شيئًا» .

«سأحتفظ بما تقول لنفسى . . . إلا إذا بدا مفيدًا لك وأنت تسمح لى صراحة باستخدامه» .

«خبرتى السابقة مع خادمى الدولة ليست جيدة» .

يرفع سيزمار يديه ويلقى بنفسه إلى الخلف: «القرار متروك لك» .

تنخفض مقاومة سافاتسكى شيئًا فشيئًا . . يفكر سيزمار فى ذكر اسم أروى فى جملة اعتراضية ، ولكنه يقرر تأجيل ذلك . . قد تأتى بنتيجة عكسية . . ينظر سافاتسكى إليه بشكل مباشر : «حسنًا ، يمكننا أن نتحدث . . عن كل شىء ممكن . . ليكن عن قصتى . . إنها سيئة . . لقد عشت فترة طويلة فى ضلال . . عن الحرب . . عن فُرصى فى الخروج من هنا . . لا أعقد آمالًا كبيرة ولكننى لست خائفًا . . ربما أريد أن أستمر فى الحياة ، ربما أفضل الموت» .

«ما يثير اهتمامى بالدرجة الأولى هو ما الذى جعلك تهتم

بالإسلام؟ ليس هذا أمرًا معتادًا».

يتحسس سافاتسكى بأصابعه وجنته المتورمة، يضغط بلسانه عليها من الداخل، يغلق عينيه بألم، على الرغم من رفضه الحديث عن التعذيب؛ فى لقائه المقبل مع وزير الداخلية سيطالب بوضوح بالتوقف عن استخدام أى عنف ضد سافاتسكى.

«إنها هبة . . . الحمد الله . . . بل إنها نعمة - إن كانت لهذه الكلمة دلالة لديك . . لا يوجد تفسير لذلك . . إنه يحدث . . ربما كان هناك إعداد سابق لم أشعر به . . الآن وبعد انتهاء الأمر أعتقد أنه كان كذلك . . هذا هو السبيل الوحيد لأن تكتمل الصورة . . أيضًا مع ما كان قبلها . . تلك الفترة المظلمة . . »، يتوقف عن الحديث كما لو أنه ينظر داخل صندوق ملىء بصور مبعثرة، ويتردد فى اختيار الصور التى سيعرضها: «كنت منتهيًا، ببساطة وصلت إلى نقطة النهاية . . جسديًا وروحيًا ونفسيًا . . مخدرات وجرائم . . إيجاد مواد مخدرة ثم موت بطىء . . بدا شكلى مثل متشرد، رائحتى مثل متشرد، شقتى عبارة عن مقلب قمامة - كانت لدىَّ على الأقل شقة . . »، يتعجب سيزمار من الهدوء المفاجئ فى حديث سافاتسكى كما لو أنه يجلس فى مسجد ويتحدث إلى أناس مشابهين له فى العقيدة . . «ولكن لماذا تريد أن تعرف هذا؟».

«قلة من مدمنى المخدرات يهتمون بالإسلام».

«للأسف».

لم تكن لديه وظيفة فى فرانكفورت، حاول أن يعيش من

صفقات صغيرة لبيع المخدرات والسرقة واقتحام أماكن لسرقتها.

يقول سيزمار: «لو كنت فى بلد إسلامى لجلست الآن أمامى دون يدين».

«ما كنت سأجلس هنا فى دولة إسلامية؛ لأننى من الأصل لم أكن لأسقط فى هذا العدم».

كان يتسكع ويتعاطى خليطًا من الحشيش والكحوليات والأقراص، يستنشق الأمفيتامين والكوكايين والهيروين، فى معظم الأحوال بمفرده.. يقول ضاحكًا: «يطلق على ذلك تناول مخدرات فى مجموعات مُشَكَلَة...»، يشعر بالألم... يقال إنه لم يستخدم حقنًا أبدًا: «أردت أن ينتهى كل شىء، أن ينمحى، كما لو أنك تغلق التلفاز، ولكن حتى ذلك كان شديد التعقيد «إغلاق التلفاز»... كنت مستلقيًا على الفراش، أشاهد مقاطع الفيديو والبرامج الحوارية والأفلام وموادّ بلهاء... لا أعرف... ليس لدى أى فكرة عن ماهية المادة المذاعة... كان الأهم هو تنوع الألوان... لا أتذكر سوى المجاهدين... لو عُرِضَ شىء عن المجاهدين كنت أستجمع شتات نفسى.. ربما كان هذا ما بقى من غريزة... كم كانوا يتمتعون بالوضوح... كنت أجد أفغانستان بالطبع جيدة؛ كان الأفغانى الأسود هو أفضل الأصناف التى يمكن الحصول عليها، فيما يتعلق بطبيعة تأثيره.. والأفيون.. كانوا يعرضون فى التقارير حقول الخشخاش، منتهى الروعة.. تنسى مع الأفيون كم أنك وغد حقير على الأقل لمدة بضعة أنفاس..»، رفع سافاتسكى نظره مغلقًا عينيه: «سوف نجد هذا الجاسوس،

حينئذ سيكون حاله فى منتهى السوء».

«لم أكن أعلم أنك تعمل لصالح مكافحة المخدرات فى فرانكفورت».

«لم أفعل هذا».

لا يشعر سيزمار بالارتياح .. يهدئ نفسه بأنه لا يعرف اسم المصدر وأنه لا يوجد سوى خيارين: إما أن يختفى سافاتسكى هنا إلى الأبد وإما أن يحاكم أمام محكمة ألمانية .. فى الغالب سيستند الادعاء هناك أيضًا إلى هذه المعلومات، ولكن من ناحية أخرى لن يُحْكَم على جميع المسجونين هنا بالموت أو السجن المؤبد .. ما زالت شبكات التواصل قادرة على العمل .. حتى فى شتامهايم تسربت معلومات إلى الخارج .. ماذا لو تمكن سافاتسكى من إبلاغ سجين آخر سيفرج عنه قريبًا باسمى "هشام" و"مصطفى" مع طلب توصيلهما لمجموعة فرانكفورت؟

«هل كنت فى أفغانستان؟».

«التقيت بعض الناس الذين حاربوا هناك ... أشخاص عظماء».

«هل تريد حقًا أن تخبرنى بأنك بسبب رؤية بعض المحاربين القبليين فى التلفاز».

«لقد التقيت شخصًا ... فى وقت ما ... من أصل عربى وكان لديه هذا الوضوح نفسه ... أمام مطعم بيتزا للمأكولات

السـريعة إن أردت أن تعرف المـكان بالتحديد . . . لقد تتبعت هذا الشـخص . . . بمنتهى البسـاطة . . . لم يكـن أمامى خيار . . . لم أهتم بملاحظته لى . . . ولقـد لاحظنى بالفعل . . . ولكننى عرفت ذلك لاحقًا».

«هل كان رجلًا أم امرأة؟.

«شـخص مميـز . . . كانت هذه على الأقـل قناعتى وقتها . . . يتردد: «لا . . ما زلت أعتقد ذلك . . .».

يتوقـع سـيزمار أن هذه هـى أروى: «لمـاذا لا تقـول لى إن كان . . . ».

«لأن هذا الأمر لا يخصك ولا يلعب دورًا . . . ».

ولـدت أروى فـى القاهرة ونشـأت فى فرانكفورت . . يشـير مصـدر المعلومات إليها فى مواضع مختلفة، ولكنه يؤكد بوضوح أنهـا لا تنتمـى إلى المجموعة . . يبدو أنه تم إقصـاء السـيدات . . الحرب تخص الرجال فقط . . عندما تعرّف سافاتسكى عليها كانت تدرس الطب فى الفصل الدراسى الثانى . .

«متى كان ذلك؟».

«منذ فترة طويلة».

تتبعها سافاتسـكى إلى داخل مقهـى التقت فيه معارف . . جلس على طاولة مجاورة وسـمعهم يتحدثون باللغـة العربية . . لم يفهم سوى بعض أسماء الماركات و `مايكل دوجلاس` ، عندما تكررت

كلمات "محمد" و"الله" و"الإسلام" تعالت أصوات المحادثة . . بدا أن هناك اختلافًا فى وجهات النظر . . كان يحب أن يعرف سبب النزاع . . ذهب بعد حين كل واحد منهم إلى حال سبيله وذهب سافاتسكى خلفها حتى فتحت باب بيت واختفت خلفه . . أضاف كلمة "شخص"، أضيء بعد قليل النور فى إحدى النوافذ . . عبر الشارع ونظر إلى لوحة الجرس بالأسماء . . وجد اسمًا عربيًا واحتفظ به فى ذاكرته.

«Do you believe in love on first sight? – Yes، I'am certain، but it happens all the time . .»

يأمل سيزمار أن يكون الحب هو بداية القصة . . فنحن نتعاطف مع المحبين كثيرًا . .

بعد مرور ثلاثة أيام لم يفكر سافاتسكى أثناءها إلا فى هذا الأمر؛ قرر أن يغير حياته . . ما كانت حالته فى ذلك الوقت تسمح بأن يحاول الاتصال بهذا «الشخص» . . . منع عن نفسه جميع أنواع المخدرات ما عدا الحشيش . . استحم وحلق، رتب شقته وجمع غسيله المتسخ وذهب إلى صالون الغسل . . يدعى أنه فى الأيام التالية كان يعانى من أعراض انسحابية بسيطة: «من أى نوع؟».

يلوح بيده؛ رعشة، نوبات عرق، أمور لا تستدعى الذكر . . يكمن المرض فى العقل . . يجب أن تتحرك الأزرار هناك . . أما الباقى فسهل . . قرر أن يكتفى مبدئيًا بالمعونة الاجتماعية، «سأوفر عليك تفاصيل الإجراءات البيروقراطية . .»، بمجرد استقرار حالته أراد أن يبحث عن عمل . . فى مجال البناء،

المطاعم، أى وظيفة مساعدة . . اشترى لنفسه بنطالًا جديدًا، فانلات، جميعها من التصفيات . . كان ذلك فى الصيف ولم يكن بحاجة إلى أغراض كثيرة . . وقف يوم جمعة مرة أخرى أمام المنزل، مترددًا فيما يفعله ومتأكدًا من أن شيئًا ما سيحدث . . ولكن لم يحدث شىء . . على الأقل لم يحدث شىء مما كان يتوقعه . . خرج بعد ساعتين رجل شكله عربى قد يكون والد هذا "الشخص"، مرتديًا بدلة وشعره مهذب بعناية . . تتبعه سافاتسكى.

«شخصك هذا لم يكن معه؟».

يتجاهل السؤال.

مشيا لمدة عشرين دقيقة، لا باستعجال ولا باسترخاء . . «يجب ألا تعرف إلى أين . . لم أكن فى هذا الوقت تحت المراقبة بعد. .»، كان يقطن الكثير من الأتراك هذا الحى، وأيضًا العرب. . دخل الرجل إلى ساحة داخلية . . كانت هناك فى الخارج لوحة تشير إلى وجود مسجد فى الجزء الخلفى من المنزل . . لم يلحظها أبدًا على الرغم من معرفته الجيدة بالمنطقة . . بعد تردد قصير دخل سافاتسكى عبر بئر سلم مهملة إلى شقة متواضعة . . كان الباب مفتوحًا . . سمع أصواتًا من الداخل . . يبدو أن هناك اجتماعًا بالداخل . . تذكر أن هناك «صلاة جمعة» فى الإسلام . . وضعت فى المدخل موبيليا قديمة . . جلس شاب عربى على مائدة كبيرة بين آلتين للكتابة، واحدة بأزرار عربية والأخرى بأزرار لاتينية. . كان هناك فى الركن جهاز تصوير تخرج منه أوراق صفراء . . ملأت رائحة المنظفات والنعناع المكان . . كان له تصور آخر عن

شكل المسجد: مئذنة، قبة، صرامة، صمت جاد.. كانت الأرضية على أى حال خضراء، وتزينت الحوائط بصور الكعبة والخطوط المزخرفة.. فى رف على الحائط وضعت نشرات وكتب.. احتسى رجال من أعمار مختلفة الشاى وأخذوا يتناقشون بصوت عالٍ.. لاحظ سافاتسكى بالطبع أن العيون ترمقه بنظرات ريبة، ولكنه كان فى غاية الاضطراب فلم يقابلها برد فعل.. نهض العربى الذى كان خلف المكتب واقترب منه وقدم نفسه باسم "كريم"، رحب به ثم سأله: «هل أنت مسلم؟».

«هل كان هذا كريم هويدى؟».

«نعم»، يتنحنح سافاتسكى قبل أن يستكمل حديثه ويتحسس مجددًا وجنته.

فى هذه اللحظة وفى هذا المكان الذى لم يكن مستعدًا له؛ تلاطمت الأفكار فى ذهنه، فى الوقت نفسه ودون ترتيب لدرجة أنه لم يخطر بباله أن يقول مجرد "لا"؛ كان فى وقت سابق يهتم بالدين- بالأخص بالبوذية والثقافات الهندية - فى رحلة بحث عن شىء يملأ الفراغ الذى تركته الكاثوليكية البرجوازية فى طفولته.. كان يحتقر أحلام زملائه بجهاز تشغيل الموسيقى والدراجة البخارية ومغامرات المرقص، توقعاتهم لمستقبل كطبيب أو مهندس ميكانيكى.. كان يمقت السعادة البائسة التى كانت تشعر بها أمه عندما تأتى بحبيب جديد تمامًا مثلما يمقت رثاءها لنفسها عندما يهجرها الحبيب.. عزل نفسه بشكل ممنهج وانخرط فى قراءة الكتب "الزن اليابانى فى فن رمى القوس"، "الزن اليابانى فى

فن قيادة السيف" . . لقد التهم السير الذاتية لهنود السيوكس . . كان شعارهم لحظة الرحيل إلى الحرب "اليوم هو الوقت المناسب للموت" . . أقنعه (كارلوس كاستانيدة) بعد ذلك أن المخدرات ضرورة لإزالة حدود وعيه والوصول إلى أبعاد أعمق للعالم . . ونظرًا لعدم وجود كاهن بدأ بتجاربه الخاصة وكانت النتائج معروفة . . لم يكن الإسلام وقتها خيارًا . . وفي الغالب كانت الأمور ستبقى على هذا النحو لو لم يكن قد ربط النظرة الملتهبة في عيون ذلك 'الشخص' بيقين المجاهدين المتحمس: «هل رأيت عيون أحمد شاه مسعود؟».

يومئ سيزمار برأسه . .

لا يتذكر سافاتسكي الفترة الزمنية التي احتاجها للرد، ولكنه يتذكر جيدًا أن كريم لم يستعجله . . اختفى الآخرون واحدًا يلي الآخر في حجرة الصلاة . . قال في وقت ما: «أريد أن أتعلم شيئًا عن الإسلام» . . نظر كريم إليه، بلطف وتشكك، فكر للحظة وقال بعدها: «أستطيع أن أساعدك، انتظر حتى تنتهي الصلاة» . . شعر سافاتسكي بحمل أزيح عنه . . جلس على كرسي وفكر: «أنا أخرف، ولكن هذا ليس جديدًا عليَّ» . . الجديد هو شعوره بنوع من الراحة النفسية . . رفعت قوة مجهولة جرسًا عنه كان يحدد له حياته السابقة . . بات يتنفس هواءً آخر . . شعر في الوقت نفسه بألفة غريبة كما لو أنه عاد بعد عقود في الغربة إلى موطنه الأصلي . . تصفح كراسات مختلفة، اكتشف أنه معجب بالخط العربي وأنه يريد أن يتعلمه . . كم كان يرغب في أن يضع ورقة في الآلة الكاتبة ويكتب كلمة ليس لها وجود . . يقع كتيب مهلهل في

يده «الإسلام خيارنا» . . يحكى عن أسماء معروفة فى الغرب – لم يكن يعرفها هو – عن اعتناقهم الإسلام وحياتهم كمسلمين . . ما قرأه كان له وقع قوى ومربك.

جاء كريم بعد انتهاء الصلاة مع صديقين له: «هذان عبد الحق وعمرو . . نحن نسكن معًا . . يمكنك زيارتنا إن أردت . . أعرف بعض الأمور عن الإسلام» . . يقول عمرو: «يحفظ كريم القرآن كله تقريبًا . . »، ينظر كريم إلى الأرض ويقول: «نتقابل مع آخرين كل أربعاء، نأكل معًا ثم نتحدث عن الدين . . أنت مدعو على الرحب والسعة» . . كتب له العنوان: «الله لا يشرح قلوب كثيرين فى ألمانيا للإسلام . . هذه هبة عظيمة . . سوف تجد الطريق إن شاء الله».

يسأل سيزمار: «وماذا عن الأب؟».

«لا أعلم . . أعتقد أنه عاد إلى منزله».

اشترى سافاتسكى فى اليوم التالى مصحفًا صغيرًا بلغتين كان ثمنه عشرة ماركات . . حمله بانفعال عبر الشوارع، كانت دقات قلبه تتسارع عندما دخل به الشقة، مسح المائدة وأخرجه من الكيس الورقى . . وزنه برفق بين يديه كما لو أنه كان يشعر بوزن كلماته، تتبع الخطوط المتداخلة للخط ذى اللون الذهبى . . بعد مرور نصف ساعة فتح الكتاب وبدأ يقرأ . . لم يفهم شيئًا.

يقول سيزمار: «إذن لستُ الوحيد، تصورت أن المشكلة تتعلق بى».

«كم من الوقت أخذته لهذه المهمة؟ ساعة؟ ساعة ونصف؟ أناس مثلك يعتقدون أن كل شىء يجب أن يمشى سريعًا .. عبور سريع، وضع علامة على بعض المواضع، لقد فهمت، أستطيع أن أصدر أحكامًا، ليست مثمرة، إلى الفقرة التالية .. قد يفلح هذا عند قراءة جريدة بيلد».

«لقد حاولت أكثر من مرة».

«ولكن دون ثقة».

«كيف يمكننى أن أثق فى شىء لا أعرفه».

«أنت تثق كل صباح فى اليوم الذى سيأتى ... وإلا لن تنهض من فراشك».

يضع سيزمار جبينه بين يديه ويهز رأسه .. يجلس أمامه رجل قطع كل علاقاته بالماضى ليقتل على أثر لوثة دينية ويدمر أحد أعظم الآثار لتاريخ الإنسانية، قَبل أن يموت فى سبيل ذلك، يتصرف كما لو أن إعدامه لا يهمه ويحكى - كمبرر - قصة مشوشة يبدو أنها ستنتهى بوقوعه فى حب فتاة ذات شكل أجنبى فى الشارع .. بدلًا من دعوتها إلى السينما أو إلى الطعام يتخذ خطوات عبثية لن تؤدى إلى شىء .. يلتقى بعد ذلك صدفة بمجموعة من العرب الذين يتوددون إليه - أيًا كانت الأسباب - ويبدأ فى قراءة كتب دينية لا يفهمها، ويقتنع فجأة بأنه يحمل داخله قلب محارب من البدو . سيسمع فيما يلى صوت الله: «يوخن يا ابنى ارجع إلى طريق الهداية، اسمك من الآن هو عبد الله» . ربما كان قد تفهم

مأســاة حب ممنوع بين مصــرية جميلة ومدمن فقد عقله . . ثورة مشــاعر بلا أى رؤى مســتقبلية . . العقل خارج نطــاق الخدمة، آمال مجنونــة، رؤى حالمــة، أمور معتادة عندمــا يرغب رجل فى امــرأة . . فى هذه الحالــة فالكارثة مقبلة بالتأكيــد . . عالم كل واحد منهما بعيد تمامًا عن الآخر، لن تتقبل أسرة الفتاة هذه العلاقة أبدًا، يبعدونهما عن بعض بعنف . . ينكسر الاثنان، كل واحد على طريقته؛ هى تستســلم وتقبل تزويجها برجل من بلدها يختاره أبوها وتشــعر بالمرارة . . هو يهــرب إلى الحرب متخــذًا قرارًا برمى حياته التى لم تعد ذات معنى . . قد تكون هذه قصة يستطيع سيزمار أن يفهمها حتى إن كان لا يتقبل نتائجها.

يسأل: «وماذا عن هذا الشخص الأول؟».

رد فعل سافاتســكى فظ، يكنس بيده الســؤال من على المائدة، ليس الحب ســببًا يليق بالمحارب فى سبيل الله . . بدلًا من المشاعر الحساســة والحس المرهف شعارات قوية وصداقة بين الرجال . . إنها تمنــع الفرقة ولو لفترة محددة: «الإســلام دين بســيط . . إنه يســهل الأمور على الإنســان . . يرشــدنا إلى طريق الهداية الذى يتيــح لنــا أن نعيش فى وئام مع إرادة الله . . ينشــأ عن هذا ســلام داخلى . . معنى الإســلام: **لا إله إلا الله محمد رسول الله** . . هذا يكفى . . يجب تقبل بعض القواعد البسيطة».

واحدة منها تقول: «اقتل كل من يفكر بأسلوب مختلف عنك» . . يصرخ سيزمار.

يتوقف سافاتســكى عن الحديث للحظــات ويقول دون أن يرفع

صوته: «عندما نتلقى هجومًا مسموح لنا بأن ندافع عن أنفسنا».

«فعلًا؟ ومتى كان هناك هجوم على مسجدك؟».

«أى هجوم تتحدث عنه؟».

«لم يكن هناك هجوم !لا هجمة بوليسية عنيفة باعتقالات عشوائية ومكاتب مُدَمَّرَة ومصابين! إذًا تدافع عن نفسك ضد أى هجوم؟»، يسمع سيزمار للحظة والده يصرخ أمام التلفاز: «وما علاقة فيتنام بمحل مشتروات فى فرانكفورت؟».

«ألست سياسيًا دوليًا ودبلوماسيًا ناجحًا؟ أتريد أن تقنعنى حقًا بأن احتلال فلسطين وحرب العراق ومسألة احتكار احتياطى النفط ودعم الغرب للمملكة السعودية الفاسدة ووضع قوات أمريكية فى بلد الأراضى المقدسة وإمدادها عن طريق القاعدة الجوية فى راين-ماين، أن كل هذا مجرد ظواهر منفصلة؟ بصرف النظر عن هذا؛ دس جاسوس داخل مجموعة من المؤمنين هو فعل عدوانى».

يغضب سيزمار.. لقد فقد للحظة زمام الأمور.. يجب ألا يحدث ذلك.. يجبر نفسه على الاحتفاظ بهدوئه ويُقر: «بالطبع هناك علاقة ولكنها أكثر تعقيدًا من إمكانية تحليلها الآن».. سيفسر سافاتسكى هذا التصريح على أنه تراجع.. يشعر سيزمار بطعم حموضة فى حلقه ويسعل ليريح أحباله الصوتية.. المسألة لا تتعلق بمن يقول الحق ولكن بمعرفة خلفيات سافاتسكى ودوافعه.. مع قليل من الحنكة يمكنه التوصل لمعلومات قيمة عن الهياكل التنظيمية

للجماعات المتطرفة فى ألمانيا . . قد يتطلب الأمر أن ينحى قناعاته جانبًا: «لا يمكننا الآن أن نحسم هذا الأمر بشكل نهائى . . ».

«ضعيف . . فى منتهى الضعف».

«إذن قمت بزيارة كريم وشرح لك الإسلام. . . . ؟».

«لا يخطر ببالك أكثر من ذلك؟».

«ليس لدينا وقت لمناقشات سياسية جوهرية . . . للأسف . . . كان كريم إذن هو الأساس وليس»الشخص» الذى ذكرته فى البداية؟».

«الاثنان معًا».

يزور سافاتسكى لقاءات كريم الآن بشكل دورى، إنها الميعاد الوحيد المنتظم فى حياته . . بدأ يتعلم اللغة العربية وأنهى دورة تدريبية فيها، اشترى كتبًا وشرائط للتعلم الذاتى . . كان كريم يعطيه دروسًا إضافية . . تدرب على المحادثة كلما سمحت الظروف بذلك؛ كان حتى طلب ساندويتش فلافل عند اللبنانى موقفًا ملائمًا لممارسة المحادثة . . كانت المجموعة تتكون بشكل أساسى من شبان ذوى أصول عربية يدرسون تخصصات فى الهندسة والعلوم . . كان كريم يدرس الهندسة المدنية . . اتضح أن «الشخص» كان أيضًا ينتمى إلى هذه المجموعة . . قُدِّم إليه هذا الشخص فى يوم الأربعاء من الأسبوع الثالث . . تجاذبا أطراف الحديث . . كان حوارًا عميقًا وبه ألفة غير متوقعة للقاء الأول.

«ألم تشترك النساء أيضًا؟».

يدرك سافاتسكى ما يلمح إليه سيزمار . . وبما أنه يجهل محتوى الملفات، يجيب بموضوعية: «بلى . . ولكن ليس فى حالة مناقشة قضايا عسكرية».

«يُذْكَر اسم أروى مشرودى بشكل متكرر فى الملفات».

يبقى للاسم وقع رنان فى الغرفة . . صوت صرير للكرسي . . يحملق سافاتسكى إلى سيزمار كما لو أنه يسأل نفسه من منهم فقد عقله . . يهمس: «ليست هى . . لطفك يا رب» . . تلك العبارة موجهة لشخص آخر . . يلحظ سيزمار ذاكرة سافاتسكى وهى تعمل جاهدة . . يحاول أن يتذكر المواضع التى قرأها سيزمار عليه ومعها سياق الأحداث الواردة بها . . لم تحضر أروى الحوار المتعلق بإمكانية الهجوم على القاعدة الجوية . . ماذا حكى لها فى مواقف أخرى؟ «أنا لا أصدق» . . يرجع سيزمار بظهره إلى الخلف . . من الممكن أن يساعده فى التخلى عن ظنونه . . يعرف أن هيئة حماية الدستور لم تحاول قط تجنيد أروى مشرودى، ولكنه لا يفصح عن ذلك . . يجب أن يشعر سافاتسكى بأن البساط ينسحب من تحت قدميه وأن يساوره الشك فى كل يقين . . ولكن يبدو أنه وجد نقاطًا تدعم براءتها، يتنفس الصعداء ويبدأ: «ليس لها أى علاقة بذلك . . على الإطلاق».

«ولكنها شاركت فى لقاءاتكم . . . وكانت على اتصال خاص ووثيق بك».

«كانت تساعدنى فى تعلم اللغة العربية . . ليس هذا ممنوعًا» .

«إذن لم تكن بحاجة إلى التربص بها على باب المنزل» .

ينظر سافاتسكى إليه . . يبدو وجهه من الورم غير طبيعى ، عنيفًا مثل بلطجى . . إنه عنيف بالفعل: «ماذا تريد حقًا؟» .

«أود أن أفهمك» .

«لماذا؟» .

ينظر سيزمار إلى ساعته ليتفادى النظرة الموجهة إليه . . لم يبقَ لهم سوى بضع دقائق . . كم يمضى الوقت سريعًا! لا تتواءم الأمور . . يشعر بأنه خسر بجدارة . . سيلتقى بفرنسواز على الغداء بعد ثلاث ساعات . . يود أن يعرف رأيها . . يجب قبلها أن يخبر رؤساءه ويرسل تقريرًا لوزارة الخارجية . . ماذا عساه أن يكتب؟ إنه يناطح حائطًا منيعًا؟ لديه فجأة رغبة مجنونة فى أن يحكى لسافاتسكى عن نفسه تمامًا مثل شعوره كبروتستانتى برغبة وهو فى روما أن يسجد على كرسى الاعتراف ويحكى لرجل دين لا يعرفه قصة حياته ، أو أن يتحدث إلى فتاة ليل يابانية لا تفهم كلمة وتصب الشاى بدلًا من أن تخلع ملابسها . . هذا جرح مفتوح يخفيه عن الآخرين . . لدى فرنسواز فكرة عنه . . أحيانًا يكون ذلك مفيدًا ، وأحيانًا يزيد الأمر سوءًا . . سافاتسكى يمسك بآلة حادة ويعبث بها داخل جرحه: «نعم . . لماذا؟ هذا سؤال جيد» . . يمكنه أن يكون راضيًا عن حياته ، لماذا ليس الأمر كذلك؟ إنه يحب وظيفته . . يبقى له على الرغم من ساعات العمل

وقـت للفن والأدب والموسـيقى . . ولكن نادرًا ما يلمسـه شـىء فـى الآونة الأخيرة . . يسـتطيع أن يشـترى كل ما يحبه، لوحات وأنتيكات وإصـدارات أولى لكتب؛ ولكن لا يستمتع بها . . زوجته جذابة . . يعيش فى مدينة جميلة . . تحقق كل شىء تمناه لنفسه وهو فى الخامسـة والعشرين . . كانت السنوات التى سبقتها تحوم حول أشـياء أخرى من الصـعب إدراكها: «أحاول أن آخـذ انطباعًا . . حتـى يمكننى إقنـاع الجهات المعنية بـأن تُحَاكَم فـى ألمانيا وليس فى مصـر . . لقد نشـأت فى ألمانيا وتربيت على المسيحية فى بيئة برجوازية وفقًا لما فهمته من الملفات»، يسـمع سيزمار نفسه وهو يتحدث ولا يعلم إذا كان يجب عليه تصـديق ما يسـمع: «وماذا عن أبيك؟»، يكتفى سافاتسـكى برفع حاجبه الأيمن . . «حسـنًا، ليس له دور . . نشـأتك كانت ذات صـبغة غربية . . حتى اللحظة التى اهتممت فيها بالإسـلام كنت مثالًا لقطاع محدد من جيلك . . سواء رأيـت ذلـك أم لا . . جيل مختلـف تمامًا عن جيلى بالمناسـبة فاقد للثقة، لا يهتم بالسياسـة، أنانى، لا ينشغل بشىء سوى نفسه . . لا يوجد أى منطق لمحاكمتك فى مصر».

«ما تقوله كلام فارغ وأنت تعلم ذلك».

«يمكننى على الأقل أن أقدم هذه الأسـباب على المسـتوى غير الرسمى . . قد تكون هذه التفاصيل الشخصية والخاصة ذات أهمية فى ظروف محددة . . لو شـرحت للوزير تطور حياتك فى سياق مختلف ربما يرى أنك انحرفت بعيدًا عن الطريق ولكنك فى النهاية لو تمكنت من إقناعه أنك انزلقت إلى التطرف بسبب حب مأساوى، ربما يلمسه هذا بشكل ما فيعدل من قراره».

«هذا عبث».

«يبقى الأهم بالطبع ألا وهى قضية ضدك فى ألمانيا بسبب الإعداد لهجوم على مطار راين ماين، تم رفعها قبل القبض عليك».

«ولكن تقول الملفات إنه تم التخلى عن هذه المخططات».

«هناك وسائل وسبل متاحة».

«أتقصد أنهم سيحققون معى بأثر رجعى فى شىء لم يحدث من الأصل؟».

«هل أحببت أروى مشرودى؟».

يصمت سافاتسكى.

«لا يُسْمَحُ لمسلمة بأن تتزوج بكافر، أليس كذلك؟ لكى تكون معها كان يجب أن تعتنق الإسلام؟».

«أتعتقد حقًا أنهم سيسلموننى لو قلتَ للنائب العام: كاد سافاتسكى يتزوج مصرية؟ بالتأكيد سيرغب فى إعدامى عن حق».. يضحك.

«على الأقل سيفسر بعض الأمور بشكل أوضح».

«ربما بالنسبة لك».

«عندما تحب إنسانًا تريد أن تبقى معه بشكل قوى... أنت لا

تبتعد هكذا بهذه البساطة».

«اسمع؛ أنا لا أعرف ما طبيعة المشكلات التى تعانى منها . . . أزمة منتصف العمر أو أى عقد نفسية، ليس لدى أى فكرة . . . ربما شاهدت أفلامًا رومانسية من هوليوود أكثر من اللازم».

«المسألة تتعلق بإخراجك من هنا وأنت على قيد الحياة وأصبح هذا الأمر غاية فى الصعوبة».

«أنت تضيع وقتك».

«وماذا عساى أن أفعل من وجهة نظرك».

«اُدْعُ».

«وهل سيرقق الله قلوب القضاة ؟».

«هل دعوت من قبل؟ هل تعرف ما الدعاء؟ عندما تناجى الله ويستجيب لك . . يحتاج هذا أيضًا إلى وقت . . تمامًا مثل القرآن . . وثقة . . لأنه يستجيب . . لا أحد يعرف متى . . وليس فى عبارات . . ولكنك تلمس الإجابة . . لا مجال للشك . . تعلم أنه موجود ولا وجود لشىء غيره . . تقبل بقسمته لك . . وتحمده عليها . . هذه وذاك أمور جيدة على حد سواء».

سرى خاص - محظور التداول، ولايتم الاطلاع عليه إلا بمعرفة المختص

عاجل جدًا

من القاهرة

2 ديسمبر 1993، الساعة الثانية عشرة وست وأربعون دقيقة بعد الظهر حسب التوقيت المحلى.

موجه إلى: وزارة الخارجية، قسم 301.

موجه أيضًا إلى: رئيس ديوان المستشارية الألمانية، وزارة الداخلية.

رقم الملف: 716 الشئون القانونية والقنصلية.

حرر من قبل: سيزمار.

بخصوص استدعاء السفير إلى وزارة الداخلية المصرية بغرض إطلاعه على نتائج التحقيق فى قضية الألمانى يوخن عبد الله سافاتسكى.. وتخلل ذلك: إنكار تهمة التعذيب.. وأيضًا النظر فى فرص نجاح طلب التسليم المقدم من قبل الحكومة الاتحادية.

يتعلق الموضوع هنا بتصريح وزير الداخلية المصرى بأن اشتراك سافاتسكى فى هجوم يوم 14 نوفمبر 1993 تم إثباته بدون أدنى شك.. يبدو أن جسامة الفعل وضرورة تحقيق الأمن للبلاد يجعلان اتهام سافاتسكى أمام محكمة عسكرية مصرية شيئًا حتميًا،

خاصـــة أن هناك اشتباهًا باشتراك سافاتسـكى فى الإعداد لهجمات أخـــرى . . أكـــد الوزير أن وزارة العدل المصـــرية ســـوف تقوم بتوكيل محام لينوب عن سافاتسكى وذلك بعد إنهاء التحريات . . تم رد اتهام السـفير الذى صرح به يوم 30 نوفمبر 1993 بتعذيب سافاتسـكى . . إلى جانب ذلك تم تقييم فرص سافاتسكى فى عملية التسليم وأيضًا تطوير رؤية لدعم التعاون بين البلدين .

-للاطلاع-

الفقرة الأولى

ملخص:

استدعى وزير الداخلية المصرى حسن الألفى السفير للحوار اليوم فى الساعة العاشرة والربع حسب التوقيت المحلى، حتى يشرح له مسار التحقيقات ضد المواطن الألمانى يوخن سافاتسكى.. وحسب ما ورد فلا يوجد شك الآن فى تورط سافاتسكى فى أنشطة إرهابية مع جماعة الجهاد بخلاف اشتراكه فى الهجوم الذى أحبط فى الأقصر يوم 14 نوفمبر 1993؛ فيما يتعلق بالنقطة الأخيرة فقد انتهت عملية جمع الأدلة وجار إعداد مذكرة الاتهام.. سوف يتم فحص طلب التسليم المقدم من جانب الحكومة الاتحادية إلى الحكومة المصرية بتأنٍ وإن كان الرفض هو الأرجح فيما يتعلق بهذا الشأن.

كانت الإجابة بالنفى القاطع على السؤال الذى طرحه السفير يوم 30 نوفمبر، مع رجاء بالتفسير حول استخدام عنف جسدى ضد سافاتسكى فى محبسه 1993.

اسْتُقْبِلَت مقترحات الحكومة الاتحادية المتعلقة بدعم التعاون بين البلدين فى توسيع مجال تكنولوجيا الطاقة الشمسية وإمكانيات الدعم وفق اتفاق شراكة فى مجال الصناعة الدوائية باهتمام بالغ من قِبَلِ الحكومة المصرية.

-الفقرة الثانية-

التفاصيل:

أولًا: استدعى وزير الداخلية المصرى حسن الألفى السفير اليوم الموافق 2 ديسمبر 1993، فى الساعة العاشرة والربع حسب التوقيت المحلى لحوار آخر؛ وذلك لإخطاره بمسار التحقيقات الجارية فى قضية المتهم إرهابيًا - المواطن الألمانى يوخن عبد الله سافاتسكى، وفيما ورد يشير كثير من الأدلة وأقوال الشهود إلى أن سافاتسكى قد قام بالإسهام لوجيستيًا فى التخطيط والإعداد لأعمال إرهابية فى صعيد مصر وذلك قبل هجوم 14 نوفمبر 1993، فيما يتعلق بهجوم الأقصر فقد انتهت عملية جمع الأدلة وجارٍ إعداد مذكرة الاتهام، ولكن من المتوقع إضافة نقاط إدانة جديدة.. وبسبب الوضع الأمنى المضطرب فى البلاد والذى ازداد تعقيدًا مع الهجوم على رئيس الوزراء عاطف صدقى يوم 25 نوفمبر 1993، باتت - فى الوقت الراهن - المحاكمة العسكرية لجميع المشاركين والمعتقلين فى جريمة الأقصر التى أحبطت أمرًا حتميًا .. وكما هو متبع فى حالات مماثلة فى الماضى القريب، فالحكومة والنيابة العامة العسكرية تعملان على بدء الجلسات فى أقرب وقت .. مكان التحقيق سوف يكون فى القاهرة.

ثانيًا: أكد وزير الداخلية أنه سوف يُوَكِّلُ محاميًا لسافاتسكى تختاره وزارة العدل المصرية فى وقت مناسب قبل بدء المحاكمة.. رُفِضَ مجددًا طلب السفير الواضح بمنح المتهم حق اختيار من ينوبه فى الدفاع عن نفسه وذلك بالتعاون مع السفارة،

وقد جاء الرفض بالإشارة إلى القوانين الخاصة المُطبقة لمكافحة الإرهاب . . وبما أن الهدف الأعلى هو تسليم سافاتسكى ، تغاضت السفارة فى هذا السياق عن أى تهديد بعواقب محتملة.

ثالثًا: ذكر وزير الداخلية أنه تحرى أمر الاشتباه الذى عبرت عنه السفارة يوم 30 نوفمبر 1993 ، بتعذيب بسافاتسكى فى مسجنه وأنه يستطيع بعد مساءلة الجهات المسئولة نفى ذلك. . توجد تعليمات مشددة لموظفى السجون فى البلاد بأن يلتزموا بميثاق الأمم المتحدة لحقوق الإنسان وباتفاقية جنيف، وإن كان أمر المقبوض عليهم – فى يقين حكومته – غير متعلق بالمرة بأسرى حرب وإنما بالأحرى بمجرمين . . وكان رد الوزير على السؤال المجدد للسفير بتفسير الورم والتجمعات الدموية بالوجه وضعف الحركة الجسدية للمحبوس الألمانى وأيضًا آثار التألم الواضحة عليه، ببساطة أن يمنحه بعضًا من الثقة فى تلك النقطة بدلًا من منحها لمجرم بطبيعته سوف يهدف إلى تشويه سمعة أجهزة مكافحة الإجرام.

رابعًا: فيما يتعلق بالسؤال حول فرص طلب الحكومة الاتحادية بالتسليم كان رد وزير الداخلية على هذا المطلب غير محدد . . من ناحية شرح – بشكل قاطع – أن الوضع الأمنى حرج فى مصر وضرورة استكمال المسار المتبع بالتعامل بشدة ودون استثناء مع المجرمين الإسلامويين؛ هما العنصران اللذان يقفان فى طريق تسليم سافاتسكى، ومن ناحية أخرى أكد عدة مرات اهتمام بلاده باستكمال العمل المشترك المليء بالثقة مع ألمانيا على المستوى السياسى وأيضًا الاقتصادى . . أكد أن طلب الحكومة الاتحادية

سـوف يُنظر فيه فى وقت ما مع أخذ كل العوامل فى الاعتبار التى تؤثر فى شـأن معقـد كهذا، وأنه سـوف يتخذ القرار على أسـاس الصداقة المشتركة بين البلدين التى دامت سنين طويلة.

خامسًـا: أشـار الوزير إلى أنه تحت ظروف معينة وفى حال صـدور حكم المحكمة المصـرية على المواطـن الألمانى بالإعدام يمكن تحويله إلى سـجن مدى الحياة، ولكنه أشـار أيضًـا بقوة إلى أن خطوة كهذه سـوف تخلق سابقة قضـائية قد تحبط الأثر الرادع للأسلوب الصارم المتبع حاليًا فى التعامل مع المجرمين.

سادسًـا: أضـاف الوزير فى هذا السـياق أنه بخلاف مشاريع دعم التنمية الحالية؛ فإن تفكير الحكومة الاتحادية فى الدعم النشـط للتعـاون الثنائـى بين الدولتين خاصـة فـى مجـال التكنولوجيات المستقبلية؛ قد لاقى قبولًا عاليًا عند الرئيس مبارك.. ترحب بلاده بالدعم المكثف باسـتثمارات شـركات ألمانية فى مجال الصـناعة الكيميائية على سـبيل المثـال من خلال إجـراءات تأمين الائتمان التجارى.. ونظرًا للوضع الراهن فيوجد أيضًا احتياج للتكنولوجيا الأمنية الألمانية وبالأخص للتصـدى للمخاطر الإرهابية فى مجال المرور الجوى.. أشار الوزير، صـراحة، إلى المكانة البارزة للمنتجات الألمانية فى المراقبة بالأشعة وأيضًا كشف المتفجرات.

-الفقرة الثالثة-

التقييم:

أظهرت عملية استدعاء السفير إلى وزارة الداخلية المصرية واستعراض الثقة فى النفس من قبل وزير الداخلية حسن الألفى مجددًا، أن مصر فيما يتعلق بأمر المواطن الألمانى سافاتسكى؛ هى وحدها سيدة الموقف فى الإجراءات .. وعلى الرغم من السؤال المتكرر فلم يُجِبْ وزير الداخلية عن طبيعة الاتهامات القطعية الموجهة لسافاتسكى بخلاف مشاركته فى ضربة الأقصر .. تريد مصر على الأرجح بذلك فى المقام الأول تعزيز موقفها فى المفاوضات .. الأداء الاستعراضى المصحوب بتأرجح وزير الداخلية بين القرار الحاسم بالالتزام بالتطبيقات الصارمة المتبعة من ناحية ومن ناحية أخرى التلميحات المتفرقة بالاستعداد للتفاوض؛ يرجح كفة استنتاج أن الحكومة المصرية لم تقرر– بشكل نهائى – بعد كيفية تعاملها مع المواطن الألمانى .. ووفقًا لرأى السفير الذى أكده نائبه فإن الحكومة المصرية تميل فى الوقت الحالي– حتى فى قضية المواطن الألمانى إلى عدم الموافقة على اتخاذ إجراء استثنائى على الرغم من العروض الموسعة من قبل الحكومة الاتحادية .. من وجهة نظر السفارة يوجد سببان رئيسيان لذلك، أولًا: تفسير الحل الوسط فى قضية سافاتسكى من قبل الإسلامويين على أنه مؤشر للضعف ومن ثَمّ يشجع المجرمين على أفعالهم، وثانيًا: سوف يُعْتَبرُ السماح بالتدخل عند الرأى العام المصرى على أنه مؤشر آخر لانسياق حكومة مبارك إلى الغرب .. فى حال تسليم سافاتسكى من الضرورى اهتمام الجانب

الألمانى بمنع حدوث كلا الأمرين؛ حيث إنهما يوصلان إلى معنى واحد وهو عملية إضعاف أخرى للحكومة المصرية والرئيس مما قد يزيد من اضطراب حال البلد . . وعلى الرغم من الأسباب المذكورة فلا تستبعد السفارة أن الموقف المتصلب للغاية لوزير الداخلية؛ هو محاولة للحصول على خدمات مقابلة على نطاق أوسع من ألمانيا فى حال فتح باب التفاوض .

وفيما يتعلق بالاشتباه فى تعذيب المواطن الألمانى فالتهديدات حسب تقييم السفارة غير مجدية فى الوقت الحالى، كما أن الاتهام لا يمكن أن يستند فقط إلى رؤية العين المجردة للسفير وتقارير عامة لمنظمات مستقلة لحقوق الإنسان ترصد انتهاكات السجون المصرية ضد المجرمين الإسلامويين . . سافاتسكى نفسه امتنع عن الإدلاء بأى أقوال فى هذا الشأن . . يظهر تكوينه الشخصى أن اعتزازه بنفسه يعد أكبر من اعترافه بتلك الإهانات، كما يمكن وصف هذه الانتهاكات دون شك، وذلك على الرغم من وضعه الميئوس منه.

ويَفرِض نفسه أيضًا شَكٌّ فى أن سافاتسكى تعرض لضغط شديد حتى لا يبوح للسفير بأساليب التعذيب التى اُستُخْدِمَتْ ضده.

كلاوس سيزمار (السفير)

الأوضاع سيئة، هذا ما اتفق عليه الجميع، سيزمار ورؤساء الأقسام التابعون له وفريق إدارة الأزمة . . لقد صرخ وكيل الوزارة في الهاتف: «فليعدموا هذا الوغد، ولكن في أقصى سرعة حتى نتخلص منه» . . لم يقصد هذا بشكل جاد . . انْصَبَّ غضبه على أسلوب المراوغة الذي ينتهجه المصريون وينبع من شعور أساسي بالعجز . . انتهت بالأمس في الجزائر مهلة إنذار أخير منحها الإسلامويون للأجانب، مطالبين بمغادرتهم البلاد أو قتلهم . . لا توجد بالطبع علاقة مباشرة لسافاتسكي بهذا الأمر؛ ولكن لن يزيد الاستعداد لمساعدته في ظل هذه الظروف.

يجلس سيزمار في الكافيتيريا . . يعبث بقطعة كعك البرتقال الذي أمامه؛ مدركًا أن تناول الحلويات مع القهوة سيسبب له حموضة.

قال الدكتور (فريبة): «بالطبع لا يريدونه في بون» . . أضاف (كلوسن): «ولكن يجب عليهم أن يريدوه، شاءوا أم أبوا» . . انتهت المناقشة بهز الأكتاف، كان سيزمار هو الوحيد الذي لم يهرب من الموقف بالسخرية . . إنه أيضًا الوحيد الذي يعرف سافاتسكي . . تم توجيه اللوم إليه بسبب ذلك . . ولكنه قرر إبقاء الأمور على وضعها . . لديه أسباب موضوعية وشخصية لذلك . . يضع بالطبع الالتزام المهني في الاعتبار . . سيزمار مقتنع بأن سافاتسكي سيحكي له على انفراد أمورًا أكثر مقارنة بوجود شخص ثالث . . يحاول أن يدعم مناخ الثقة . . يتطلب ذلك نوع من الانفتاح الفكري من جانبه ولا يريد أن تُنْشَر هذه الأمور في السفارة . . يجب ألا يعرف أحد شيئًا عن أفكاره وهو طالب . .

انقلب الرأى العام على مواقف حركة عام 68 منذ زمن بعيد . . حديثه وهو فى العشرين يسبب له حرجًا اليوم ولكن ما زال التشكك يسكنه . . يتذكر شعوره عندما زار (سارتر) (بادر) فى محبسه بشتامهايم بينما كان سيزمار يكسب أول قضية لدعوى إخلاء باسم شركة (نوفا) للبناء ضد ثلاثة مستأجرين أرادوا منع هدم بيتهم . . كتبت جريدة (بيلد) فى عناوينها: «سارتر - قلبه أحمر داكن وإلهه العدم» . . شىء مخيف كيف تنطبع الأمور فى الذاكرة . . تفتح صندوقًا قديمًا وتجد سلمًا صغيرًا فتعود طفلًا، كان يحبس الضفدع داخل البرطمان الزجاجى . . بعد إعلان صدور الحكم تربت الأيادى على كتفه ويتلقى التهانى . . اضطر المدرس المحال إلى المعاش إلى مغادرة المسكن وسوف يحتقره حتى فى موته . . فى وقت لاحق بكافيتيريا المحكمة مع تناول المياه المعدنية، تنشر الجرائد اليومية: سارتر بعينيه المكبرتين بشكل مخيف خلف النظارة السميكة «أسمع حين أتكلم أصواتكم . . أسمع خطواتكم . . كل هذا ليس موجودًا هناك . . من المهم للإنسان أن يسمع ليتذكر الحياة - لا يوجد فى السجن كل هذا . . لا يسمع الإنسان سوى خطوات حارسه، من حين لآخر» . . شعر بالغثيان عندما قرأ هذه العبارات .

الأدوار موزعة بشكل واضح . . بالأمس مثل اليوم . . الفرق بين الخير والشر واضح . . من يدخل فى التفاصيل الدقيقة يُحْسَبْ على الأعداء . . يجب على سيزمار أن ينتبه وألا يبالغ وإلا سيجد نفسه فجأة على الجانب الخاطئ . . لو نقل أحد أعوانه للصحافة عبارات عنه قالها دون تأنٍ ستتخلى وزارة الخارجية عنه . . بمتابعة

عناوين الأخبار فى ألمانيا تتمنى أن يقوم محترفو الاستجواب فى سجن الحرية بتشويه سافاتسكى حتى لا يتعرف عليه أحد فى حال رجوعه إلى ألمانيا «إرهابى المخدرات؛ قام فى البداية بسرقة أمه ثم عاش عالة على حساب أموال الدولة» . . يتحدثون عن «خيانة قيمنا» . . امتزج الخوف من الإسلام بالعداء ضد الأجانب» :طلبة عرب من الإرهابيين يحولونه إلى مجاهد فى سبيل الله» ، قدم الجيران بعض الصور وباعوا قصصًا أسرية لا تحتوى إلا على أنصاف حقائق وفُصِّلت منها تقييمات شبه نفسية؛ «القاتل المسلم المجنون» ، تلتزم والدته بالصمت حتى الآن . . وفقًا للصورة التى التقطت لها فى حفل شعبى بدا مظهرها متأنقًا ولكنها تعانى من سمنة شديدة . . يعلم سيزمار أيضًا أن والد سافاتسكى كان ضابطًا للقوات الجوية الأمريكية فى قاعدة فى (هونز روك) . . لا يعلم شيئًا عن ابنه . . يتم فى الأغلب البحث عنه بشكل مكثف ليعطى تصريحًا عن الأحداث ، سوف يأتى وزير الخارجية الأمريكى يوم الأربعاء إلى القاهرة من أجل محادثات حول اتفاقية غزة- أريحا . . ليس من المتوقع أن يجد سببًا لمساندة سافاتسكى .

يبحث سيزمار عن هدوء لنفسه؛ ولكنه يخشى الذهاب إلى مكتبه . . حتى مدام صمدى تعتبر اهتمامه بالقضية إهانة . . وقعت فى الأشهر الماضية هجمات على مؤسسات قبطية ، خاصة فى محافظتى أسوان وأسيوط . . تعلم أن سافاتسكى كان هناك . . لو أن حديث وزير الداخلية صحيح فاشتراكه واردًا . . يعج كل من المكتب والأرفف وحتى الأريكة بكتب عن الإسلام ودفاتر وأوراق لتدوين الملحوظات وقصاقيص من الجرائد . . ما ليست

له علاقة بسافاتسكى له علاقة به شخصيًا؛ صورة لإينس على نهر الراين فى إطار ذهبى، كتاب «صالح حتى عام1999 » للكاتب (رومكورف)، طفايات من بلدان مختلفة، مليئة مثل الصورة على غلاف الكتاب.

الكعكة جافة وليس لها سوى طعم السكر.

التفكير فى شىء آخر، محو الاسم من الذاكرة، الجلوس لمدة نصف ساعة دون مسئولية عن سجين أو عن امرأة، دون أفكار على الإطلاق، صور جوية لهضبة (لوريلي) وبوابة (براندنبورج) وقصر (نوى شفان شتاين)- نوم متحجر أثناء اليقظة.

يرى مدام (كليفر) وهى تقترب منه، يلصق نظره بالملفات ويضع علامة على إحدى الفقرات بشكل عفوى.. يجب ألا تجرؤ على التحدث إليه.. ولكنها تجرأت: «عذرًا على الإزعاج يا سيدى السفير.. ماكينة صنع القهوة فى غرفة انتظار السائقين معطلة، الماء لا يسخن، لقد حاولت استخدام الخل ولكن المشكلة ليست فى ترسبات جيرية بل..»، يقرع سيزمار بالقلم على قرص المائدة ويقاطعها: «لا يمكننى مساعدتك يا مدام (كليفر).. توجهى إلى السيد (بوزن إيدر) لديه خبرة فى هذه الأمور».. صوته منخفض ولكنه واضح بدرجة لا تسمح بأسئلة أخرى.

أمامه قائمة بالمشاريع الحالية للهيئة الألمانية للتعاون التقنى فى مصر.. يعرف أكبرها وزار عددًا منها واستعلم عنها وحصل على هدايا.. يسأله (كلوسن) أثناء المرور من أمامه وهو يحمل

فنجان الشاى بحرص: «هل اطلعت على تقرير منظمة العفو الدولية؟ يذكر أن الإسلامويين المعتقلين يحصلون على البرنامج كاملاً.. ضرب بكهرباء وبدون، الحرمان من النوم.. ليست أشياء جميلة.. ولكن يمكن تفهمها من ناحية أخرى».. «فكر فيما تقول»... «أعرف، أعرف»... «أنت لا تعرف شيئًا»، سيزمار لديه يقين بأنه لا يتوهم نظرة (كلوسن) الساخرة المصاحبة للفتة رافضة.. ربما كانت نبرته شديدة أكثر من اللازم.. ليس هذا هو التوقيت المناسب لمضايقة زميل ذى أهمية.. يجب أن يتحدوا ضد بون.. يجلس (كلوسن) إلى جانب السيدة (فالتر).. تنم نظراتهما الخفية عن أن حديثهما حوله.. يريد أن ينهض ويوضح أنه ينتظر مزيدًا من المجهود الشخصى والمقترحات غير التقليدية، وأن المسألة تتعلق بحياة شاب وليس ماكينة قهوة معطلة والشعور بالغرور، وأن المطلوب شىء آخر غير التنفيذ الأحمق للوائح.. لن يحصد إلا هز الرءوس بالإضافة إلى التأكيد على أن كل فرد يقوم فى مكانه بكل ما فى وسعه.

تشير ساعة الحائط إلى الخامسة وثلاثة وعشرين دقيقة مساءً.. ليست لدى سيزمار مواعيد أخرى اليوم.. يشعر بالتوتر والإرهاق.. يجب أن يعود إلى المنزل.. ولكنه لا يريد ذلك ولا يريد أن يعرف كيف قضت إينس وقتها أو أن يزيل أى سوء تفاهم.. لا يشعر باحتياج إلى الحديث مع شخص، ربما فرنسواز.. ماذا ستظن لو اتصل بها؟ إنه يريد مضاجعتها.. هذا صحيح وغير صحيح.. ربما يمكنه أن يحكى لها عن الصعوبات التى يواجهها.. اعتادت فرنسواز عدم تفهم الزملاء.. لديها تصورات خاصة عن

العمل فى الحقل الدبلوماسى . . كانت لديها فى طوكيو مشكلات باستمرار بسبب استخدام عبارات دارجة . . لا يُسْمَحْ لها بالدخول فى مجالات اختصاص سياسية تتسم بالحساسية . . ستسخر فرنسواز منه . . تسخر دائمًا من قلقه من ارتكاب الأخطاء تمامًا مثلما يسخر هو من ميلها إلى الروحيات . . قد يلتقيان فى قهوة الفيشاوى . . الجو هناك دون السائحين لطيف . . أو فى مطعم عائم فى النيل .

يذهب سيزمار إلى مكتبه ويقول لمدام صمدى أن تنهى عمل اليوم . . يأخذ جرعتين من دواء المعدة معه على سبيل الاحتياط . . إلى جانب الهاتف تبتسم إينس فى صورة لها إلى الكاميرا . . كان يقف خلف الكاميرا ولكنه لا يتذكر سبب ابتسامتها . . يدير الصورة إلى الخلف ويفرغ الطفاية التى أحضرها من كولومبيا قبل أن يأخذ سماعة الهاتف .

«جميل أن أسمع صوتك» . . تشعر فرنسواز بتردده دون أن يبوح به . . من المفترض أن تذهب لاحقًا إلى افتتاح معرض لفنان مصرى كان مبعوثًا إلى باريس . . من ناحية أخرى لم تأكل شيئًا منذ الإفطار ومن المتوقع أن تنخفض درجات الحرارة بدءًا من الغد . . ستكون الأسابيع المقبلة باردة لدرجة تحول دون الجلوس مساءً على الماء . . تحتاج إلى ساعة تقريبًا .

سيوصّل السائق سيزمار على الرغم من أنه يمكنه السير على قدميه . . يوجه شعبان تحية إليه مع سؤال عن رغبته فى تجربة قهوة باردة . . يقوم بعد ذلك بتمثيل دور الخادم المخلص

والخاضع للأوامر فيفتح باب السيارة لسيده وينحنى، وبينما يدخل سيزمار إلى السيارة يقوم بقرع الباب كما لو كان قد تشاجر مع زوجته .. ليس الأمر كذلك .. شعبان فى حالة مزاجية ممتازة اليوم .. يغنى مع أنه لا يتقن ذلك ويقول أثناء خروج المرسيدس: «القاهرة هى أروع مدن العالم» .. يتذكر على الطريق نكات قالها فنان كوميدى بالأمس فى التلفاز، نكات عن الصعايدة: يربط صعيدى بنطاله بحبل ولا يرتدى سروالًا داخليًا .. يضحك شعبان بصوت عالٍ .. لا يفهم سيزمار مغزى النكتة ويحاول سرد نكتة عن الأتوبيسات فى مقاطعة إيست فريزيا فى شرق ألمانيا؛ حيث إن عرض الأتوبيس عشرة أمتار بينما طوله متران فقط، لأن جميع الركاب يريدون الجلوس إلى جانب السائق .. يصمت شعبان وينظر إليه متسائلًا .. لقد سمع من قبل أن الألمان يفتقرون إلى حس الدعابة، يحاول سيزمار أن يشرح: «أهل إيست فريزيا فى شرق ألمانيا يمثلون لنا ما يمثله الصعايدة لكم» .. لا يصدق شعبان ذلك ويطلب كدليل نكتة مضحكة بالفعل .. يفكر سيزمار: «لماذا يحتاج شخص من إيست فريزيا إلى قطعة حجر وعود كبريت قبل أن يذهب إلى الفراش؟»، يهز شعبان رأسه .. «يكسر بقطعة الحجر المصباح ويتأكد بعود الكبريت أن النور قد انطفأ» .. شعبان مقطب الجبين: «أتضحكون فى ألمانيا على تلك النكات؟»، حسنًا، محاولة أخيرة: «ماذا يفعل شخص من إيست فريزيا تبقى لديه إبريق من الماء الساخن؟» .. «شاى؟»، «يقوم بتجميده، دائمًا ما نحتاج فى وقت ما إلى ماء ساخن – ليست هذه النكتة سيئة، يجب أن تعترف بذلك» .. يجبر شعبان نفسه على ابتسامة: «أعتقد أننى أخذت قسطًا كافيًا من النكات الألمانية».

يكتفى سيزمار بأن توصله السيارة إلى بداية كوبرى التحرير وليس إلى مدخل المطعم . . لقد وصل قبل الميعاد . . لن ينتظره شعبان ولن يأتى مرة أخرى ليأخذه . . يستطيع أن يثق فى أمانته، حتى لو رآه هو وفرنسواز ذراعًا بذراع، ولكنه سيستنكر هذا السلوك ويُشْعِرُه بهذا الاستنكار فى نظراته وتعليقاته الجانبية وأسئلته عن إينس.

تضيء المصابيح الشاطئ . . يتمشى مصريون ذوو حالة مادية جيدة مع عائلاتهم، تحاول ثنائيات شابة ألا تزعج المشهد العام فيبتعدون عن التجمع، يضحكون أو يبدو الحب لهم أمرًا غاية فى الجدية . . يتمشى رجال مع رجال متشابكى الأيدى . . تعجب سيزمار بداية من التعبير الصريح عن المثلية، إلى أن فُسِّرَ له بأنه مجرد تعبير عن مدى الصداقة التى تجمع الشخصين . . يشترى بردى من بائع جائل يدعى أنه لم يكسب جنيهًا واحدًا اليوم؛ أنوبيس على هيئة ابن آوى.

المركب الذى سيلتقى فيه مع إينس خاو تمامًا . . تقوم شركات السياحة فى الظروف العادية بحجز أماكن لأفواجها قبلها بأسابيع . . يرحب النادل به متحدثًا الإنجليزية، على الرغم من أن جميع الضيوف فى الوقت الحالى من المصريين . . ليس لسيزمار رغبة فى استقبال حافل، يريد أن يتحدث إلى فرنسواز دون إزعاج، لا يريد أن يسمع أن لغته العربية ممتازة ولا أن يحكى أنه هو وزوجته ليس لديهما أولاد . . يطلب - أيضًا بالإنجليزية - مكانًا على حافة المركب ثم كأسًا من النبيذ الأحمر الإيطالى . . يعم المكان نوع من

الهدوء على الرغم من الأصوات فى الخلفية والمقتطفات اللحنية الكلاسيكية التى يلعبها عازف بيانو عجوز ببدلة على آلة الموسيقى الإلكترونية . . لوحات بأهرامات مضاءة ، أشكال فرعونية مقلدة بين سلاسل من الأضواء الصغيرة الملونة . . فى زمن آخر وفى مكان آخر؛ بمحض الصدفة لا يتمكن (هرقل بوارو) الذى قام بدوره (بيتَر أوستينوف) من القبض على قاتل هنا . . تنعكس النوافذ ذات الألوان الفاتحة للفنادق والمبانى الإدارية على الجانب الآخر من النهر فى الماء المنهمر فى هدوء . . الإضاءة موجهة إلى برج القاهرة ، رمز لطريق مصر إلى الحداثة ، طوله مئة وخمسة وثمانون مترًا . . إنهم فخورون به . . سماء ليلية لمدينة كبرى ، لا تتخذ لون السواد . . يجمع الضوء التراب ويعكس ما تبقى منه . . يعرف سيزمار مكانًا فى حقل واسع بين (ريس دورف) و(جروبة) لا تجد الرؤية فى جميع الاتجاهات السماوية نور مصباح واحد فى طريقها . . يأتى النادل بالنبيذ . . لم يلقِ سيزمار نظرة بعد على قائمة الوجبات ويشير إلى انتظاره سيدة قادمة . . يشرب بحرص مترقبًا رد فعل معدته؛ مبدئيًا لا شىء . . يشتهر هذا المطعم بوجبات السمك . . لا يتوافق السمك مع النبيذ الأحمر . . تفضل إينس النبيذ الأبيض . . من غير المتوقع أن تأتى إلى هنا صدفة . . يجب أن يتحدث فى أمر مهم وسوف يكون فى المنزل بعد ثلاث ساعات . . سوف تأتى فرنسواز فى اتجاه خلف ظهره . . يغير لذلك مكانه . . ليس لديه فى هذه اللحظة أى رغبات أخرى ، يحملق بنظره إلى الكورنيش ويتوه .

ربما جلس بعيدًا أو اتخذت فرنسواز طريقًا آخر ، على أى حال

وجدها فجأة واقفة أمامه .. لا ترتدى فى وسط البلد حجابًا، ينتهى فستانها فوق الركبة .. تقبله يمينًا ويسارًا .. يقول سيزمار شيئًا عن«صيف متأخر» و«أمسية فرعونية» .. إنه متوتر .. لا يوجد سبب لهذا اللقاء سوى رغبتهما فى ذلك .. تقول: «دعنى أجرب هذا» .. وتحاول أن تمسك بكأسه .. يبتسم سيزمار، يلحظ ذلك فيتحكم فى تعبيرات وجهه حتى لا يبدو أحمق، «هل تعرف ماذا ستأكل؟» .. «شىء خفيف» ... «كيف حال معدتك؟»، يهز أكتافه مستجيبًا لأقداره بينما تخرج هى نظارة القراءة والسجائر من حقيبة يدها: «هل ذهبت للطبيب؟» .. «ليعطينى دواء مضادًا للضغوط؟»، «يجب أن تجرب اليوجا» .. «إنها مفيدة، تساعد على تحسين استقامة الجسم» .. لا تجد ولاعة .. تأتى رياح خفيفة من الماء .. يعطيها ولاعته .. لا تحتاج النار إلى حماية هذه المرة .. «السمك هنا جيد جدًا»، تنفخ الدخان من خلال أنفها، تلقى برأسها إلى الخلف وتثبت خصلات شعرها خلف أذنها .. لفتات سينمائية.. تقول: «ولكننى سآخذ ريش لحم الضأن مع هذا النبيذ» .. لسيزمار رجاء: «لا تطلبى باللغة العربية وإلا لن ننتهى من حديثه» .. يرى النادل أنهما قد اختارا ويقف مستعدًا .. قد لاحظ منذ فترة أن القاهرة ليست غريبة عليهم .. يوفر حماسه للسياح الذين سيرجعون فى يوم ما، إن شاء الله.

يتبادلان النظرات .. بينهما مفرش مائدة أبيض، يدان على كل ناحية، اليمنى لكل واحد منهما بها سيجارة .. يمكن لليدين الأخريين أن تتشابكا .. يوجه سيزمار نظره لأسفل حتى لا يخطئ مكان الطفاية، يتنحنح سيزمار، تأتى بعدها لحظة أخرى .. يجب

أن يبدأ أحدهما الحديث .. تقول فرنسواز: «إنه (شوبر)... تنطق» الواو «بطريقة فرنسية .. يومئ برأسه .. بعد حين: «لقد اشتريت «ورقة بردى» .. «أرنى إياها» .. «من أجل الإرهاب»، «ابن آوى .. هذا نذير نحس» .. ماذا عساه أن يقول؟ محتمل أن تكون هذه إحدى حالات التصوف التى تصيب فرنسواز أو ربما هى مزحة: «كيف حالك؟»... «ليس سيئًا»... تتوقف وتنظر إلى الماء؛ «عندنا الجميع أيضًا منفعل؛ بسبب الجزائر... يخشون من انتقال الإرهاب إلى فرنسا»... يتتبع سيزمار حركات يديها التى تذبذب الهواء بطريقة أخرى غير الرياح، إنها الكلمات... يمر بنظره على ذراعيها العاريتين لأعلى، فلتت حمالة حامل الصدر... الخط الأسود على بشرة رملية يحكى عن احتمالات... «يجب أن نفكر إذن»، «أقصد؛ كيف حالك أنت؟»، تنهى العبارة التى بدأتها: «إذا كنا سنكتفى بعبارات الاستنكار وتعزيز إجراءات التأمين .. أمعن التفكير .. فى هذا السياق تحديدًا .. أحاول أن أكتشف الخطأ الذى حدث فى العشرين عامًا الماضية؟ ما مسئوليتنا عما يحدث فى الوقت الحالى... مسئولية جيلنا؟ ألم يكن لنا هدف تغيير العالم .. لقد حلمنا بالثورة وقبلنا بالضرب والاعتقال من أجل الحرية والمساواة والتنوير .. أردنا أن نقضى على الاستغلال وأن يتم توزيع الرخاء بين الغنى والفقير بشكل عادل .. كانت لدينا قناعة بأنه سيقوم مجتمع جديد على أساس من الاحترام والتسامح .. قد يكون على قدر هائل من الروعة لدرجة أنه لا وجود لمتطلبات أخرى، يبدو أننا لم نلحظ هؤلاء الناس .. ليس فقط مشكلاتهم الاجتماعية .. ظننا أن زمن الأديان قد ولّى للأبد، أن ما من شخص ساذج يفكر فى الدنيا من

منظــور وجود أى إله أو حتى الاســتجابة لحديــث الإمام . . هكذا انتهت المســألة بالنســبة لنــا . . الآن نقف هنا ولا نصــدق ما تراه أعيننــا . . نتحدث عنهم لأنهم يهددوننا هنا أو فى مدينة الجزائر؛ أو لأن لهــم أولاد عم فــى باريس أو مارســيليا، . . ولكن لا نتحدث إليهــم . . لا نعرف ما يمكن أن نقوله لهــم . . وغالبًا لن يهتموا بما نقول . . قصــتنا ليســت قصــتهم وإن كانت الأحداث نفســها تلعب دورًا بها».

يأتــى النــادل بالنبيذ . . يقرعــان كأســيهما فيبقى لهما صــدى صــوت . . تمــر فرنســواز بأناملها علــى حاجبيها؛ «دعنــا نواجه الحقيقــة؛ لم نحقــق أيًا من أهدافنا السياســية . . للشــركات العالمية الكبــرى ســلطة أكبر من أى وقت مضــى . . يعانــى الملايين من البشــر من الجــوع ولا يمتلكــون مــاءً نظيفًا . . نــدرك ذلك؛ . . ولكننا لا نيأس ولا نكافح ضــد هذه الأوضاع» . . «أشعر بالغثيان جــراء كل ذلك ولكن لا أنهار . . . هذا خاطر يمكن أن تحتفظى به لنفســك» تنظر إليه متســائلة» هذا مجرد خاطر عارض . . «انسَ الأمر» . . «لا أدعى أننى استســلمت، بل على العكس:» لقد تعلمت ألا أعطــى لنفســى أهمية كبيــرة . . . أعلم أننى أحــرك أمورًا من موقعــى، ربمــا قليلة ولكنها تمثــل على الأقل شــيئًا . . . لا يمكننى إنقــاذ العالم . . . لقــد تخليت عن هذا الجنــون . . . بات حالى منذ ذلــك الحين أفضــل بكثيــر . . . أفعل ما أريــد . . . لا يهتم أحد بما أشترى ومع من أنام . . . فى واقع الأمر ليست قناعاتى ذات أهمية أيضًــا . . وكما تقول العبارة الجميلة "القوة المعيارية للواقع"، أو بصــيغة إيجابية :لا يمكنك تغيير الوضــع القائــم ولكن يمكنك تغيير

موقفك منه» . . أغلق سيزمار عينيه وقال: «الزملاء مستاءون الآن لأنني أتحدث إلى سافاتسكي منفردًا . . تعتقد سكرتيرتي أنني أسانده لمجرد رغبتي في منع إعدامه» . . «لن يكون لهذا السافاتسكي الخاص بك أي تأثير أيضًا، سواء حيًا أو ميتًا . . . ربما يجب أن يكون لهؤلاء الناس وجود . . . ربما كنا قد وصلنا في ظل ظروف مختلفة إلى النتائج نفسها . . . ولكن لم تكن هناك ظروف مختلفة . . . هذا قَدَر . . . يجب أن نتعلم قبوله . . . لا أعتقد بهذه المناسبة أنك ستنجح في إخراجه . . . يجب على مبارك أن يبقى صارمًا حتى لا يفقد مصداقيته . . ويجب أن تتقبل أنت هذا الأمر تمامًا مثلما تتقبل زيجتك التعيسة، وكذلك حقيقة أنك سوف تغادر القاهرة . . بعد ثلاث سنوات ستكون سفيرًا في مدريد أو كوبنهاجن، سوف يعجبك الحال هناك وزوجتك سوف تسترجع نضارتها» . . يرتجف سيزمار، ينظر إلى ساعته ويبهت وجهه: «اليوم هو الثالث من الشهر» . . . «نعم؟» . . . «هذا يعني أن غدًا هو الرابع من الشهر» . . «نعم» . . «غدًا عيد زواجي» . . «كم هو شيء جميل، ما رقمه؟» . . . «لم أشترِ هدية بعد» . . . «يا إلهي . . . الساعة الآن السابعة وعشرون دقيقة . . المحال مفتوحة حتى منتصف الليل» . . «لا أعرف ماذا أهدي لإينس» .

يقدم النادل الطعام؛ طبق كبير به لحم وأرز وأصناف مختلفة من الخضار والصلصات لفرنسواز وصينية بسلطانيات صغيرة لسيزمار . . لا يشعر بالجوع ويغمس قطعة خبز بالتناوب في زبادي متبل وحمص وبابا غنوج . . يترك الفول والسمبوسك بالجبن . . يجلس ثنائي إنجليزي – في منتصف العشرينات – على

المائدة المجاورة . . لماذا لا يتركان مسافة؟ هناك مكان كاف . . يلعب الرجل الجالس على الآلة الإلكترونية مقطوعة "من أجل إليز" للمرة الثانية . . تقول فرنسواز: «الريش ممتازة» . . يقرر سيزمار إنهاء الطعام . . «هل كل شيء على ما يرام؟» . . . «لقد شبعت» . . . «يمكنك أن تدخن إذا أردت» . . . بينما تمضغ تظهر فجأة نظرة غاضبة في عينيها . . . «ماذا بك؟» ، تستمتع للحظة بفضوله: «أستطيع أن أساعدك . . في الاختيار . . قد يكون ذلك مضحكًا» . . يبتلع سيزمار دخانًا ، يسعل لدرجة تقلب معدته . . يشعر سيزمار بغصة . . يضغط على شفتيه ، تحرقه الحموضة في حلقه . . توجد تقنية تمنع القيء الذي يحدث في وقت ومكان غير مناسب - على مائدة مطعم مثلًا بأن تبلع ببساطة - بعكس الشعور التلقائي - الطعام نصف المهضوم أولًا ثم اللعاب المتجمع ، عندما لا يكون هناك لعاب يجب الاستمرار في البلع الجاف حتى يقل الشعور بالرغبة في القيء تدريجيًا . . يتطلب الأمر أقصى درجة من التركيز . . يحمر الوجه وتجحظ العينان ويصاب المحيطون بالقلق . . بعد ذلك تنفس بهدوء بقدر الإمكان . . «لماذا لا تقول شيئًا؟» ، يحاول أن يعطي إشارة بيديه ونظراته أن الحالة أوشكت على الانتهاء ، يأخذ نفسًا عميقًا ، يتنحنح ليريح أحباله الصوتية ، يقول: «لقد دخل دخان إلى المرىء» . يبدو التوتر على وجهها . . يلوح بيده ويحاول أن يبتسم . . الغثيان والوخز سينتهيان . . دائمًا ما ينتهيان: «لا توجد مشكلة» . . تنظر إليه نظرة فاحصة . . ليس لديها الحق في القلق عليه ، إنها ليست زوجته . . هناك أيام أفضل وأيام أسوأ . . يجب على اليوم أن يكون من الأفضل حتى إن لم يبدو الأمر كذلك . . يلوح سيزمار للنادل ويطلب ماء

ليس فوارًا.. يبتسم بثقة.. وجود فرنسواز إشارة جيدة وإن كان لا يعرف مدلولها بعد.. بالتأكيد ليست بداية جديدة؛ واقعة عارضة.. القواعد غير سارية لوقت قصير.. ستطبق لاحقًا دون شروط.. يجب أن يؤخذ ذلك فى الاعتبار؛ يحتاج إلى هدية تسعد إينس.. ربما لفرنسواز فكرة قد لا تخطر على باله.. تقول: «فى الماريوت محال كثيرة - كارتيير وبولجارى وهرمس.. لديهم الأشياء نفسها الموجودة فى باريس.. لا يعجبها بأى حال شىء مصرى»... «لا.. إنها لا تحب شيئًا مصريًا»... «سوف أقدم لك المشورة».

يخجل سيزمار من أنه سعيد بفعل دنىء.. تغلب السعادة على الخجل.. ربما كانت فرنسواز محقة؛ يريد أن يفعل شيئًا ممنوعًا.. ليثبت لنفسه أن الأمر ما زال متاحًا.. من أجل الحرية.. حتى يكون لديه سبب قوى ليدين نفسه.. ولكنه يريد الآن بالدرجة الأولى ألا تنتهى أمسيتهم المشتركة بسرعة: «إن كانت لديكِ رغبة فى ذلك».. لولا فرنسواز لنسى يوم عيد زواجه.. سوف تُفَاجأ إينس إن أخرج هدية لها من جيبه.. ربما سيشرق من جديد هذا الشىء الذى أحبها من أجله.. ربما يستطيع أن يبنى عليه.. فيما بعد.. دائمًا ما تقول فرنسواز: «أحاول أن أعيش اللحظة».. بالطبع هناك غرف خاوية فى الماريوت... إنها تعرف ذلك تمامًا مثله.. لا يستجيب لرغبة مفاجئة بأن يضحك بصوت عالٍ، ويمسك بيدها.

الساعة تشير إلى الحادية عشرة والربع عندما يركب سيارة

الأجرة . . . يحمل فى بدلته علبة من كارتيير مغلفة ببساطة وداخلها خاتم من الماس.

قالت فرنسواز وهى تستعرض الخاتم فى إصبعها: «إنه يليق بى» . . ثم تغير تعبير وجهها: «كلما يقل الحب يزيد ثمن الحجر» . . زاغت عيناه: «أنا أميل إلى إينس جدًا . . إنها شخص ذو قيمة» . . أومأ إليهما خادما الفندق على المدخل وقت خروجهما . . اختفت فرنسواز فى طى الليل . . لم تقل إلى أين هى ذاهبة . . رجعت إلى حياتها، ماذا يعرف عن هذه الحياة؟

سوف يصل إلى المنزل فى غضون عشرين دقيقة . . سوف يضع هناك زجاجة شامبانيا فى الثلاجة، دون أن تلحظ إينس ذلك بقدر الإمكان . . عادة ما تكون فى الفراش فى ذلك الوقت . . سوف يحكى لها عن جلسة طارئة فى السفارة، عن المجهود الذى بذله لتفنيد اعتراضات الزملاء وفرض إرادته، ويشكو من الإجهاد . . سوف يخلع ملابسه بعد ذلك ويغتسل ويضع عطرًا ثم يسألها عن يومها . . ستكون إجابات إينس مقتضبة وسوف تبدو مجروحة ليلوم نفسه . . فاليوم هناك سبب ملموس لمرارتها الدائمة؛ إنها متأكدة من أنه نسى عيد زواجهما.

لا يتناقش سيزمار مع السائق على الرغم من أن الأجرة المطلوبة مرتفعة بشكل جنونى . . لن تصنع تلك الجنيهات العشر فرقًا كبيرًا.

تمر الأحداث مثلما تصور تمامًا . . يخرج بملابس النوم

المغسولة من الحمام، تفوح منه رائحة عطر إيطالى، يستلقى إلى جانبها، يضىء مصباحًا إلى جانب الفراش، يمسك بكتاب ويفتح صفحة بشكل عشوائى ويتظاهر بالقراءة .. تتصفح إينس مجلة .. يشعر بتوترها ويعرف أنها غير قادرة على التركيز فى أخبار النجوم، إنها تفكر فى العبارات التى ستقذفه بها فى الدقائق التالية وفى طبيعة أسلوبها، غضب أم حيرة أم حزن عميق. ينهض فى الساعة الثانية عشرة إلا خمس دقائق فتسأله: «ماذا ستفعل؟» .. يجيب: «يجب أن آكل قطعة خبز» .. وينزل درجات السلم .. يخرج الكأسين فى هدوء من الخزانة، يضعهما على صينية وبينهما العلبة .. وصل الشامبانيا لدرجة تبريد جيدة .. يفتح الزجاجة برفق فلا يصدر إلا صوت بسيط عنها .. يقف على باب الغرفة، ترمقه إينس بنظرة كما لو كان يحمل سكينًا فى يده .. لا تعرف لوهلة ماذا تفعل بهذا الغضب الذى حشدته داخلها على مدار ساعات، كانت تريد أن تخرجه على شكل صراخ أو بكاء أو حتى صمت .. يقول: «كل عام وأنتِ طيبة بمناسبة عيد زواجنا يا حبيبتى» .. تومئ إينس فقط برأسها، بينما يضع الصينية عن يده ويقوم بصب الشامبانيا يرى من الجنب أنها تمسح دمعة .. يقول: «تفضلى، هذه لكِ» .. يقدم لها العلبة: «غدًا - أقصد اليوم -يجب ألا أذهب إلى المكتب» .. تهمس إينس بكلمة شكر .. تنهض وتقبله بذهن غائب قبل أن تفتح الهدية .. «لقد انتهت لوثة السنة السابعة» ... «أتعتقد ذلك؟» ... «لقد انتهت ... هذا واقع ... القوة المعيارية للواقع»، تقولها فرنسزاز بصوته ... يتدفق الدم إلى وجنتيه ... قد يكون لذلك معانٍ مختلفة .. يتلامس الكأسان، تفتح إينس درجها وتخرج منه هُدية أيضًا .. إنها مستطيلة ومسطحة وصلبة-

سـمكها أقل من أن تكـون كتابًا . . ربما هى صـورة . . لم تجرؤ إينس أبدًا على إهدائه صـورة . . . سـيزمار سعيد بأنهما منشغلان بفتح الهدايا . . يجلسان جنبًا إلى جنب على طرف الفراش ويفتحان الهدايا برفق . . تقرأ إينس كلمة "كارتيير"، وتقول هامسـة: «لقد فقـدت عقلك» . . يبتسـم دون أن ينظـر إليها . . يبـدو أنها قامت بتغليـف الهدية بنفسـها، باهتمام بالغ لأنها تعلم أنـه لا يقطع ورقة الهدايا أبدًا . . تصرخ إينس بصوت عال عندما رأت الخاتم . . إنها منفعلة لدرجة أنها تجاهد لإخراجه من العلبة . . ترتعش يداها وهى تضعه فى إصبعها . . «هل يعجبك؟» . . . «أنت مجنون بحق» . . . تعانقه وتطبع سلسلة من القبلات الصغيرة على وجهه، تقول: «لقد تصـورت أنك . . . »، ثـم تقطع الجملة: «هيا، افتـح هديتك أنت أيضًـا»، يزيل سيزمار الشريط اللاصق، يفتح الورقة ولا يصدق مـا يراه، أمامه صـفحة مزدوجـة من مخطوطة هى جزء تفسـير للقرآن . . . تقول إينس: «ترجع إلى القرن الثامن عشـر» . . لقد تأثـر . . من ناحيـة لأنها فكرت بالفعل فيما يمكن أن يسـعده؛ لأنه يستطيع أن يتصـور كيف أنها تحاملت على نفسها لتذهب إلى تاجر الأنتيكات من أجل البحث له عن هدية هى غريبة بالنسـبة لها تمامًا ولتتفاوضـ معه على السـعر؛ لأنه يعلم أنها حتى هـذه اللحظة قلقة من أن تكـون قد دفعت مبلغًا كبيرًا من أجل شـىء مزور . . يفهم سيزمار جيدًا فى هذه الأمور ليرى أنها ليست مزورة بل هى عمل رائع ومتميز . . كتابة خالصة دون أى زخارف . . كُتِبَتْ برزانة دون تـردد ولا اسـتعجال . . أحيـط النص الأصـلى بملحوظات دونت بحبر صينى أحمر، لتُعَرِّف القارئ بكيفية فهم المواضع التى تحمـل أكثر من معنى . . من الواضـح أن القارئين الثانى والثالث

لم يتفقا فى الرأى مع التفسير الأول، وقاما بتدوين ملحوظاتهما على تفسير التفسير باللونين الأزرق والبنى . . تُرِكَتْ مساحات فارغة بين مقاطع النص . . تتيح الفرصة لمن يرغب فى إضافة تفسير آخر . . هو نفسه قد يفعل ذلك، ولكن ينقصه كل شىء لهذه المهمة . . يسأل نفسه عن سبب اختيار إينس لهذه الصفحة تحديدًا؟ هناك صفحات أكثر زينة تدركها العين بشكل أسرع . . بدلًا من الزينة الجميلة صورة لمفاهيم أربعة للنص . . ولم ينضب بعد.

ما لم تعرفه إينس أو ربما نسيته أن سيزمار يكره تلك العادة السيئة بتقطيع الكتب إلى صفحات وتباع منفردة لتجلب مالًا أكثر . . شىء مريع التصريح بذلك الآن . . يمسح على شعرها . . «هل تعجبك؟»، يعبر سؤالها عن قلق . . «لأقصى درجة».

يقترح سيزمار يوم السبت للسفر إلى شاطئ البحر؛ لأنهما بحاجة قصوى لتغيير الجو ولو لفترة بسيطة . . تستغرق فترة الذهاب نحو ثلاث ساعات . . لون الماء والسماء أزرق، لا يوجد أحد على الشاطئ . . يجلسان فى ظل شمسية، يتجاذبان أطراف الحديث فى هدوء ودون توتر . . تستلقى إينس لاحقًا وتضع رأسها على حجره . . تفكر فى إنهاء رسالة الدكتوراه . . يداعب خصلات شعرها ويرمى حبات الرمل فى سرتها فتدغدغها . . هكذا بدأت قصتهما يومًا ما . . يملأ فى المساء سحاب كثيف سماء القاهرة . . تسأل إينس مع انتهاء اليوم: «لماذا لا نقوم بذلك أكثر؟»، يجيب: «سيتغير ذلك قريبًا» . . ويضع ذراعه حول كتفها.

تغطى الشبورة المدينة فى صباح اليوم التالى . . تجلس إينس بالكيمونو الحريرى على مائدة الإفطار . . لا ترتدى شيئًا تحته . . تنحنى للأمام لتصل إلى الزبد فيرى صدرها الأيسر، متماسكًا وصغير الحجم، تلمس الحلمة قماش الكيمونو . . يقول سيزمار: «اليوم ينتهى الأسبوع الثانى للشهر الذى يسبق أعياد الميلاد ولا نشعر بأى جو احتفالى» . . «هل تفتقد شيئًا؟» . . . يتردد: «غياب شجرة عيد الميلاد وبابا نويل وموسيقى الأعياد فى كل مكان يمنحك شعورًا بالتحرر . . . ألا تشعرين بذلك؟ لا أتذكر نفسى طول الوقت كطفل . . كالطفل الذى كان بلا رغبة فى أن يكون على هذا النحو» . . تقول إينس: «أنا أحب أن أتذكر هذه الفترة . . كنا نحصل دائمًا على هدايا . . فى كل صباح قبل بداية اليوم الدراسى علبة صغيرة؟»، تغلب على ذكرى سيزمار الطقوس ونوبات غضب الأب إذا أزعج أحدهم إتمامها . . أربعة أيام أحد، كانت الأم تقرأ فى الظهيرة من الكتاب المقدس بينما كان الظلام يحل مبكرًا . . الشموع مشتعلة . . ينتابها قلق على مفرش المائدة وخوف من احتمال اندلاع حريق . . يتبع القراءة الاستماع إلى أسطوانة قديمة بألحان لـ(باخ): "استيقظوا"، نداء بصوت الحارس من أعلى سور البرج العالى، استيقظى يا مدينة بيت لحم» . . توضع حلويات منزلية ولاحقًا البسكويت بالتوابل الأصلى الذى صنع فى مدينة (نورنبرج)، كان وقتها شىء نادر . . كثيرًا ما كانت تُحْكى قصص عن الحرب، لم يفقد والداه شيئًا ولم يعانيا الجوع، ولكن تملكهما خوف لا يوصف، خاصة من الجيش الأحمر . . نما لدى سيزمار فى بعض السنوات شعور ما بالتدين . . كانت مشاعر خاطئة من وجهة نظر الأب . . كان السياق الصحيح لهذه المشاعر هو أيام

الأحد وأيام الأعياد وكذلك الالتزام بالقواعد الأخلاقية التى شملت التعامل مــع الجنس الآخر فى المقام الأول . . قيل إنه يمكنه القيام بعمل أعظم من خلال التبرع بجزء من مصــروف جيبه مع الأخذ فى الاعتبار أن الأموال لا تهطل عليه من السـماء . . تقول إينس: «لا أتذكر آخر مرة لحضــورى قداس الكنيسة، ولكن أشعر بشكل خاص وقت الاحتفال بأعياد الميلاد بغربتى فى هذا المكان».

يرغب سـيزمار فى العودة بشـكل فورى لحظة دخوله المكتب يــوم الاثنيــن . . تتمزق معدتــه من الألــم . . ليســ للمحلول أى تأثيــر ملطف . . يحتاج إلى نقط (باســبرتين) . . لن يأخذها إلا بعد استشارة الطبيب . . هناك بعض الأمور على قائمة جدول الأعمال اليوم؛ حدد وزير الداخلية حسن الألفى ميعادًا لمؤتمر صحفى ليعلن على المجتمع الدولى معلومات عن اعتقال المعتدين على صدقى . . لدى سـيزمار صـيغة مكتوبة على مكتبه . . يطلب على الرغم من ذلــك من الدكتور (لودرز) الحضــور لاســتنباط الحالــة المعنوية للوزيــر . . كثيرًا ما يعتمد اتخاذ القرار علــى الحالة المزاجية بدلًا من الأسباب . . قد يكون العلم بها مبكرًا شيئًا مفيدًا.

تحــدث الدكتــور (لودرز) وقــت الغداء عن حالــة المرح التى كانت قد بدت على حسن الألفى؛ قرأ الوزير الأسماء بنبرة انتصار وقارن بين النجاح الســريع لجهاز شــرطته والأسلوب غير المتقن للإرهابيين . . أدلى المعتقلون التســعة باعترافات مفصــلة؛ خُطّطَ للهجوم كانتقام لأحكام الإعدام التى صــدرت فى نهاية أكتوبر ضد ثمانية أعضــاء بجماعة طلائع الفتح الإســلامى . . اندهش الوزير

بشكل خاص وقد شاركه الدكتور (لودرز) الرأى من انعدام حِرَفِيَّة المجموعة، خاصة أن المعتقلين تدربوا جميعًا فى أفغانستان . . يقول الدكتور (لودرز): »يجب توقع ما هو أكثر من ذلك قليلًا، فلتسأل سافاتسكى لاحقًا عن تفسير لذلك الأمر؛ تدريب فى أفضل المعسكرات يليه ذلك الأداء المتخاذل» . . يمضغ سيزمار بعض الأرز الجاف آملًا ألا يلحظ أحد حالة الضعف التى أصابته: «هل يمكنك الخوض فى تفاصيل أكثر؟»، يهز الدكتور (لودرز) رأسه ويضحك: «اشترى أحدهم قبل خمسة أيام من الهجوم سيارة مستعملة وقام بتسجيلها على اسمه وبشكل قانونى تمامًا، كل شىء مثبت فى الدفاتر . . يحصل قبل الهجوم بيوم على غرامة مالية بسبب زيادة السرعة . . لهذا الأمر أيضًا ملف يثبته . . ثم يأخذ هؤلاء الحمقى السيارة نفسها ويفجرونها . . بصرف النظر عن عدم إصابتهم صدقى؛ من يتسم بهذا الغباء يجب ألا يندهش من دخوله السجن بعد مرور أسبوعين» . . »وما يمكن أن يكون تعليق سافاتسكى على ذلك؟»، «آمل غى ألا يكون على علاقة بهم . . ليسوا ببطولة رجلك . . سيقولون كل شىء».

يجد سيزمار أثناء ذهابه للسجن صعوبة فى الجلوس مستقيمًا . . يخشى من وصول الالتهاب إلى القولون . . تحدثت فرنسواز عن تدريبات للتنفس من شرق آسيا . . سوف تقوم بتصوير الإرشادات له، كتبت خصيصًا للأوروبيين . . قالت: «لا تقلق، لا يستوجب الأمر إيمانك بالبوذية».

رفعت الاعتقالات القريبة معنويات الدكتور توفيق بشكل

ملحوظ . . يربت على كتف سيزمار ويتحدث عن الطقس: «يجب عليك أن تشعر بالألفة مع هذا الجو» . . يتعامل المأمور بأدب فائق ويشير إلى أن الحالة الجسمانية السيئة لسافاتسكى ترجع أسبابها إلى القتال الذى سبق اعتقاله . . يَدّعى أنه تحسن تدريجيًا بفضل الرعاية الطبية الفائقة فى السجن . . لا يعلق سيزمار.

لا تتأثر الممرات الخالية من النوافذ والمضاءة بالنيون بالأحوال الجوية ولا بتعاقب الليل والنهار . . للخطى صدى صوت كما هو معتاد . . تهديدها جزء من العرض المسرحى.

يعبر وجه سافاتسكى عن شبه ابتسامة لحظة رؤيته لسيزمار . . قَلَّ التورم فى وجهه . . لون الكدمات بين درجات الأخضر والأصفر . . يشعر سيزمار بالفخر . . لقد نجح دون التلويح بأى عواقب أن يوضح للألفى أن جمهورية ألمانيا الاتحادية لن تقبل بأى انتهاك آخر لمواطنها . . لا يجب على الألفى الاعتراف بالذنب، ولكن توقفت الإجراءات . . هذا هو المهم . . «كيف حالك؟».

«أشعر باقتراب أعياد الميلاد . . . يعم نوع من السلام» . . . يصمت سافاتسكى لوهلة: «أدين لك بالشكر . . . أليس كذلك؟».

«ماذا؟».

«شكرًا» . . . لم يتوقع سيزمار هذه الكلمة منه . . . لقد نجحت استراتيجيته هنا ولدى الوزير . . . يتيقن للحظة أنه يعمل فى المجال الوظيفى الصحيح: «لندخل إلى الموضوع فورًا؛ لم يعد

الاتهام لك مقتصـرًا على المشاركة فى هجوم الأقصر . . . تجرى النيابة العامة المصـرية تحقيقات ضـدك بسـبب التورط والإعداد لهجوم فى محيط أسيوط».

ينجح سافاتسـكى فى أن يومئ برأسـه ويهزها فى وقت واحد، ببطء شديد: «سألنى موظفو أمن الدولة عن هذا الأمر بالفعل».

«سـيكون أمرًا كارثيًا لو قُدِمَت إلـى أدلة جديدة لا أعرف عنها شيئًا».

«بالنسبة لك».

«بالنسبة لهدفنا المشترك أن نخرجك من هنا حيًا».

يبتسـم: «التقيـت بالطبـع مع عـدد مـن الناس قد شـاركوا فى القتال . . ولكن الاتصـالات بين الفرق ليست وطيدة . . يشكل هذا خطرًا . . كلما قَلّ عدد الرجال المشاركين انخفضت نسبة خطورة الوقـوع فى الأخطاء أو الوشـاية، ولكن كما تـرى؛ أحيانًا لا تفيد جميع الإجراءات الاحتياطية».

«أريد إجابة محددة على سـؤال محدد . . . هل دعمت هجمات أخرى؟».

«فى واقع الأمر: لا . . .».

«لقد تم القبض على المعتدين على صـدقى . . . هل تعرف شيئًا

عن ذلك؟».

«كيف لى أن أعرف؟».

«توجد قنوات للاتصال فى أى سجن».

«حبس انفرادى .. حظر التواصل مع مسجونين آخرين .. أظنك تدرك معنى ذلك .. لم أتحدث منذ قدومى إلى هنا مع أى شخص غيرك وموظفى أمن الدولة .. يقصُّون على بعض الأمور .. تبدو لهم وقتها ذات فائدة، فى المرة التالية يقولون العكس .. أتعجب أحيانًا من قلة معلوماتهم وأفكر أحيانًا أنهم يعرفون كل شىء .. مَرّرُوا منذ وقت قريب سمير من أمام زنزانتى .. كانوا حتى ذلك الحين يدُعون أن الجميع قتلوا إلا أنا وصلاح وأنه على استعداد للإدلاء بشهادة .. ادّعى أحدهم بالأمس أن الدكتور مقبوض عليه بغرض التسليم إلى الأردن، هل هذا صحيح، أم هى مجرد محاولة لإحباطى؟».

لا يجرؤ سيزمار على تكذيب المحققين المصريين علنًا: «فى هذا الشأن وفى الوقت الحالى، ونظرًا للوضع المتأزم لا يتم الإعلان عن كل شىء .. لا نُخطر دائمًا بتفاصيل جميع العمليات».

«إذن ليس الأمر صحيحًا».

«يتعاون بقية المعتقلين مقارنة بك بشكل أفضل بكثير ... هل تعرف أحدًا من المجموعة؟».

«أعرف – كما قلت – أناسًا كثيرين».

«هل وارد أن يقوم أحد المعتقلين حاليًا بإدانتك بتهم جديدة؟ يجب أن أعرف ذلك».

«محتمل، محتمل، محتمل . . . لا يتعامل موظفو أمن الدولة بشكل لطيف معنا على الإطلاق . . . قد ينهار أحد بسهولة، مثل رشيد . . أو صلاح – لو كان على قيد الحياة – ما زال فى العشرين من عمره . . كان دائمًا الابن المدلل لأمه . . شخص بهذه المواصفات يدلى بأقوال ليتوقفوا عن ممارساتهم . . ليس من الضرورى أن يقول الحقيقة، ربما تنقذه هذه الأقوال ليوم واحد، عندما يأتون فى اليوم التالى ويعاملونه بلطف أو بعنف، يحدد ذلك أن يذكر لهم بعض الأسماء التى سمعها أو ربما عنوانًا . . يتم التأكد من صحة هذه المعلومات، فيكسب بعض الأيام الإضافية. . بعض الأمور لا يمكن التأكد منها – أيًا كان – ليس بالضرورة أن تكون المعلومات التى يعطيها لك وزير الداخلية كلها صحيحة، لأن له غرضًا محددًا من ذلك . . أم أنك تعتقد حقًا أن الحقيقة تهمه بأى شكل من الأشكال؟».

«يبدو أن المعتدين على صدقى تصرفوا بمنتهى الغباء».

«ليس لدى أى فكرة».

«لكنك كنت على علم بالتخطيط لهذا الهجوم؟».

«تـدور الأحاديث حول أمور كثيرة . . . يريد بعض الناس أن يعطوا لأنفسهم أهمية، أو يتفوه بعضهم بأمور ساذجة . . . ربما تم تجنيـد عدد فائق من الرجال فى وقت قصـير . . محتمل أن القادة تصوروا بعد الانتصـار فى أفغانستان أن الأمور ستسير فى مصر على النحو نفسـه؛ الحرب شىء بسـيط . . يقف العدو هناك ونحن نقف هنا . . لدينا الشجاعة ومعونة الله، وهم جبناء ولا يؤمنون بما يحاربون من أجله؛ إذن كُتِبَتْ عليهم الهزيمة . . الأمور مختلفة فى مصر . . حَلُمَ بعض الإخوان بالغرب، بأمريكا قبل أن يأتوا إلينا . . عندما رأيت صـلاح للمرة الأولى كان يحمل منتجات أمريكية فى حقيبته، فانلات بماركات، أحذية رياضـية، جهاز سماع موسيقى محمولًا، فقط أفضل الأشياء . . يمارس بعضهم حياة طبيعيةَ، مع زوجة وأطفال، ووظيفة محترمة . . عندما تكبر أى حركة ينضـم إليها أناس كان الخوف يتملكهم سابقًا . . لا تتحول إلى محارب فى غضون ليلة وضحاها، لا يملك كل واحد هذا الاستعداد».

«هل كنت تعرف أحدًا من المجموعة؟».

«كيف لى أن أعرف؟».

«يبحث سيزمار فى حقيبته ثم يخرج قائمة بالأسماء التى ذكرها وزير الداخلية».

«لقد التقيت واحدًا منهم».

«بمن؟».

لقد تبادلنا بعض العبارات، اثنتين أو ثلاث».

«أريد أن أعرف من هو».

«ليس ذا أهمية».

«عمَ تحدثتما؟».

«تفاهات . . . رمال في الجوارب، بثور، إرهاق، لا أعرف . . . كان طالبًا ويبالغ كثيرًا . . . لم أحبه».

«هل يمكن أن يؤذيك؟».

«هل تقصد أنه يعرف شيئًا قد أُشنق بسببه مرتين؟».

يهز سيزمار رأسه.

«لكل حرب ضحايا . . . كنت أدرك ذلك من البداية . . . لقد وافقت . . لا يمكن تنفيذ بعض العمليات دون استعداد بعض للموت . . تعد محاربة الخوف من الموت أكثر فائدة من محاربة الموت نفسه، هذا شيء أساسي . . ولكن ربما استهنّا بسلطة الدولة . . العدو أقوى وأدهى مما تصورنا . . تتوافر له جميع الإمكانات الحديثة لدولة مراقبة . . لا يمكن مضاهاة إمكانيته التقنية المتقدمة وموارده المالية الكبيرة لشراء البشر . . أما نحن فلدينا نقاط ضعف أكثر مما تصورنا . . ربما يجب أن نعيد ترتيب أفكارنا من جديد . . يظهر الله للمؤمنين مواضع الضعف ليرجعوا إلى

الحق ولا يغتروا بأنفسهم .. أصيب الرسول وقت هزيمة موقعة أحد ويذكر القرآن الأسباب: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾.. هذا هو حالنا اليوم .. بعض إخواننا لم يجدوا الثبات وكل واحد لديه أسرة معرض للهجوم .. بمجرد تهديده بأولاده فى حال عدم تعاونه يتراجع .. عندما يكون القرار بالجهاد يجب أن يتحرر المرء من هذه الروابط بأشكالها».

«هل تركت أروى لهذا السبب؟».

«لماذا تتحدث طول الوقت عن أروى؟ غالبًا تواجه قدرًا كافيًا من الصعوبات».

«هل يوجد داع لذلك؟».

«أنتم تحققون حتى مع أمى ... إذن فلتخرجوا أروى من هذا الموضوع ... حتى لو كنتم تعدون لصياغة مذكرة إدانة تهدف إلى تسليمى كما تقول».

«لم أقل ذلك على هذا النحو ... لا يوجد شك فى عضويتك بمجموعة إرهابية ... سيتضح فيما بعد إمكانية إقامة دعوى للتخطيط لهجوم وفقًا للأدلة القائمة وشهادة الشهود .. ولكننى متفائل».

«كانت أروى دومًا ضد استخدام العنف».

«ولكنها كانت على علم بخططك . . . كان واجب عليها إخطار الشرطة».

«لم تكن هناك مخططات ولكن مجرد تفكير في اتخاذ خطوات. . . ألم تحكِ لي عن مشاركتك كطالب فى مناقشات حول قضية استخدام العنف».

«لقد كانت لكم علاقة شخصية وطيدة خارج إطار المجموعة. . . ألم تسألك أروى عن خططك تحديدًا؟ وعن عواقب ذلك لعلاقتكما؟».

يغلق سافاتسكى عينيه وترتعش جفونه . . يمر خلفها فيلم، المشاهد الرئيسية لقصتهما، تتعاقب بسرعة: «لن أخبرك بتفاصيل أحاديثنا».

«لتوفر عليها صعوبات؟».

لا يجيب سافاتسكى . . يدون سيزمار ملحوظة: سيوصى بون بإخبار أروى مشرودى، فى حال محاولتها حماية سافاتسكى بالصمت، أن أفضل وسيلة لمساعدته أن تدلى بكل جملة قد تدعم مذكرة الإدانة . . وفقًا لتقييمه الحالى فليس لديها ما تخاف منه. . ورد فى تقرير ليوم الثالث عشر من ديسمبر لعام1992، «قالت أروى إنها لن تسمح بأن توصف بمسلمة سيئة لرفضها قتل الأبرياء». . بخلاف ذلك يعد المسيحيون أهل كتاب، كما قالت إن رؤيتها تتفق مع القرآن والسنة . . بعد اعتراض شديد من قِبَل الآخرين نهرتهم

بشـدة وانسـحبت من الغرفة» . . . جاءت الواقعة فى سياق الحديث عن أعمال إرهابية فى توقيت الاحتفال بأعياد الميلاد.

«بل كان فى سـياق خاص . . . ومجرد حديث نظرى . . . لم أوافقهم الرأى».

«يبدو أنك لم تعبر عن ذلك بشكل صريح»، بدا عبد الله متحفظًا وصرح فقط بأنه يفضل الهجوم على أهداف عسكرية، «هل صمتَ بسـبب أروى؟ أم خشيت على مصداقيتك فى حال إعرابك عن أى اعتراض؟ كان اتهامك بتقلب إرادتك واردًا . . خاصة أنك معتنق لدين جديد . . كان هذا الشك قادرًا على أن ينهى طموحك فى حياة لمجاهد فى سبيل الله».

يحملـق سافاتسـكى فى سـقف الغرفة . . لا يريد أن يسـمع هذا النوع من الأسـئلة . . إنها تتهمه ضمنيًا بدوافع تشكك فى الصورة الحالمة التى رسـمها للجهاد فى سـبيل الله، صادقًا ودون رغبات شخصية وتعقيدات، إن سمح بذلك. «من كان الجاسوس؟».

«لا أعرف».

«أنت تكذب».

يحمر وجه سـيزمار . . من المفترض أن يرفض هذا الاتهام، لكنه يبقى هادئًا، واضـعًا حالة سافاتسـكى فى الاعتبار: «صدقنى بكل بساطة».

يهز سافاتسكى كتفيه: «بالطبع كان أسلوب حديثنا ونحن وحدنا

يختلف عن وقت الجلوس مع الآخرين . . ولكن نادرًا ما التقينا وحدنا فى وقت لاحق».

«هل انفصلت أروى عنك أم العكس؟».

«لم ينفصل أحدنا عن الآخر . . لم نكن ثنائيًا بهذا المعنى . . كما هو معتاد فى الغرب . . لم يكن ذلك متاحًا من ناحيتها . . وأنا لم أرغب فى ذلك أيضًا».

«كان يمكن بعد اعتناقك الدين الإسلامى أن تتزوجا بشكل طبيعى».

«يجب قبل الزواج التحقق أولًا من اجتماع الأهداف، بشكل شامل . . . ما الحب – أو ما نعتقد أنه الحب – إلا جزء منه».

«ولكن الوضع بدا هكذا فى بداية الأمر».

«كان كل شىء فى البداية جديدًا علىّ . . اضطررت إلى تغيير حياتى بشكل كامل . . ظننت فى بعض الأوقات أننى لست قادرًا على ذلك . . هذا يفوق احتمالى . . لا أفهم شيئًا ومن ثم لن أستطيع تطبيقه . . أن تستيقظ قبل شروق الشمس لتصلى . . أن تصلى خمس مرات يوميًا . . فى كل مرة تتوضأ قبلها وفقًا لقواعد محددة . . يضاف إلى ذلك النص العربى . . حفظ جمل تمتد لصفحات بلغة لا أفهم منها كلمة، بمخ بدأ يجد نفسه بشكل تدريجى . . لا سجق محمر ولا بيتزا بالسلامى ولا حلوى التيراميزو بالكحول ولا حانات . . الصيام فى رمضان . . كان أصعب شىء أن تبقى دون سيجارة من الشروق حتى الغروب . . لم يعد ممكنًا أن تضاجع امرأة

لمجرد أن الظروف سمحت بذلك . . كما أن وسائلى القديمة فى جلب المال لم تعد متاحة».

«ألم تكن تبحث عن وظيفة؟».

«لو أمعنت النظر ستكتشف أنه لا توجد وظيفة إلا وتدعم النظام الكافر بشكل مباشر أو غير مباشر . . . لقد أعلن الغرب أن الطمع مبدأه ، فكل العمليات الاقتصادية تقوم عليه . . . حتى الأموال التى قد تكون نظيفة - لو افترضنا أن هذا وارد - تديرها بنوك تضارب بها وتتحصل من ورائها على فوائد . . . الأمران محرمان . . . هل لديك فكرة عن الصفقات التى تقوم بتمويلها بشكل غير مباشر؟ هل سألت البنك الذى تتعامل معه عن الشركات التى يشارك بها؟ بخلاف ذلك كانت هناك أمور أهم يجب القيام بها . . كانت أروى تقول فى لحظات حيرتى: «لقد وصل الله بك إلى هذه المرحلة، لن يتخلى عنك الآن» . . لقد صليت كثيرًا . . من أجل الهداية ، من أجل العون . . أن يُرْفَع عنى الحجاب الذى كان قد تمزق بالفعل».

«حينما رأيت أروى للمرة الأولى؟».

«لقد وصلت إلى مرحلة لا يمكن للمرء أن يفقد فيها شيئًا آخر . . . الحمد لله . . . لئن توقفت عن التمرد ، بمحض إرادتى ، وبعون الله الذى حفظنى من الضلال . . بات كل شىء منذ ذلك الحين سهلًا . . كان كل يوم أفضل من سابقه . . ساعدتنى أروى ، أكثر من كريم ، على الأقل فى البداية . . دونها كنت سأعود إلى العادات القديمة ، عاجلًا أو آجلًا . . كنت سأهدر فرصة البداية الجديدة ، كنت سأستسلم لآلاف الأسئلة والأحكام المسبقة . . لقد

نشأت أروى فى ألمانيا - فى أسرة متكيفة اجتماعيًا ولكنها فى نهاية الأمر ذات طابع إسلامى .. كانت تعرف الغرب تمامًا مثلى، ربما أفضل لأن رؤيتها عن بُعد .. كانت قادرة على شرح مغزى بعض القواعد، حتى إن لم أفهمها للوهلة الأولى .. كانت تدرك مكمن الخطر فى مدينة ألمانية كبرى فاسدة مثل فرانكفورت .. بخلاف الطلاب الذين أتوا من المغرب أو مصر وهم فى العشرين من عمرهم؛ كانت هى لا تنسب كل عادة عربية إلى قلب الإسلام .. "هذه نزعة ذكورية عربية .. لا تختلف كثيرًا عن مثيلاتها فى جنوب أوروبا وجنوب أمريكا"، تجتاح موجة جديدة من الغثيان معدة سيزمار.

«وصلت بعد ثمانية أشهر إلى مرحلة نضوج للقيام بالخطوة الأخيرة ونطق الشهادة أمام شهود كما هو مفروض... كان ذلك فى شهر أبريل من عام88، بعد فترة وجيزة من إعلان الروس انسحابهم من أفغانستان صدفة، إن كنت تؤمن بالصدف... الوقت المناسب، إن كنت قادرًا على قراءة الإشارات... بكت أروى من السعادة حينما أخبرتها بقرارى ... بعدها تحدثت مع كريم وقال: «هذا أمر جيد .. الحمد لله» .. لا شىء آخر، بعدها بأسبوعين التقينا جميعًا فى شقته .. بدا واضحًا أن شيئًا مميزًا يحدث .. كانت المسألة تتعلق بى أساسًا، ولكن كانت تحدث أمور أخرى، لها أبعاد أكبر بكثير؛ «رأينا هدى الله فى حياتنا .. كل واحد منّا لنفسه ثم لنا نحن كجماعة .. لم نكن مجرد مجموعة متناثرة فى حى (بوكنهايم) بفرانكفورت بل جزء من الأمة التى شملت كل زمان ومكان».

يجد سيزمار صعوبة فى الإنصات إلى سافاتسكى، تتلاطم فى رأسه العبارات مع المشاهد والمصطلحات ..

«لقد نما هذا الشعور، بدا لكل واحد منا بشكل واضح .. شعور بالانتماء لم أعرفه من قبل».

أيقظت مقاطع كلمات بقايا ذكريات امتزجت بأفكار وبالألم؛ طقوس لبدايات، عملية طهارة، التعميد، التثبيت، مراسم الاحتفال بدخول مرحلة الشباب، أداء القسم الوظيفى .. «نعهد بمقاومة وساوس الشيطان»، «فليعينني الله على ذلك» .. الأب الذى يمسح على وجنته كما لو كان طفلا .. طقوس لها دور مُعَزِّز للعضو الجديد وللجماعة نفسها على حد سواء .. تنويم للجماهير .. «نحن الشعب» .. يرى مشاهدًا لنفسه ولغيره بالتصوير البطىء .. خوف من العجز عن الاستمرار، ماذا بعد؟ إيحاء ذاتى تعضده عمليات تفاعلية داخل المجموعة، فى الظروف القصوى حالة نشوى جماعية .. "شعب واحد، رايخ واحد، قائد واحد" .. التحامل على النفس؛ هذا ما تعلمناه من الحرب حتى إن كنا قد خسرناها .. أكاذيب .. حفلات موسيقى الروك، مباريات الكرة، مؤتمر الحزب .. شعور تلقائى بالرغبة فى التخلص من الضغوط .. "نحن الأبطال" .. شعور تلقائى بالرغبة فى الابتعاد عن الجماهير .. الجماهير التى تفقدك هويتك، خوف .. "انهضوا إن كنتم ألمان" ... فى الوقت نفسه إحباط بسبب فقدان المشاعر .. يأمر الجسد بعيدًا عن الروح بالاستجابة لرفع اليد اليمنى للتحية .. مقاومة الجسد.

﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾

طعم السم والمرارة، لعاب فى أرجاء الفم، نظرات ثاقبة، معاناة من أجل صياغة جملة صحيحة .. عجز أمام أى جملة خاطئة.. صمت .. خوف أمام العدو .. تتلاحق موجات من الغثيان .. المعدة خاوية، غير قادرة على القيء .. شعور بالانفراج لحظة تراجع التقلصات، لفترة محدودة .. يفوق هذا طاقته .. يحاول سيزمار التركيز على سافاتسكى.

«لا تأتى الحرية إلا مع الثقة الكاملة فى الله والتخلى عن الأهواء الشخصية».

كانت بمثابة استراحة لالتقاط الأنفاس، تكفى بالكاد لاستجماع قواه من أجل مواجهة النوبة المقبلة .. بشرته كأنها ورقة سنفرة .. رائحة توابل عربية ولحم يحترق تمتزج مع روائح تنبعث من الأجساد .. أوهام للعقل وهو على الحافة .. محاولة للجلوس فى وضع مستقيم .. آلام وذكريات كشذرات بحواف حادة؛ يرى نفسه مع فرنسواز وهما يقفان داخل السوق، انحشرا وسط حشود من البشر لم يَرَها من قبل، شعور بالعجز .. دون أن يلحظ يصبح جزءًا من الحركة العامة ويعجز عن تحديد مكان تلك الحركة فى داخله أو خارجه .. إنه غريب ولكنه يلبى نداء دق الطبول، منفردًا ولكنه ليس وحيدًا .. إنه كافر ومع ذلك هناك ما يربطه بهم جميعًا .. شىء يفوق المقاومة .. يتبلور من تلك الفوضى كيان منظم يصعد إلى السماء .. أجبرت سلطة عليا العالم على الخضوع لسيادتها .. "من الآن وإلى الأبد"، تقع المسئولية

فـــى هذه الأحـــوال على عاتق الخالق . . يشـــعر برعشـــة برد بينما الجـــو دافئ فى واقع الأمر، بل إنه حار . . ثم لفظته هذه الحشـــود مع فرنســـواز، منفردان ولكنهما معًا. اســـتغرق التحرر من سلطة الآخـــر الغريب وقتًـــا طويلًا. . تنفس الصـــعداء لأن فرنســـواز لم توجه إليه أى أســـئلة. . بأى حق استولت هذه الحركة عليه إلى هذه الدرجة؟ رائحة بصـــل . . ينظر حوله ولا يجد أى بصـــل . . يجب علـــى سافاتســـكى أن يتوقف عن الحديث والحركـــة، فنوبة العرق التالية لا يمكن التنبؤ بعواقبها.

«يخلط الغرب دائمًا بين "الاعتقاد" و"إبداء الرأى"، كانت أمى تقـــول دومًا "الاعتقاد فى شـــىء يعنى أنـــك لا تعرفه"، وترى هذه المقولة فى منتهى الذكاء».

جملة قد تبدر عن أبيه، يعرف أبوه من أين تؤكل الكتف ويدرك أهدافه بحرفية ويسخِر كل من حوله لخدمته.

«كل من مر بتجربة دينية يعرف أن الله موجود».

إنـــه مريـــض؛ مريـــض عقليًـــا . . لا يتذكـــر المصـــطلحات المتخصصـــة، نـــوع خاص من اختـــلال الذهن . . لا يوجد شـــىء لافت للنظر أثناء الحوار مع المريض، قد يبدو الإدراك مشوهًا فى بعض الأحيان. . يمكن التغاضـــى عنه، لن يصـــرخ المريض ولن يضرب فى الهواء. . سينتهى الألم تدريجيًا، ربما سينتهى. . يجلس أمام ســـيزمار أكثـــر الحالات المثيـــرة للاهتمام، تتمتـــع بقدر عالٍ وغير مألوف من الذكاء، يعينها على اســـتغلال كل نقطة ضـــعف- وحتـــى النيـــة الطيبة - للطـــرف الآخر . . لأســـرها وعزلها ومنع الهواء عنها. . يوجد وصـــف وتحليل علمى لتلك البراءة المزعومـــة

والحنكة الشيطانية . . تعد ضمن حالات البارانويا . . جميع الأديان تعتمد على هذه الوسائل، الطوائف الدينية والمهتمون بالروحانيات والمتطرفون . . دون تلك الوسائل لا تعمل نظمهم بكفاءة ولا يكون لمطالبهم الثِقَل المطلوب الذى يجب أن يكون على قدر مناسب . . إذا تخطت الحالة الإطار المحدد لها يبدو فقدان التواصل مع الواقع واضحًا . . إذا اشتد الألم يخرج الجسد عن إطار السيطرة، إنه ضعيف . . يعتبر كل استفسار على أنه دليل على ضلال صاحبه ويؤكد على صواب هذا النظام الواهم . . لو لجأ السائل إلى العنف لا يبقى له سوى الحبس الانفرادى مدى الحياة.

يسمع سافاتسكى وهو يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾، من يُنَقَّ قلبه بثقته فى الله يجدء قريبًا منه، لقد أكد الله على ذلك، بوضوح ودون أى معنى رمزى؛ تحول فى عصر هذا اليوم ظنى إلى يقين، رؤية مختلفة للعالم، واضحة وبعيدة عن أى وهم.

تنحصر أفكار سيزمار فى حركات أمعائه، انقباضات للعضلة العاصرة، نوبة قشعريرة . . بدلًا من أن ينحنى ويستسلم للقئ- هذا غير وارد تمامًا . . يستند إلى الخلف، يضغط بظهره على المسند، ويتشبث بقوة بحافة المائدة . . إنها مجرد نوبة أخرى . . سوف تتراجع وتنتهى . . يتمتم: «هذا مثير للاهتمام، بالتأكيد هذه تجربة فاصلة».

«لا أفهم كيفية تحمل رتابة الحياة فى ألمانيا الاتحادية وعدم بذل أقصى جهد ممكن للوصول إلى المعرفة وإلى القوة؛ للرسول -عليه الصلاة والسلام- مقولة: «اطلبوا العلم ولو فى الصين».

فى غضـون تراجع التقلصـات تفقد الكلمات والأشـياء معالمها الحادة . . أصـبحت الحوائط الخرسـانية رخوة، اللون الرمادى للحوائـط يفقـد معالمــه، خطوط متداخلـة غريبة، دوائــر متحدة المركز، سيول كأنها تنهمر على بحيرة من الزيت الثقيل . . يضغط سـيزمار بقدميــه على الأرض حتــى لا ينقلب من فـوق مقعده . . يتحدث سافاتسـكى عن الحتمية دون أن يلحظ حالة سـيزمار: «لا شىء يحدث دون إرادة الله».

يتساءل سـيزمار عن الدور الذى خصصه سافاتسكى لنفسه فى خطته الحمقاء المصابة بجنون العظمة والتى ينسبها لله . . «الحتمية» مقابل «الجبرية» . . كان هذا مثار حديث فى حصـة الدين . . منذ أكثر من ثلاثين عامًا، لم يفهم أحد الفرق بينهما، حتى القسيس . . يسـتبعد كل منهمـا الإرادة الحرة . . لم يكن مسـموحًا بالتفكير فى الأمـر على هذا النحو، ناهيك عن البوح بــه، وإلا هناك مخاطرة بفقدان إيمانك والاستجابة لرغبة الشيطان الذى بث شكوكًا عقلانية ليملأ الجحيم بالبشر . . يومئ سافاتسكى ليؤكد على شىء لم يسمعه سيزمار . . هرب القسيس فى إجابته إلى سر الحكمة المبهمة للعناية الإلهية . . يرى سـيزمار الله جالسًـا على طاولة لعب ضـخمة . . كان معسـكر الإبادة (أوشفيتز) هو النقطة الحاسمة الأولى، وهو يعد الآن للحرب النوويـة كآخر مرحلة للعد التنازلى . . كان على الإنسان أن ينقذ نفسه والعالم . . ينفعل القسيس بشدة عندما يتحدث عن تكبر حركة الحداثة ولكن مع انخفاض صوته . . لم يكن يتلعثم فى حديثه بسـبب إثارته؛ بل لأنــه يعانى من عيب خلقى فى ترتيب أسـنانه . . على ثوبه الأسود الرسـمى بقع جافة للعابه، بينما يسود

الصمت أرجاء القاعة . . كان يضرب خادمو الكنيسة الصغار بدقة متناهية . . «إنها تجربة دينية» . . كان الابتعاد عن القداس أو حصة الدين أمرًا مستحيلًا ، انتهت مرحلة العصا . . بدأ يتبع منطقًا آخر . . تم نقضه . . إدراك ، موجة وجزيئات . . باتت الأمور أكثر ليونة ولكن غير واضحة المعالم . . نسبية عدم الدقة؛ فرّغت مصطلحات الطريق وجبرية الحركة من مضمونها وحل محلها الاحتمالات . . محتمل أن الله ما زال يلعب ولكن مع نفسه لقهر ملل الأبدية . . محتمل أن سيزمار سيترك الغرفة سيرًا على قدميه ونظيفًا . . حتى بعد الصرخة التى لم تُصرخ ساد الهدوء . . الطبيعة المعقدة للحياة الدنيوية . . كل شىء مرتبط بكل شىء ولكن فى حالة انعزال كامل . . لن يفهم أحد ذلك بشكل تام .

«شعور بعرفان غير متناهٍ لأننى تمكنت من إدراك العلاقات المتشابكة» ، يجلس سافاتسكى فى هدوء ويقصر إشارات يده على الضرورى فقط ، نظرته مصوبة إلى الداخل . . يوجد هناك نص يقرأ منه . . اختفى سيزمار خلفه أو تلاشى داخله ، قطعة أثاث من اللحم والملابس . . لا يوجد سجن ولا سفير ، تدفق للسرد الذى يحمل كل شىء معه ، على الجانب الآخر تراجع للتقلصات بشكل تدريجى . . سؤال عن قرب حلول الظلام فى الخارج؟ ربط خاطئ . . لم يحل المساء بعد . . يتحدث سافاتسكى إلى نفسه . . وبما أنه لا أحد يتدخل يصبح ما يقوله واقعًا . . يفكر سيزمار : السماح بذلك خطأ . . قد تكون مداخلة محددة الهدف أمرًا مطلوبًا لمنع تحجر أوهامه ، من أين يمكنها أن تأتى - تعود الدماء من الأمعاء إلى الرأس» .

«لـم أكـن أتصـور قبل هـذه اللحظة حالـى مـن دون تعاطى المخدرات، وكيفية تحمل هذا الوضع، أما بعد هذه اللحظة الفارقة بات حجم المهام كبيرًا بينما الوقت لا يسعفنى».

يسـأل سـيزمار: «وأين يقع ضـياع الزمن فى نطاق المخطط الأبدى؟»، لا يسمع حتى نفسه حينما يطرح هذا السؤال.

تعلـم سافاتسـكى الكلمات والنحـو وكتب الحـروف العربية، كلمات ثم عبارات، عشـر مرات، عشـرون مرة، مئة مرة... لمدة سـاعات يكـرر المضـمون نفسـه.. احتاجت يده لأسـابيع حتـى تألف تغير اتجاه الكتابة من اليسـار ليبـدأ من اليمين.. يفكر سـيزمار "ربما يرجع السبب إلى.."، ولكنه لا ينتهى من صياغة تصوره.. كانت يد سافاتسكى فى البداية تصاب كثيرًا بتشنجات.. يهز الآن يده كما لو أنه يحاول استرجاع ذكرياته.. يتتبع سيزمار حركته.. إنها فى الاتجاه المعاكس، بطيئة وما زالت غير محددة.

كان سافاتسكى يسـعى نحو خط عربى جميل وليس مجرد خط مقـروء، على عكس خطه فى اللغة الألمانية الذى لم يسـتطع أحد قراءتـه.. قـرأ كل ما وجده عن الإسـلام، قام بجـرد المكتبات ومقتنيـات المسـاجد.. اسـتخرج مـن قوائم المراجـع فى الكتب عناوين وحاول اقتناءها.. معظمها اندثر أو لم يترجم.. من أجل هذا السبب وحده كان يجب عليه تجويد لغته العربية: «أهم نصوص الصحوة الإسلامية ليست موجودة باللغة الألمانية.. ربما ستعتبر تقييـم ذلك علـى أنه أمر مقصـود نابع من هوس الاضـطهاد لدى المسلمين».

يفكر سيزمار «وما الدين إلا حالة بارانويا جماعية، يتحكم فيها قوادها، لفتــرة قصــيرة قبل سقوط المتدين من على حافة الأرض - التى أخذت شكل القرص المستدير - إلى العدم».

شعر سافاتسكى فى بعض الأيام بأن رأسه أوشك على الانفجار من كثرة المعلومات الجديدة . . كان آنذاك يسـتقل القطار متوجهًا إلى جبــال (التاونوســس) ومنطقة (فيتــراو) الخضــراء ويتنزه . . دون هــدف، فقط من أجل الحركــة . . أحيانًا كانت ترافقه أروى فيتحدثــان عما فهم وعما لم يفهم؛ «كنا فى الربيع . . الجو دافئ . . رائحة الزهور المتفتحة تصــاحبها حالة مــن التفتح . . حينما بدأت الأشــجار فى طرح أوراقها الخضــراء، ظننت أننــى أراها للمرة الأولى . . ضــحكت أروى حينما حكيت لها هــذا الأمر . . لم تكن تعرف ما أقصد . . ربما لا نلحظ الأمور الواضحة فى حياتنا حينما نكبر معها، وربما رضيت بما هو أقل دون أن تلحظ ذلك».

تراجع الشــعور بالألم فى معدة ســيزمار . . تتبلور شــبه فكرة تحــررت من شــبكة خلايا المــخ وتداخلات الأمعــاء، يحاول أن يمســك بها، يتنحنح ثم يســعل ســعلة خفيفة . . ينظر سافاتسكى إليه بدهشــة كما لو أنه اكتشف للتو أنه لا يُحَدِّث حوائط زنزانته بمفرده وأن هنــاك مســتمعًا مكلفًا من قبل الحكومة، إنــه ينتمى إلى الجبهة المضــادة ومن المفترض أن يشــك فى نواياه حتى إن كان يتحدث بنية حسنة.

يقول ســيزمار بصــوت يبدو منكســرًا: «فى الواقع ، يمكننا أن نقــول إن الإســلام ســاعدك علــى . . »، يأخذ مرة أخرى نفسًــا:

«بمساعدة الإسلام وبعض الأصدقاء الأفاضل تمكنت من . . . »، لا يجد ما يمكن أن يعجل بتفكيرد: «نجحت فى قهر إدمانك . . . نسمع كثيرًا عن هذا النوع من التحرر أو الشفاء فى إطار صحوة دينية أو فى إطار علاقة حب . . . فى حالتك اجتمع الأمران معًا»، يعتدل سيزمار فى جلسته ويحاول أن يرى معالم وجه سافاتسكى بشكل واضح: «لا يوجد ما يمنع شعورك بالعرفان تجاه ربك، أيًا كانت طبيعته . . ويجب ألا يكون تجاه ربك فقط . . تفهم هذا الشعور بالعرفان ممكن . . لا يشوبه شىء سلبى . . هذا ما أراه . . بل على العكس تمامًا . . ولكن من هذا المنطلق» . . . يتلعثم سيزمار مرة أخرى . . أراد أن يقول شيئًا آخر . . يحدق الرئيس محمد حسنى مبارك النظر إليه من على الحائط الرئيسى، بتجهم وإصرار فى صورة أبيض وأسود . . صمت موحش يقطعه صوت التنفس . . يحاول أثناءه التقاط خيط الحديث الذى انقطع . . يمسك بالقلم الجاف ويدخل ويخرج سنه، يرسم دائرة زرقاء على الورقة أمامه، بها قائمة الأسئلة التى لم يملك طرحها . . يدرك سافاتسكى ذلك ولكن لا يظهر أى رد فعل . . ينطلق سيزمار من نقطة مختلفة: «كان حالك أفضل . . أصبح لك أصدقاء جدد . . كلها أمور إيجابية تعطى دفعة إلى الأمام . . أن تبادر ببناء مستقبلك . . كنت شابًا وإلى جانبك امرأة ذكية وجميلة . . كان يمكن أن تتلقى تدريبًا، أن تتعلم حرفة على سبيل المثال . . أو أن تترقى داخل شركة . . أنت ذكى ومع بعض المجهودات كان يمكنك أن تصل لأعلى المراتب . . معظم قصص النجاح تواجه اليوم صعوبات . . ولكن تغيرت اليوم طبيعة الحياة عن وقت جيل الأبوين وحتى عن جيلى أنا، ذلك الإجبار وعدم وجود خيارات، المسألة اليوم

مختلفة»، لقد تشتت ذهن سيزمار، يتوقف عن الحديث ولا يجد تمهيدًا لطرح السؤال الحاسم: «لماذا أردت فجأة أن تقتل بشرًا؟»، بدا السؤال مجردًا من أى سياق . . إنه يتنفس الصعداء ويسعد باستعادة استنشاق الهواء الذى يفتقر إلى الأكسجين.

يكتسى وجه سافاتسكى للحظة بالوجوم، ولكنه لم يقرر بعد إذا كان غاضبًا من نفسه أم من غريمه، «لم أرد قتل بشر»، يقولها وهو يهز رأسه كأن الإجابة خاطئة تمامًا مثل السؤال.

يقول سيزمار «:استكمل حديثك . . »، وذلك على الرغم من عدم قدرته على الاستيعاب وعلى الرغم من وجوب الاعتذار بسبب حالته المرضية، يجب أن ينهض ويرحل . . لا يريد ذلك، لا يستطيع القيام بذلك . . فى الغالب سيفسره سافاتسكى على أنه اعتراف بالضعف والهزيمة وسيعتبر الحديث عن نزلة برد فى المعدة والأمعاء أو إصابة بفيروس مجرد حجة واهية . . لن يقوى فى الوقت الحالى على الخطو سبع مرات حتى الباب . . تواجه أعصابه صعوبة فى نقل الإشارات؛ أوتار عضلاته منهكة . . مستحيل أن يستكمل حديثه بهذه الحالة . . سينتظر، على الأقل لبضع دقائق حتى يتأكد أنه لن يضطر إلى الاستناد إلى الحائط بينما يمر بالطرقات إلى باب الخروج، حتى يدرك أنه لن يترنح ولن يسقط على ركبتيه فى أسوأ الظروف، أمام المدير، أمام الدكتور توفيق وموظفى الحراسة، مستلقيًا على الأرض مهزوم ومتسخ.

ينظر سافاتسكى إليه بشفقة: «اكتشفت صعوبة الحياة على منهج الله فى مجتمع كافر . . إنه فى واقع الأمر مستحيل إلا فى حالة

الانسحاب الكامل من المجتمع . . وليس الانسحاب سمة من سمات الإسلام . . إنه ليس مجرد دين يمارس فى عطلة نهاية الأسبوع أو للمتعة الخاصة فى المنزل . . يجب أن يغمر الحياة بشكل كامل . . يعد فصل الدين عن الدولة - كما هو متبع فى الغرب - ليس مجرد أمر خطأ، بل وأيضًا خطير . . إن الإنسان الذى يقف أمام الله فى الصلاة ويسجد هو نفس الإنسان الذى يعمل ويأكل ويشرب ويحب وينام . . أيجب أن يتبع هنا منهجًا مختلفًا عن هناك؟ أنتم تتصرفون كما لو أن فصل مجالات الحياة عن بعضها أمر متاح . . وفقًا للمزاج تخصص ربع ساعة أو يوم عطلة للدين ثم نذهب إلى الحدائق ونشرب حتى الثمالة . . يُشتت الإنسان على هذا النحو . . محور الإسلام هو الوحدة: إن لم يتم كل شئ بروح واحدة ينهار القلب . . هذا أمر حتمي . . عاجلاً أو آجلًا تأتى التضحية بجانب فى سبيل الآخر . . لقد ضحى الغرب بالمسيحية . . من يتحدث فى خارج الإطار المحدد عن الله لا يجد إلا سخرية ، فى أفضل الظروف . . إنه يعبر عن رأيه الشخصى المقدس ، مجرد رأى ضمن آراء أخرى ، لكنه غريب . . يخصص للبابا فى وقت أعياد الميلاد وعيد القيامة المجيد فترة لإلقاء الخطبة فى التلفاز؛ لأننا اعتدنا على ذلك أو من أجل إسعاد الجدة . . يمكن استنباط قيمة عقيدته من السيارة الزجاجية المصفحة التى أنتجتها شركة مرسيدس وفق طلب خاص؛ يريد أكبر ممثل للدين المسيحى أن تحميه التقنية الحديثة من الموت . . أعتقد أن الله سينبهر ببرهان الثقة لهذا الفعل».

لا يلتفت سيزمار إلى كلمة البابا تمامًا مثل عدم التفاته إلى خطاب فى مؤتمر دولى لزميل من هوندوراس حول مسألة أسعار الموز .

«تَعَرَّف كريم فيما بعد على بعض الأشخاص في الجامعة الذين . . » لا يكمل سافاتسكي الجملة ثم يواصل: «لا أعرف شيئًا عن توقيت اختراق مسجد ابن تيمية ولا مدى دقة تقارير جاسوسك . . لا تفاصيل ولا أسماء . . كانوا شبابًا من بلاد مختلفة اهتموا بمسألة ممارسة عقيدتنا في الحياة العملية . . كان لبعضهم اتصالات . . أحيانًا كنا نستقبل زوارًا كانوا قد حاربوا على جبهات مختلفة . . تحدثوا عن الإهانات التي يتعرض لها المؤمنون في مناطق كثيرة . . عندما يتحدث أحد من غزة أو كابول أو سراييفو؛ فإن لذلك وقعًا مختلفًا عن المشاهد التليفزيونية . . ولكنهم حملوا أيضًا الكثير من الأمل معهم . . كان يجب أن يحدث شيء وبالفعل حدث شيء . . تكونت في مناطق عديدة مجموعات لإسقاط الحكام الفاسدين؛ وذلك دون أن يلحظ الرأي العام الغربي ذلك . . لقد أعطى الانتصار دفعة جديدة إلى الأمام . . في الغالب سيمنعون انحدار الغرب من غزو المجتمعات الإسلامية تحت ستار الحرية . . نحن مقتنعون في الوضع الحالي أن الصلاة والصيام والتوفير من أجل زيارة البيت الحرام ليست أمورًا كافية لمواجهة محاولات الغرب في الاستيلاء على العالم الإسلامي - سببها الطمع في البترول وكذلك لأن العالم الإسلامي يجسد نقض الكفر . . حينما سُمِحَ للأمريكان بالهجوم على إخواننا في العراق من جهة السعودية - بلد الأراضي المقدسة - بات تجاهل الأمور صعبًا . . زاد على ذلك مذابح مسلمي البوسنة والإرهاب الروسي في الشيشان . . تخلى عرفات عن توسيع نطاق الانتفاضة مقابل بعض المواطن التي مُنِحَتْ له واكتفى بالاحتفاء به كرجل سلام . . ولكن في هذه الأثناء كان قد تم تحرير أفغانستان . . وضعت هناك

-وما زالت توضع - أسس المقاومة . . انضم الآلاف إلى صفوفها ويزيد عددهم يوميًا . . أيًا كان مصيرى هنا؛ لن تتوقف الحركة . . سوف يتم التغلب على انقسام الأمة ومتاهات الوطنية . . يتحد البشر فى كل مكان لإعادة بناء دار الإسلام . . لو نجح لمُّ الشمل ووُجِّهَت أموال البترول التى منحها الله للمسلمين إلى بناء دولة إسلامية بدلًا من إهدارها فى الإنفاق على ترف الأمراء؛ حينئذ ستكون هذه الدولة دولة عظمى وستسود كلمة الله، وليست قوانين المقامرين والطامعين الذين لا يهتمون بمصير الأرواح . . هذا الاتحاد آتٍ . . إنها مسألة وقت . . إن شاء الله».

يتوقف سافاتسكى لبرهة حتى يُقَيِّم وقع كلماته . . يشعر سيزمار بتراجع التقلصات ويفكر فى وجوب ترك المكان . . إنه يبذل مجهودًا ليبدو متماسكًا، يفرد ذراعيه ويشد عضلات رجليه . . يشعر بثبات كافٍ ليصل إلى السيارة.

ينتظر سافاتسكى رد فعل، يبدو هذا جليًا فى وجهه . . ولكن انتظاره لن يفيد . . يجمع سيزمار أوراقه ويضعها فى الحقيبة.

«ألا تريد أن تعرف شيئًا عن طريقى إلى الجهاد؟ لن تجد الكثير عنه فى أوراقك».

ينظر سيزمار إلى ساعته وإن كان الوقت لا يمثل عائقًا؛ «بالتأكيد أريد أن أعرف . . ولكن مرة أخرى . . »يغادر فى الحال . . «لا أستطيع للأسف اليوم البقاء فترة أطول . . لَدَى ميعاد فى غضون ساعة لا يمكننى تأجيله . . ولكننى لم أرغب فى الاعتذار لك عن اللقاء» . . يغلق الحقيبة ويجاهد لإخفاء رعشته،

ينهض للوقوف . . يبقى سافاتسكى جالسًا ويقول: «ناس مثلك -دون محور فى حياتهم - يفقدون يومًا ما كل شىء».

سمع مقولة مشابهة من فرنسواز قبل بضعة أيام . . ولكنه مازال مقتنعًا بعدم جدوى تدريبات التنفس . . يمد يده إلى سافاتسكى ويتوجه إلى الباب ويقرعه . . يفتح له أحد عساكر الحراسة . . نظرات تعجب فى العيون المختبئة خلف الأقنعة . . ولكن لا يطرح أصحابها أى أسئلة . . لا يقع ذلك فى إطار اختصاصهم . . يقول سيزمار: «لقد انتهينا اليوم مبكرًا» . . يقوم أحدهما بالاتصال لا سلكيًا بالدكتور توفيق بينما يدخل الآخر الغرفة ويقف أمام سافاتسكى . . لزيّه بريق كما لو كان تمثالاً من حديد يكسوه طبقة لامعة . . تمر نظرة سافاتسكى عبر الرجل الذى يحك الأرض بقدمه . . يلتفت سيزمار مرة أخرى ويسأل: «ما التجربة الدينية؟».

لا يبرح سافاتسكى مكانه، ينظر للأمام بتعنت؛ »كأنك تسأل: صف لى اللون الأحمر فأنا أعمى».

يتنحى سيزمار جانبًا . . الشيوعية، القرصان، مارلبورو، غضب . . يضع حقيبته على الأرض ويدخل يديه فى جيوب بنطاله، يسمع خطوات، يستند إلى الحائط، ركبتاه متحجرتان . . يريد أن يبدو مسترخيًا . . لا يظهر الدكتور توثيق إن كان مقتنعًا بما يراه . . إنه لا يعلق على قصَر زيارة اليوم . . يطلب سيزمار دخول المرحاض، ببساطة دون الحديث عن ضرورة . . «بالطبع» . . تتسم مقارنة بالمراحيض المصرية الأخرى بنظافة فائقة . . يتساءل عن الشخص الذى يقوم بتنظيفها، ربما المساجين . . شعور بالخجل من رائحته داخل أماكن غريبة عنه.

للظلام فى الخـــارج لون النهار . . برد، هــواء، رياح تتخلل خصلات الشعر . . تُصفر بأصوات متعددة عبر شقوق الأسوار . . يتمايل النخل . . ولكن يبدو أن للواقع وجهًا آخر . . يستمع سيزمار إلـــى الدكتور توفيق الذى يتحدث عن جمال هذا البلد الذى يجب أن ينفتح علـــى العالم بأكمله، والذى يملك آثـــارًا فريدة وطبيعة خلابة وشـــعبًا اشـــتهر بكرم الضـــيافة . . لن يستســـلم للتطرف . . يزغلل الضوء المكثف العيون، كاميرات فى كل مكان . . تبدو كل حركة مبالغًـــا فيهـــا ويتم رصـــدها . . مكبرات الصـــوت هى التى تصـــنع العبارات وليســـت الأحبال الصـــوتية . . يقدر المصـــريون الدين ولكن لا يقبلون بالتطرف . . يبدو ذلك جليًا فى أهمية دور الأزهر الـــذى يعد منذ عقـــود مركزًا للعلـــوم الإســـلامية ومُمَثَّلًا من خلال الإمام الأكبر البصال . . تُسمع آراؤه فى جميع القضايا المهمة . . لا يمت المتمردون للدين بصلة . . ولقد استنكر العلماء أفعالهم.

تعكس لمعة حذاء الدكتور توفيق نقطة نور تخترق العين.

يؤكد مرارًا وتكرارًا على المجهودات العظيمة للشرطة والجيش وعلـــى الأعمال البطولية لقوات الأمن التى تغامر يوميًا بحياتها فى ســـبيل استئصال العفن من جسد الشعب . . زاد يقينه بعد النجاحات الأخيرة بأن فصل الإرهاب سينتهى فى القريب العاجل . . لم يكن لديه أبدًا شـــكوك جادة حيال هـــذا الأمر . . لا مكان للرحمة . . لقد أثبت هذا الأسلوب فاعليته . . سيضـــرب القانون المتمردين بأيد من حديد.

لا يعرف سيزمار إذا ما كان التعليق الأخير يقصد الإشارة إلى نتيجة التحقيق مع سافاتسكى . . لا يهتم بهذا الأمر فى الوقت الحالي . . يمشى بخطى بطيئة إلى جانب الدكتور توفيق دون رغبة فى تشكيل رأى أو إضافة شيء لما يسمعه . . يتوقف إلى جانب السيارة ويضع ذراعه فوق المرسيدس ، نظرته زائغة ولا يعبر صمته عن موافقة أو اعتراض . . يفكر بأنه يجب أن يكون هناك مخرج من هنا . . تتتبع عيناه انحناءات الأسلاك الشائكة . . طفولة فى الريف ، مراع للأبقار فى الشمال ، ملاجئ للحماية من قنابل الحرب أقيمت على شاطئ البحر ، فى الرمال ، الحرب بالأمس واليوم . . يومئ دون أن ينصت للحديث . . لقد اكتفى بقدر الأحاديث التى قيلت . . يطوى شعبان الجريدة ويخرج من السيارة ليفتح باب المقعد الذى بجانبه . . يدخل سيزمار ويعاود أخيرًا الجلوس ، على مقعد وثير ، فى صالون السيارة المكيف والرحب . . لا يواجه خطر الاختناق أو الضرب هنا . . "أسمع حينما أتحدث أصواتكم" .

ينظر شعبان إليه ويقول دون توجيه السؤال إليه: «أنت ترهق نفسك بالعمل . . يجب أن تحصل على إجازة . . وتذهب إلى ألمانيا . . إنه أمر سيئ لروحك أن تبقى بعيدًا عن بلدك لفترة طويلة» . . يلوح سيزمار بيده ويسقط فى أحضان المقعد . . يشعر بالراحة مع صوت المحرك الهادئ والاهتزاز الخفيف . . تتحول العربات المصفحة فى ضوء الكشافات ومع السحب الثقيلة إلى وحوش الصحراء فى المستقبل . . عندما يقع عليها ضوء الكشاف تصرخ أو تركض بعيدًا . . لقد انتصر الإنسان الآلى . . ارتد البشر

إلى مراحلهم البدائية الأولى .. النهاية الحتمية لخروج الإنسان من قصوره الذى اقترفه فى حق نفسه من خلال عدم استخدامه لعقله إلا بتوجيه من إنسان آخر .. لا يعرف سيزمار للحظة قبل عبور الحاجز ذى اللونين الأبيض والأحمر أى جانب يحميه هذا السور .. ما تحدد اليوم أنه ليس بوسعه تقديم أى جديد فى هذا الشأن .. وغالبًا ليس فى أى مجال على الإطلاق .. أمامهم المدينة بقاذوراتها وأنوارها التى تسطع مثل النجوم العديدة فوق الخير والشر على حد سواء .. بطول الطريق منازل ودوائر النار أمام أكواخ مصنوعة من الصفيح، ظل أشخاص .. كسل، شاى من أباريق من صفيح بطعم حلو ومر، فول مدمس، أحاديث حتى حلول الليل.

يتصل سيزمار بمدام صمدى على هاتف السيارة؛ ويخبرها بأنه ذاهب إلى المنزل ولن يعود إلى المكتب اليوم لأسباب مرضية- غالبًا بسبب مشكلات فى المعدة .. بإعرابها عن قلقها عليه أكد التزامه بجميع مواعيد الغد .. تقول مدام صمدى: «قبل أن أنسى لقد اتصلت مدام ديتريو من السفارة الفرنسية .. سوف تعاود الاتصال لاحقًا .. فهل أبلغها بشىء؟».

يعتقد سيزمار أنه يسمع نبرة غريبة فى سؤالها، لكنه يتجاهلها: «لا .. شكرًا .. سوف أتولى بنفسى هذا الأمر».

كيف يمكن أن تختلى بنفسك فى مدينة ذات سبعة عشر مليون نسمة؟

سـرى خاص - محظور التـداول ولا يتم الاطـلاع عليه إلا بمعرفة المختص

عاجل جدًا

من القاهرة

13 ديسـمبر 1993، السـاعة الخامسة عشـرة وأربع وثلاثون دقيقة حسب التوقيت المحلى.

موجه إلى وزارة الخارجية، قسم 301.

موجه أيضًـا إلى: رئيس ديوان المستشـارية الألمانية، وزارة الداخلية.

رقم الملف: 761 الشئون القانونية والقنصلية.

حرر من قِبَل: سيزمار.

بخصوص رفض الطلب المقدم لتسليم المواطن الألمانى يوخن عبد الله سافاتسـكى .. وكذلك تحديد ميعاد الجلسـة وتولى مكتب محاماة بالقاهرة التفويض بالدفاع.

يتعلق الموضوع هنا بإخطار وزير الداخلية المصرى بأن بلاده لن تسـتجيب لطلب الحكومـة الاتحادية بالتسـليم .. حدد المجلس الأعلى للقضـاء العسـكرى يوم 28 ديسـمبر 1993؛ لبـدء محاكمة المواطن الألمانى .. تم إسناد التفويض بالدفاع إلى مكتب محاماة بالقاهرة.

-للاطلاع-

الفقرة الأولى

ملخص:

أخطر وزير الداخلية المصـــرى السفارة برفض حكومته لطلب التسليم الذى قدمته الحكومة الاتحادية . . صدر القرار بالأمس فى اجتماع وزارى حضره أيضًا الرئيس المصرى مبارك . . لا ترى الحكومة المصرية تأثيرًا للقرار على الاتفاقيات المطروحة لتكثيف التعاون فى القطاع الاقتصـــادى . . ولقد أعلن - أيضًـــا بالأمس- المجلس الأعلى للقضـــاء العســكرى بالقاهرة بدء محاكمة المواطن الألمانى يوم 28 ديســمبر 1993 ، ســوف يمثــل بجانب المواطن الألمانى أيضًـــا شريكاه المشتبه فيهما أمام المحكمة وهما المواطنان المصرِيّان سمير المصرى وصلاح محمودى . تم إسناد التفويض بالدفــا ع لــكل مــن المتهمين الثلاثــة إلى مكتــب المحامــاة «بيَّاتى وبيضــون» بالقاهرة . لم يتم إشراك السفارة فى اتخاذ هذا القرار ، ولكنــهـا قامت فى غضـــون ذلك بالاتصـــال بالمحامـــى الدكتور بيَّاتـــي .

-الفقرة الثانية-

التفاصيل:

أولًا: أبلــغ وزير الداخلية المصــرى حســن الألفــى فى حديث خاص مع الســفارة - الممثلة فى شــخص الســفير ونائبــه - اليوم الموافق 13 ديسمبر 1993 فى تمام الساعة الواحدة وعشر دقائق بعد الظهر حسب التوقيت المحلى- بقرار الحكومة المصرية بعدم تسليم المواطن الألمانى يوخن عبد الله سافاتسكى إلى ألمانيا. جاء القرار مساء الأمس بإجماع الأصوات فى إطار اجتماع وزارى شارك فيه الرئيس المصــرى مبارك .. لم يكن هذا القرار خيارًا سهلًا للحكومة المصرية بحسب قوله وإنما اتُخِذَ بعد تقييم لمميزات وعيوب الخيارين وتوصــل إلى أن تسليم سافاتسكى يتناقض بقدر كبير مع مصــلحة الأمن القومى المصري .يشكل تسليم سافاتسكى للسلطات الألمانية إجراءً اســتثنائيًا وبالنظر إلى واقع أن الارهاب فى مصــر يُدْعَم بشدة من قوَى أجنبية قد تفسر ذلك على أنه تشجيع لمواصلة نشاطاتها، ويصــعب من ناحية أخرى إقناع الرأى العام المحلــى بأن ارهابيًا من أصــل أوروبى يُعَامل بشــكل مختلف عن شركائه المحليين، خاصة إذا وضعنا البعد السياسى لتلك القضية فى الاعتبــار .وبما أن المواطن الألمانى سافاتســكى امتنع تمامًا حتى الآن عن الإسهام فى تفسير شامل للهجوم، أو تقديم أيه بيانات عن المحرضين، الهيكل التنظيمي، جهات التمويل وتوجهات مستقبلية لمنظمتــه، لذا فلن يتــرك الجانب المصــرى أبوابًــا غير مطروقة فى ســير الإجراءات لمحاولة إقناع المتهــم بمراجعة موقفه وذلك بهدف إحباط أى جرائم مستقبلية، وبخلاف ذلك فإن نقاط الاتهام

المجمعة ضد سافاتسكى من هيئة الادعاء العام الاتحادية فى ألمانيا لا تقارن بخطورة اتهامات النيابة العامة العسكرية المصرية . . فحتى مع توقيع أقصى عقوبة عليه مسموح بها فى إطار عقوبات القضاء الألمانى ليس من المتوقع أن يلقى عقوبة توازى حجم جرائمه المرتكبة فى مصر . . ويُخشى – على العكس – من أنه قد يُطلق سراحه من السجن بعد أعوام قليلة . . وبالنظر أيضًا لدعمه غير المشروط للإرهاب – على الرغم من التحقيقات المكثفة معه- يُتوقع عودته إلى ممارسة نشاطه الإجرامى بعد انتهاء مدة السجن .

ثانيًا:أكد وزير الداخلية حالة الإجماع التى اتخذ بها ذلك القرار فى الاجتماع الوزارى ، أكد الرئيس المصرى مبارك على العلاقات الممتازة مع ألمانيا وصرح عن قناعته بأن قرار حكومته لن يعكر صفوها ، وأشار فى هذا السياق مرة أخرى إلى خطر التطرف الإسلاموى الذى يهدد المجتمع الدولى. حققت مصر فى الفترة الأخيرة نجاحًا كبيرًا فى محاربة الإرهاب وأرجع الفضل فى ذلك إلى التطبيق المستمر لإجراءات واستراتيجيات صارمة . . ولقد كشفت نتائج التحقيق حتى الآن عن خطط طويلة المدى وأهداف للمنظمات الإسلاموية التى تسعى إلى توسيع نطاق أعمالها لتصل إلى بلاد غرب أوروبا وأمريكا . . يرى مبارك أن حسم حكومته – تضامنًا مع الجهات القضائية – فى التعامل مع الإرهاب هى خطوة غاية فى الأهمية لإعادة النظام فى بلاده . . وأكد قناعته بأن مصر تُقَدِم بهذا النهج إضافة مهمة لأمن أوروبا وأمريكا ، ويتمنى أن يُفهم ذلك من قبل الحكومة الاتحادية على هذا النحو .

ثالثًا: عبر عن اطمئنان حكومته بدفع الجانب الألماني مستقبلًا لعملية تكثيف التعاون الاقتصادى للبلدين المتفق عليه فى الماضى القريب . . أما فيما يتعلق بالجانب المصرى يستطيع التأكيد على الاستعداد التام لذلك.

رابعًا: الرئيس على استعداد تام لحوار شخصى مع وزير الخارجية الألمانى لشرح أسباب قرار حكومته، وكذلك بحث رؤية التعاون المستقبلى بين البلدين سواء على الصعيد الأمنى أو الاقتصادى.

خامسًا: صرح وزير الداخلية المصرى بخلاف ذلك بأن المجلس الأعلى للقضاء العسكرى قد حدد يوم 28 ديسمبر 1993، فى تمام الساعة العاشرة حسب التوقيت المحلى ميعادًا لبدء المحاكمة التى تضم إلى جانب المتهم الألمانى سافاتسكى؛ المصريين المقبوض عليهما معه وهما سمير المصرى وصلاح محمودى . . ولقد أبدى الوزير توقعه لمحاكمة سريعة؛ نظرًا لاعتراف المتهمين الثلاثة وثبوت الأدلة، إضافة إلى الاعتراف الشامل لصلاح محمودى ووجود شاهد ملك آخر لدى الادعاء.

سادسًا: وكما هى الحال فى قضايا سابقة؛ فقد كلف المجلس الأعلى للقضاء العسكرى مكتب محاماة مناسبًا ليمثل كل من المتهمين الثلاثة . . وقع الاختيار على الشريكين المشهورين بالقاهرة (بيَّاتى وبيضون) اللذين يملكان خبرة كبيرة فى قضايا مماثلة مع مهارة فائقة فى شئون القانون الدولي . . ولقد تم فى حينه تسليم ملفات

التحقيق ومذكرة الاتهام إلى مكتب المحاماة لضمان إجراء محاكمة دستورية . . طالَبَ الوزير مجددًا بتفهم السفارة لتوكيل الدفاع عن سافاتسكى دون تنسيق معها وأن الاطلاع على ملفات القضية لا يزال مقتصرًا على الدفاع المسند إليه الأمر ، حيث إن المحاكمة مدعمة بمستندات من جهاز المخابرات يخرج محتواها عن سياق تلك القضية . . تتضمن المستندات معلومات ذات أهمية كبيرة تمكن من الوصول لأعضاء آخرين وتدمير شامل لجماعة الجهاد .

سابعًا: أخبر المحامى الدكتور يوسف البيّاتى السفير فى مكالمة تليفونية بأن عدد أوراقِ ملف التحقيق تخطى الثلاثة آلاف ، وأنه يتعذر دراستها فى خلال الأربعة عشر يومًا المتبقية لحين بدء التحقيق . . وبما أن الأدلة قاطعة فسيحاول بالدرجة الأولى اكتشاف أخطاء إجرائية التى قد تمد الإطار الزمنى للحوار على المستوى السياسى على أقل تقدير .

-الفقرة الثالثة-

التقييم:

لا يعد من المنظور المحلى قرار الحكومة المصرية بعدم التسليم مفاجأة؛ وذلك على الرغم من المجهودات المتعددة من قبل السفارة ووزارة الخارجية . . ففى ظل الإشارات المتكررة للوزير إلى الاهتمام الشخصى للرئيس المصرى بتصفية الإرهاب يجب الانطلاق من انعدام مساحة التفاوض فى هذا الشأن . . وعلى الرغم من ذلك فإن إجراء حوار فى وقت قريب بين كل من وزير الخارجية والرئيس سيكون مفيدًا بالتأكيد؛ وذلك من أجل التفاوض على أعلى مستوى لإيجاد سبل تحيل دون تنفيذ الحكم المتوقع بالإعدام شنقًا فى حق سافاتسكى . . ونود فى هذا السياق الإشارة مجددًا إلى أن الرئيس عزز جميع الأحكام الصادرة بالإعدام شنقًا ضد مجرمين إسلامويين وتم تنفيذها فورًا.

وعلى الرغم من عدم إعطاء السفارة حق المشاركة فى اختيار الدفاع، ولكن يعد اختيار مكتب محاماة (بيَّاتى وبيضون) بالقاهرة خطوة تُقَيَم على أنها تجاوب من الطرف الآخر؛ فلقد سبق توكيله فى الماضى فى قضايا متعددة من قبل السفارة . . يعد ذلك المكتب مواليًا للحكومة ولكنه سعى فى حالات مشابهة لتحقيق محاكمات دستورية، وذلك بقدر ما هو متاح فى إطار تطبيق القوانين الخاصة. . بما أن الحكومة المصرية مصرة بشكل قاطع على استقلالية القضاء، فمن وجهة نظر السفارة أن السبل الدبلوماسية

المتاحة لتغيير مسـار المحاكمة لصـالح المواطن الألمانى محدودة للغايـة .. تتبـع السـفارة حاليًا تقييـم الدكتور بيّاتـى والذى يعتبر الفرصـة الوحيدة لمنع إعدام سافاتسـكى؛ وتتمثل فى كشـف خطأ إجرائـى فادح .. يشـير الاختيار لذلك المكتب إلـى احتمال تعمد الحكومة المصـرية بشكل غير مباشـر الوصول لحل مقبول لجميع الأطراف.

كلاوس سيزمار (السفير)

قالت فرنسـواز: «يعرف كثير من الأديان طريق المحارب.. ربما تقع الإسلاموية فى هذا الإطار.. دون رغبة منى فى تجميل الإرهاب - لو لم تكن تشعر بشىء مشابه لكان سافاتسكى بلا أهمية لك».. هز كتفيه وأوضـح لفرنسـواز أنه يصنف وصفها هذا على أنه نوع من المبالغة الروحانية ويعتبره عبثًا خطيرًا.

ينظر سـيزمار من النافذة؛ لو كانت الشـمس مشـرقة لاتسمت الخضـرة فـى الحديقة بالانتعاشـ والنظافة.. ولكنهـا تبدو تحت السـماء المغيمة كأنها ميتة مثل شـجر الصفصـاف الذى تسـاقطت أوراقـه وسـكنه الغربان.. صـوت إنذار سـيارات الشـرطة، أصـوات عجل يمر ببرك مياه.. لم يسمع دويًا لانفجار.. ليست القاهرة هى المكان المناسـب فى منتصـف ديسـمبر للجلوس على المكتب وتحديق النظر إلى الأمطار المتساقطة.

لم يذهب إلى الطبيب بعد على الرغم من اسـتمرار الشكوى.. كان سـيأخذ إجازة مرضـية فى الأوضـاع الطبيعية، ولكن تحت وطـأة هذه الظـروف ليس التغيب عـن العمل متاحًـا، ناهيك عن الانقطاع لفترة طويلة.. يجب أن يحضـر جميع المواعيد المتعلقة بسافاتسكى بصـفة شخصـية.. يجب ألا يظن نظراؤه أنه مصاب بحالة ضعف.. يخفى آلامه قدر الإمكان، يبسط الأمور، يخترع حججًـا ويحاول القىء دون إصـدار أى أصـوات. يعتقد أنه رأى آثـارًا للدماء فى القىء أول أمس، ولكنه ليس متأكدًا.. ما تقوله عزيزة يوميًا فى الصـباح: «مريض، أنت لا تزال مريضًـا».. تنظر إينس بقلق وتومئ برأسـها تأكيدًا على حديث عزيزة، ولكنها تكتم أى نصائح.. إذا تساءل أحد على المائدة عن أسباب قلة طعامه

أو عدم تناوله الطعام يتعلل ضاحكًا بمحاولته التصدى لسمنة عمر الخمسين المقتربة . . استعاض عن القهوة بالشاى ويجاهد من أجل تقليل التدخين . . يعد ذلك مهمة صعبة، خاصة فى المكتب؛ حيث يفقد الوقت أى قابلية للقياس متحديًا جميع الساعات الموجودة . . يرن الهاتف وتقول مدام صمدى: «يريد الطباخ أن يعرض عليك قائمة الطعام ليوم السبت للحصول على الموافقة» . . مجرد التفكير فى الأوز المحمر يقلب معدته، «بلغيه بثقتى الكاملة فى اختياراته» . . . «ولكنه يرغب فى التحدث إليك بصفة شخصية» . . صوت ضحكة خافتة لمدام صمدى .

لا يمكن الوثوق بالقوى العقلية للطباخ السيد (مونزينجر) خارج نطاق المطبخ . . لا يدور حديثه إلا حول الطعام . . يدون أثناء دخوله بعض التغييرات على قطعة ورق متسخة ببقع دهنية، ويتمتم مثل مخبر مشتت الذهن استبدل اليوم معطفه برداء المطبخ . . «الجرجير قد يقابل الروكولا»، يعلو صوت التمتمة: «كيف يمكننى إعداد معجون كبد البط دون استخدام النبيذ؟»، يبدو من نظراته المشتتة أنه لم يلحظ وجود سيزمار بعد، «الكرفس المحمر وكرات البطاطس بالجزر» . . يعرف سيزمار تفاصيل هذا المشهد ولذا يبقى جالسًا . . تحية السيد (مونزنجر) باليد قد تشتته . . إنه لا يتوقع إجابات بأى حال من الأحوال . . لا يتوقف عادة عن الحديث منذ لحظة دخوله الغرفة وحتى مغادرته . . يجب قبل كل استقبال كبير أن يلقى خطبته أمام السفير . . تدور حوارات (مونزينجر) منذ تولى سيزمار منصبه حول موضوع استخدام الكحول والوجبات المتعلقة به، وذلك على الرغم من

وضـوح التعليمات؛ يُقَدّمْ كل من النبيذ والبيرة للشـرب ولكن من أجل مراعاة الضـيوف المسـلمين لا يسـتخدم الكحول فـى إعداد الطعام، ينطبق ذلك أيضًـا على الصلصـات والحلويات بصـرف النظر عن تبخر الكحول أثناء الإعداد . . »إذن لا يمكننى استخدام النبيـذ مع الكرنب الأحمر . . أليس كذلك؟ أعتقد أننى أخذت القليل منه فى العام الماضى . . ربما أثناء استقبال عيد الوحدة . . نتغاضى فـى هذا الإطار عن الأمـر قليلًا . . ولكن لمـاذا؟ لا، لقد كان منذ عامين . . عفوًا . . لم يهتم السـفير السـابق بهذه المسألة كثيرًا . . لا أوجه لومًا لسـيادتكم . . لكل واحد منّا أولويات . . أنا أيضًا . . إذًن فلا . . أتسـاءل ماذا يفعل الفرنسـيون؟ ديك رومى بعصـير العنـب؟ ربما لا يهتمـون بالأمر . . ذلك الشـعب العظيم . . لدىَّ بعض الأفكار الجديدة، خلط خل البلسـميك مع شراب البيلسان مع قليل من عصير الرمان . . ما رأيك؟ ويمكن فى هذه الحالة استبدال العرعر بالكسبرة . . كحبوب وليس كخضرة . . ولِمَ لا نضع قليلًا منِ الزنجبيـل؟ والقرنفل والقرفة طبعًا . . وقليل من الينسـون . . أعترف بأنها تجربة . . ولكننى متفائل بالنتيجة . . سيعجب العرب بهـذا الطعـم . . إنهم يعرفـون الكسـبرة . . يمكـن الاقتراب من عاداتهم . . ربما سـيظلون مسـالمين فى هذه الحالـة . . فهل نقوم بهذه التجربـة؟ هناك الكثير من الأحداث فى هـذه الأيام . . يجب أن يكون لديك أحد يتذوق الطعام قبلك . . مثل كليوباترا . . ولكنه لم يكن ذا فائدة . . سـوف نضـع سـكاكين حادة علـى المائدة بأى حال . . أليس كذلك؟ خسارة أنهم لا يأكلون هنا بالعصا . . سيكون الأمر أقل خطورة . . ولكن من ناحية أخرى يجد من له رغبة فى شـىء طريقًا . . لا يمكن أن تتصور حجم المشكلات التى واجهتها

فى فرانكفورت بسبب سكين المطبخ ذى الحدين . . لقد هددونى بغرامة تتخطى بضع مئات الماركات . . وأتوا بمتخصص . . يا إلهى !ولكنه كان لحسن الحظ رأيه من رأيى . . . .أريد أن أضع طبقة لامعة على صدور الأوز ، لن تكون على الطريقة الألمانية التقليدية ولكنها حسنة المذاق ومقرمشة».

يجلس سيزمار ويحاول عدم تخيل رائحة الوجبات أو طعمها بقدر المستطاع . . يدرك أن كل شىء سينفذ وفق تعليماته يوم السبت ، ولكنه لن يقوى على تناول أى شىء منه . . «صنعت من أجل كرات السمك صلصة مكونة من شراب شعير خالٍ من الكحول . . لا يوجد فرق تقريبًا».

يفكر سيزمار فى زرقة البحر والسماء يوم عيد زواجهما ، يفكر فى رائحة إينس وشعرها الناعم.

«حسنًا . . . أعرف الآن كل شىء . . ولا حتى الروم مع الزبيب داخل الكعكة؟» . . «نعم» . . «هذا ما توقعته بالفعل».

ينسى السيد (مونز ينجر) من كثرة انشغال باله فتح باب الغرفة ليخرج ، يظل واقفًا أمامه كما لو أنه داخل مشهد سينمائى توقف فجأة.

يصاب سيزمار بالذعر من يوم السبت . . سيعقد حفل استقبال لأعضاء السفارة وعدد منتقى من الضيوف المميزين بمنزله فى المقر البديل ، لا يرى سبيلًا لتأجيل أو إلغاء الحفل؛ فتوقعات الطقس جيدة ، سترتفع درجات الحرارة ، يمكن فى هذه الحالة الاحتفال

فى الحديقة . . قد ينتهى بهم الأمر إلى احتفال ألمانى تقليدى بأعياد الميلاد داخل المنزل تحت زخارف من الجبس والنجف . . لقد وصلت أشجار أعياد الميلاد . . . يتعذر عليه فى واقع الأمر تقبل عدم فصل الكنيسة عن الدولة فى هذا السياق ، وذلك على الرغم من أنها مناسبة رسمية جاءت فى إطار رسمى؛ لدرجة أنه وُضِعَ نموذج لمشهد مولد المسيح . يعد من مهامه توزيع الهدايا وتجاذب أطراف الحديث بالإضافة إلى تغذية الشعور لدى جميع الحاضرين بأنه لا يمكن الاستغناء عن أى واحد منهم . . يجب أن يتمالك نفسه لساعات على الرغم من شعوره بفقدان السيطرة على نفسه .

إنه يشم رائحة غريبة . . يتساءل سيزمار وهو يفتح النافذة إذا ما كان السيد (مونزينجر) يشرب ، ما دامت لا توجد شكوى من تغيبه أو إهماله للعمل لن يحتاج إلى اتخاذ أى إجراء .

من أين تأتى القدرة على التركيز عندما يفقد المرء ضالته؟ من أين نأتى بالدافع ؟ يود إخفاء رأسه داخل قبعة سوداء مثل الأرنب ، ولكنه يجهل التعويذة .

يغير سيزمار وضع الأوراق أمامه ويزيح أكوامًا إلى أماكن مختلفة ليبدو مكتبه على الأقل منظمًا ، مكان عمل لرجل مشغول ولكنه مسيطر على زمام الأمور . . تقع صورة إينس إلى الخلف وتسقط على الأرض . . ينكسر الزجاج . . إنه مكان كسر وحيد واضح دون تفتت للزجاج . . قبل أسبوع واحد كان سيعتبر لهذه الواقعة علامات وإن كان يعتبر الإيمان بهذه الخرافات أمرًا طفوليًا . . الصورة سليمة . . تبدو إينس سعيدة . . سوف يستبدل الزجاج المكسور بزجاج جديد .

إنــه يتذكــر الآن؛ كانت تضــحك لأنها لحظة التقاط الصــورة؛ رأت خلفــه طفلة يجرى فوقها كلب ضــخم وذو فرو كثيف، وبدلًا من البكاء ظلت الطفلة من شدة المفاجأة جالسة وتقذف حبات الرمل على وجهها الصغير . . لماذا لم ترغب إينس فى إنجاب أطفال؟

إنه فى مأزق . . لا يجد مخرجًا . . ســوف يطلب من فرنسواز عدم حضور حفل الاستقبال على الرغم من إرسال دعوة لها.

يبدأ برنامج حافظ الشاشة فى العمل على الحاسوب الآلى ليظهر قرود الغابة من فصــيلة الجيبون أو إنســان الغاب وهى تتأرجح، "أينما تبصق تجد نباتًا" . . لقيت إينس فى بوجوتا صعوبات أقل على الرغم من وجود مخاطر أكبر من الناحية الموضــوعية، ربما لأن أوروبا – برغم كل شىء – كانت حاضرة بشكل ملموس . . يتذكر شــعوره بالغربة التامة حينما نزل من الطائرة للمرة الأولى فى بلد إســلامى، كانت المغرب فــى ذلك الحين . . ربما كان ســيتحول هذا الشــعور لدى شــخص آخر إلى خوف . . سوف يستعيض عن القرود بأسماك الشعب المرجانية، إنها تليق أكثر بالبحر الأحمر . . توجد هناك أيضًا حبات الرمال التى تشبه القطرات . . يشغله سؤال عن قدرة يوم ســعيد علــى قلب التطورات فتنفــرج الأزمات على الرغــم من عدم تغير أى شــىء على أرض الواقــع؟ قال (لمبرت زيندولفنجر) فى ســياق حديثه عن علاقة الرجال بالنساء: «سوف تظل بالحماقة نفسها ولكنك تعتادها مع الوقت».

يجــب أن يتصــل بفرنســواز ولكنه يؤجــل هذه المهمــة . . لن يعيش حياة مزدوجة، هذا قرار نهائى . . إن الشعور الذى يجمعه

بفرنسواز له قيمة تفوق القبول بهذا الوضع . . قد يمزقه مواجهة إينس يوميًا وهو يكذب – إنه يتمزق بالفعل . . برؤية واقعية ليس لعلاقته بفرنسواز أى مستقبل . . الأمل ضعيف فى إرسالهما إلى المكان نفسه مرة أخرى . . كما أنه من الصعب التنقل بين مدغشقر وكوبنهاجن أو مونتيفيديو ومدريد بشكل دائم . . لم تقم بينهما بما يسمى حياة يومية مشتركة من قبل . . يعد هذا هو أساس قيام العلاقة واستمرارها . . ربما بينهما تشابه أعمق من أن تلحظه الرؤية بالعين؛ تآخ لأرواحهما . . ينقصهما ذلك السر الذى يجمع أى ثنائى حتى لحظة انكشافه أو اختفائه . . حينما تعرف عليها فى طوكيو لم يكن التوقيت مناسبًا لبداية قصة حب كبيرة . . كان هناك أثر باق لقصة قديمة . . أما الآن فحالته الصحية لا تسمح . . ليس ملزمًا بتقديم كشف حساب إليها وهى لن تطالب به . . تلك هى ميزة هذا النوع من العلاقات . . أما عيبها؛ فيبدو الفرق جليًا بين القول والنية . . يجب أن يقول لها فى وقت ما «أنا واثق من أن يومنا سيأتى» . . لن يكون بالضرورة كذبًا . . حينما ودعها فى طوكيو قال شيئًا مشابهًا: «يجب أولًا أن أصالح نفسي» . . لا يريد أن يجرح إينس . . إنها لا تستحق ذلك . . يتحمل هو جزءًا من المسئولية عن الصعوبات الحالية . . يجب أن يتفادى استخدام كلمة «حب» ، «الأمر مع إينس مختلف ، ويصعب وصفه» . . يريد أن يمنحها – بل هما معًا– فرصة أخرى ، «لا أعرف بالطبع إذا كانت هذه الفرصة متاحة أم أننى أوهم نفسى حتى لا اضطر إلى تغيير الأوضاع القائمة» . . لا يمكن لأحد أن يتنبأ بتطورات إجراءات الطلاق ولا بالجرح الذى سيتركه . . يجب أن يكون لحديثه ملمح حيرة ، ثم يملأ فراغ الصمت بالمأساوية . . ثنائية الواجب

والرغبة، الطريق الوعر إلى السعادة، «تتغير أحوال إينس فى الوقت الحالى» . . لديه هذا الانطباع وعبرت هى أيضًا عن ذلك . . ربما كان الاندلاع المباشر للصراع جزءًا من حل المشكلة . . قد تبدو الأمور أثناء الشجار بشكل أوضح . . حينما لا تفقد الأمل . . قطعًا لم يكن الخاتم السبب الفعلى، ولكن اشتراه سيزمار فى التوقيت المناسب . . يجب ألا تعرف الملابسات أبدًا . . لقد فتح الخاتم المجال لتطورات كانت كامنة وكانت تعطى انطباعًا مختلفًا تمامًا . . يغلبه حاليًا بالخجل حينما يراه فى إصبعها . . لا تعرف إينس عن ذلك شيئًا، ربما تشعر بشىء غامض لا تجد له تفسيرًا . . تحتاج العلاقات إلى ألغاز، مساحات بيضاء وسوداء . . يومًا ما سيتذكر ويضحك . . مما لا شك فيه أنهما يتفاهمان بشكل أفضل الآن فى جميع المجالات . . لم يفت الأوان بعد . . تفكر إينس كثيرًا . . تعترف بأخطائها؛ أنها ظنت الحب والحياة المشتركة كافيين . . إنها لم تدرك بشكل كاف معنى الزواج بدبلوماسى وتغير محل الإقامة كل ثلاث سنوات، والنظر إليها على أنها الزوجة الداعمة له وانعدام فرص النجاحات فى العمل. أرادت لفترات طويلة أن تحمله هو ذنب ذلك، كانت فى البداية دون قصد منها ثم جاءت على هيئة اتهامات توجهها له، أحيانًا دون مبرر. بدأت تقتنع بأنها مسئولة عما تقوم به وما لا تقوم به . . تسعى مستقبلًا إلى تناول الأمور بشكل مختلف . . اتصلت هاتفيًا بالبروفسر (بومر) وسألته عن استعداده للإشراف على رسالة الدكتوراه إن قررت مواصلتها . . فوجئ البروفسر (بومر) بطلبها ولكنه شجعها . . كان دومًا مقتنعًا بقدراتها العلمية . . تخطط إينس لمقابلته نهاية شهر يناير فى بون . . تريد بعد ذلك البحث عن مادة علمية إضافية فى

أرشـيفات المسارح المختلفة .. قد تتغيب لمدة شهر على الأقل .. فى الأغلب فى نفس توقيت صدور الحكم بحق سافاتسكى.

«يشـبه النظر إلى المسـتقبل بالنسـبة لىّ النظر إلـى داخل فوة مدفع».

يقضـى الألم على جميع قواه .. حتى إن ظل كامنًا طوال اليوم ولم يلحظه إلا على هيئة ضغط أو شعور بالغثيان .. يريد سيزمار طول الوقت أن يغير وضعه .. لا يلعب دورًا إذا انحنى للأمام أو للخلف، إذا تنفس بهدوء أو بعمق، أو إذا جلس أو ظل واقفًا.

يصعب تحديد توقف المطر أو استمراره.

يجب أن يلملم شتات نفسه ويجبرها على القيام بالمهام المقبلة؛ أمامه تقرير لمنظمة مصـرية لحقوق الإنسـان رصدت وفاة ثلاثة عشر سـجينًا فى العام الحالى متأثرين بانتهاكات ارتكبت بحقهم.. تسـعة منهم كانـوا داخل سـجون ومعتقلات وأربعة داخل أقسـام شـرطة. كانوا جميعهم متهمين بجرائم إسـلاموية .. لا تعترف الحكومـة بتلـك المنظمة .. تم حتى الآن تجاهـل جميع الاتهامات بالتعذيب على المسـتوى الرسـمى أو إنكارها أو وصـفها على أنها حملة شنعاء من الغرب ضد مصر.

سـوف يبلـغ وزارة الخارجيـة الألمانيـة بهذا الأمـر؛ حتى لا يُدَعى أنه لم يكن يعرف شـيئًا .. كلما أطال تفكيره يزيد اندهاشـه مـن عدم منع سافاتسـكى من وصـوله إلـى القاهـرة .. يبدو أن مكتب حماية الدسـتور لم يرَ ضرورة لإبلاغ مكتب محافظة ولاية

هيسن . . لماذا لم يتم إشراك مكتب مكافحة الجريمة الاتحادى؟ لماذا لم يُجَنِّد أفراد إضافيون لمراقبة جميع تحركاته . . لو اتخذت تقارير المصدر بشىء من الجدية لكانت كافية تمامًا ودون عناء للقبض عليه بتهمة الشروع فى تشكيل جماعة إرهابية . . لم يُجِب المصدر بالقطع أو النفى عن سؤال حول محاولات اقتناء أسلحة أو متفجرات . . وأشار فى سياق زيارة المُجَنِّد المصرى إلى أنه بات تشكيل مجموعة سرية أمرًا واضحًا؛ وأنه لا يمكنه اختراقها ومن ثم عدم معرفة نشاطاته . . بدلًا من توسيع نطاق الإجراءات نحَت الجهات المعنية الملف جانبًا حتى لا يزعج أحدًا . . كانت هناك مهام أكثر أهمية؛ بعد مقتل (هيرهاوزن) و(روهفيدر) جذبت جماعة الجيش الأحمر الأنظار إليها مرة أخرى بعد أن ظن الجميع أنها قد انتهت . . ارْتَكِبَتْ أيضًا فى هذا السياق أخطاءٌ فادحة لدرجة أن وزير الداخلية اضطر إلى الاستقالة . . لم يُحَلْ النائب العام الألمانى إلى المعاش المبكر إلا فى شهر يوليو الماضى . . فعلى الرغم من تشكيل العديد من اللجان الخاصة؛ فإن معظم كوادر الجيل الثالث ليست معروفة حتى بالاسم . . ولكن تبع ذلك على الأقل اتخاذ إجراءات . . لا يتوقع ذلك فى حالة سافاتسكي.

يستطيع سيزمار أن يتصور ما قد يحدث إن رقد فى مستشفى ألمانى ولن يتمكن من رعايته بصفة شخصية . . يبدى الدكتور (فريبة) انزعاجه من مجرد سماع اسمه؛ أما (كلوسن) و(بوزنايدر) فيطلقان النكات عليه: «ما الفرق بين الإسلاموى والقفطان؟ يغسل القفطان قبل أن يُعَلَّقَ». . لا يرى وزير الخارجية ضرورة للمجىء إلى مصر ولقاء مبارك . . أما الصحافة فلا يمكن انتظار

أى خير منها . . لقد حولوا سافاتسكى إلى شخصية كريهة تضمن نفاد طبعاتهم . . لقد مرت البهيمة على جميع أنحاء القرية وسوف تنحر خلال شهرين أو ثلاثة.

يعرف سيزمار أنه من الأفضل عدم التأثر بكل ذلك والاقتصار على الأمور التى يملك التصرف فيها . . لم يبقَ له فى واقع الأمر سوى تذكِرة الجانب المصرى بشكل منتظم بأن ألمانيا سوف تتخذ إجراءات صارمة فى حال تعرض سافاتسكى للانتهاكات مجددًا، وأن يظل آملا فى رغبة القاهرة فى التخلص منه فى أقرب وقت ممكن . . يراهن الدكتور البياتى على أن المحكمة ستتعمد ارتكاب أخطاء إجرائية قد تمنع صدور حكم أو تنفيه . . يكون تسليم سافاتسكى فى هذه الحالة ممكنًا . . كما أن الحكومة سيتاح لها بهذا النهج فرصة تقديم مصر إلى المجتمع الدولى على أنها دولة قانون، وذلك على عكس الإدانات التى يصدرها ممثلو حقوق الإنسان . . لا يملك سيزمار تقييم حديث الدكتور البياتى على أنه مجرد توقعات؛ أم أنه جاء بناءً على إشارات تلقاها من جهات قضائية تشير إلى هذا الاتجاه.

كثيرًا ما تنتابه فى الفترة الأخيرة شكوكٌ فى أن وزارة الخارجية لا تأخذ ملفاته على محمل الجد . . ربما تتخذ إجراءات حيال حلول على مستوى المخابرات السرية دون إشراكه فى التفاصيل.

تخطى هذا الشلل وأخذ يبدأ من نقطة ما لاتخاذ قرار حتى إن كان خاطئًا . . ليثبت لنفسه قدرته على التصرف . . »يمكنك القيام بأى تصرف ما دمت على استعداد لتحمل النتائج« . . . هذه إحدى

حكم فرنسواز المستوحاة من شرق آسيا . . تقول عبارة كهذه وهى مستلقية على الفراش وبيدها كأس من النبيذ الفوار وتطلق الدخان من فمهـا إلى سـقف الغرفة . . بعـد أن أخذت نفسًـا لعدة مرات: «تستطيع أن تضـاجعنى أو لا تضاجعني، كما تشاء» . . يشعر بأن تقدم عمره لا يسمح بتلك الألاعيب .

وحيـد فى غرف خاصـة . . يفتح سـيزمار درج المكتب ليأخذ مجموعة من بطاقات البريد التى تحمل أعمالاً فنية، يضعها فى جيب معطفه ويغادر المكتب؛ «سوف أنزوى لمدة ساعة فى الشقة . . لن أتلقى مكالمات إلا فى الحالات القصـوى» . . تنظر مدام صـمدى إليه فى حيرة ولكنها لا تقول شـيئًا . . أسـلوبها الماكر فى إشـعاره باستنكارها لا يسمح له بأى رد فعل .

لا يحتاج وقتًا طويلًا لاختيار بطاقة مناسبة؛ التمثالان الشهيران للملـك رع حتب وزوجته نفرت من الأسـرة الرابعة . . ثنائى فى انسـجام متكامل ولكن تفصلهما مسافة أبدية . . وقف أمامهما لفترة طويلة تؤثـره النظرتان ذواتا الوجهات المختلفة، ولكن يبدو أنهما يريان الشىء نفسه .

«حبيبتى فرنسـواز، تعلمين أن حالتى ليسـت جيـدة فى الفترة الأخيرة . . لقد تحدثنا عن الأسـباب مرارًا . . أتمنى ألا تؤاخذينى لـو طلبت منـك الآن التوقف عـن لقاءاتنـا . . تتزايد ريبـة إينس وأصـبح موقفى العائلى غير محتمل . . لا أقوى فى الوقت الحالى علـى اتخاذ الخطوة الأخيرة . . سـوف أقدر عليهـا يومًا ما . . أنا متأكد من أن ارتباطنا سـيظل قائمًا سـواءً كنا معًـا أم لا وأيًا كانت

الأماكن التى سنرحل إليها . . لو وُجِدَت كلمة تصف الشعور الذى بيننا لكتبتها إليكِ . . مع ثقتى الكاملة فيما يربطنا، من (ك)».

يضع البطاقة داخل ظرف . . سوف يرسله مع ساعٍ إلى السفارة الفرنسية ليضمن وصوله اليوم . . هذا هو الفرقُ بين طالب الثانوى والسفير.

يظل جالسًا على مكتبه الصغير، إنه قطعة جمعت بين الفن المصرى وفن العصر الفيكتورى وبها زخارف هندسية تؤثر الناظر إليها، يُطْلَق على هذه الزخرفة اسم «عنكبوت الله»، يظل فى الغرفة لمدة ساعة دون أن ينتظر شيئًا ويغوص داخل خطوطها . . يعود مرهقًا إلى المكتب . . حينما يرسل الظرف يشعر بالكآبة والارتياح معًا . . يذهب بعد ذلك إلى المنزل . . يقضى المساء على الأريكة . . يشاهدان فيلمًا بوليسيًا قديمًا من بطولة (لينو فينتورا) . . . يراقب إينس بطرف عينه ويتساءل إذا كانت قلقة من شىء آخر غير حالته الصحية . . يفكر إذا ما كان وجهها الجميل يعبر عن مرارة متزايدة أم شىء من الثقة . . تتلاقى نظراتهما وتبتسم ابتسامة دافئة . . سيزول خجله . . ما زال خفيًا؛ «لن نهادى بعضنا فى احتفالات أعياد الميلاد . . أليس كذلك؟» – «نعم فلقد تهادينا منذ زمن قصير».

يعمل فى الصباح التالى على إنهاء صندوق ملىء ببطاقات المعايدة . . «يجب أن يكون هذا اليوم هو يوم سعادة للجميع أيًا كان دينهم، أصلهم أو لونهم» . . حرص سيزمار على ألا يشير النص إلى أى شىء مسيحى؛ حتى إن كان ينطلق من أن مسلمى

السفارة يتعاملون دون مشكلات فى هذا السياق. لا يكفى مجرد التوقيع تحت النص المطبوع .. ينتظر معظم المدعوين عبارة مضافة تكون لها صفة شخصية على نحو ما .. يجب أن يفكر فيها بعناية؛ لأن المتلقين يعقدون بالطبع مقارنات.. السفراء فى حاجة إلى قائمة بعبارات التحايا لتعينهم على الاختيار. يخرج بطاقة مدام ديتريو .. يتمنى أن تكون قد فهمت أن بطاقته قد شملت الدعوة لحفل استقبال أعياد الميلاد أيضًا .. يحبس أنفاسه كلما رن جرس الهاتف .. لا يتوقع رد فعل لفرنسواز ولكن من يدرى؟ من أجل تَقَبُّل النتائج يجب إدراكها أولًا؛ ربما فهمت إشارات محددة بشكل بعيد عن قصده أو ربما ألمح فى سياق الموقف إلى أشياء أساءت فهمها .. ربما لا تشكل استقلاليتها سوى واجهة قد تدفن لحظة انهيارها كل شيء معها .. لا يمكن التنبؤ بعواقب حب رُفِضَ وكرامة أُهِينَت .. يتذكر ذلك الفيلم «Fatal Attraction» الذى أزعجه حينما شاهده، قد تنشر فرنسواز شائعات أو تتصل بإينس، قد تأتى إلى حفل الاستقبال وتنشر الفضيحة .. لن تفعل أى شيء من هذا القبيل .. ولكن على الرغم من ذلك يتصبب سيزمار عرقًا. خط يده غير واضح وغير مقروء .. يخطئ أحيانًا فى الكتابة .. بعد الانتهاء من إعداد بطاقات الدعوة يستعد لكتابة كلمته: «مثل كل عام... وذلك لسبب وجيه»... لا يمكن ذكر ولا تجاهل سافاتسكى: «فى هذه الأيام... مرة أخرى، كإشارة للسلام والتفاهم... ندرك حجم مسئوليتنا .. شكرى الخاص أوجهه ...».

يخرج سيزمار من السيارة .. يلفحه هواء دافئ .. يبدو

شـــارع الزُهرة فى حالة ذوبان . . مع حلول ظهيرة الغد ســتتبخر الأمطار . . يفتح شعبان الشباك ويقول: «أبنائى فى غاية الإثارة، يحكون فى المدرســة أننــا ذاهبون إلى احتفال لأعيــاد الميلاد مثل الذى يقام فى أمريكا ولكن دون ثلوج . . إنهم يحبون شــجرة عيد الميلاد والشموع والشيكولاتة الكثيرة . . ولكن أكثر شىء يحبونه هو تلك التورتة الخشــبية، ما اسمها؟» . . «هرم أعياد الميلاد» . . تقتنى الســفارة منذ العام الماضــى نموذجًا جاء من جبال (الإرس) الألمانية . . تدور على خمســة مســتويات العائلة المقدســة، الثور مع الحمــار، الراعى مع الغنم، أوركســترا مــن الملائكة وكذلك مجموعة الحكماء من بلاد المشرق بقوافلهم.

حينما يعبر ســيزمار البوابة لا يكاد يصــدق ما يســمعه . . تأتى نغمــات أغنية «أتيت من الســماء العالية» بصــوت كــورال أطفال إحــدى الكنائس عبر أحد جناحى الباب المفتوح . . تقف إينس على السـلم وتتجاذب أطراف الحديث مع مســئول المنزل السيد (لاينة مان)، تقفز حينما تراه درجات الســلم مثل تلميذة فى المدرسة . . يمسك سيزمار برأسه . . إنه يتوقع الأسوأ . . يخطر بباله أولًا نقاش يدور حول مشــاعر الحنين إلى الماضى فى سياق الاحتفال بأعياد دينية . . يكتفى بتعبير اندهاش على وجهه؛ وجد فى العام الماضى صــعوبة فى إقناع إينس بحضور حفل الاســتقبال، أما اليوم فتريد حفلًا صاخبًا . . كانت تريد أن تبدأ بتزيين المكان منذ أيام . . ولكن لحســن الحظ بقيت أدوات التزيين فى بدروم المكتب حتى صــباح اليوم . . ليس بإمكان سيزمار تكوين رأى فى هذا التحول المفاجئ لسلوكياتها . . يجاهد من أجل نظرة لطيفة: «يبدو أنكما تقضيان وقتًا

لطيفًا» . . «لقد أحضـر السيد (لاينة مان) صـناديق معبأة بأدوات تزييـن من جميـع أنحاء العالم . . يبـدو أن زملاءك السـابقين قد سـرقوا جميع الهدايا التذكارية الألمانية» . . «ظننت أنك لا تهتمين باحتفالية أعياد الميلاد؟» . . «يجب أن تعترف بأنه أمر جنونى أن نقيم معًا هنا فى القاهرة احتفالية ألمانية ضـخمة بأعياد الميلاد تتسم بهذا البذخ المفرط» . . «يقوم السـيد (لاينة مان) وأعوانه بوضع شجرة عيد الميلاد الكبيرة فى الحديقة . . تشبه بالشبكة البيضاء التى تكسـوها قطعة غزل بنات ضـخمة . . «ألا يمكن إيقاف هذه النغمة المزعجة؟ إنها تصيبنى بالغثيان» . . زُينَت شجرة عيد الميلاد التى وُضِـعَت فى قاعة الاسـتقبال؛ تماثيل إفريقية صـغيرة صُنعَت من ريش طبيعى . . فى الأغلب هى عرائس الفودو وإلى جانبها أشكال ملائكة من خشب البلسا قادمة من إندونسيا وتكسوها ألوان زاهية . . تدلت كرات بورسـيلين يابانية رقيقة برسـومات لشجر البامبو إلى جانـب كرات روسـية تُذكر بزى القداس الأرثوذكسـى، وكذلك كرات أمريكية من زجاج برسومات لمشهد مولد المسيح . . أشكال من صفيح لحيوان الآيل يجذب زلاقات، نماذج مختلفة لعلب هدايا لامعة ونجوم بأشـكال منوعة . . قلّد شكل الشموع الحقيقية بحبات الشـمع المتسـاقطة على الأوعية البلاسـتيكية لسلاسـل الأنوار . . نُثـرَت فوقها زينـة متلألئة بعناية . . يغلق سـيزمار الموسـيقى، يجلس على مقعد ويشعل سيجارة . . طعمها بشع ويعزز من شعور بالغثيان فى معدته . . سـيعتبره المدعوون فقد عقله خاصة من هم فى مناصـب رسـمية . . قد تقضـى فرنسـواز فى حالة حضورها أوقاتًا سعيدة ولكنها لن تأتى بأى حال . . يفكر للحظة فى الاستعانة بسـلطة منصبه ونزع جميع تلك الأغراض والاكتفاء بكرات أعياد

الميلاد الحمراء المقبلة من باڤاريا . . تقف إينس إلى جانبه فى ترقب ، يقول: «إنها طريقة مختلفة للاحتفال» ، يبذل مجهودًا لتبدو نبرته محايدة . . تقول إينس: «لم أكن أعرف أنكم تمتلكون كل هذه الأشياء الرائعة» . . «ولا أنا أيضًا» . . من منظور دبلوماسى فإن الموقف كالآتى: لا يوجد تهديد مباشر لمصالح ألمانيا ولكن الأسلوب المتبع لتمثيل البلد فى هذا السياق قد يُفْهَم بشكل خاطئ . . أما تعديل قرارات اتخذت من جانب الزملاء؛ فقد يوحى بوجود توتر فى الأجواء وربما سيترتب على ذلك ما هو أسوأ من مجرد شجرة عيد ميلاد زُينت بشكل غير تقليدى . . ولذا يفضل من منظور عملى ترك الأمور على أوضاعها . . تقول إينس: «أنا أراه رائعًا . . لا يوجد ضرر من تقديم بعض أشياء غير متوقعة . . أليس كذلك؟ فكرت أنه من الأفضل استبدال الأرضية الخضراء بالرمال . . فمدينة بيت لحم تحوطها الصحراء من كل جهة» . . «أشعر بشيء من المبالغة» . . «إنه توجه ما بعد الحداثة ، يجب أن تفهم السخرية النابعة منه . . نحن لا نضع حدودًا لاستعراض هذه الفخامة لنظهر مدى عبثيتها» . . يبدو أن التفكير فى رسالة الدكتوراه قد ذكّر إينس بالمنهج الفني لبعض صناع المسرح الذين تعاملت معهم من قبل . . «كنت أفضل هذا العام بالذات أن تتسم الأمور بالبساطة» . . «صدقني ، سيسعد الزوار بالحفل . . يحب المصريون الفخامة الزائدة ، كلما زاد الذهب ، كان الأمر أفضل» . . «ولكن سيأتى ألمان بشكل أساسى» . . . «خذ الأمور بشكل أبسط ، حاول أن تضحك» . . «افعلوا ما شئتم» . . ينظر سيزنار إلى زوجته نظرة فاحصة ، حركاتها وتعبيرات وجهها؛ ربما تعانى من حالة اكتئاب فى شكل مخفف وتبدأ حاليًا فى مرحلة الهوس . .

قد يوضح ذلك الكثير من الأمور . . يحاول أن يغالب شعوره بالذنب . . يقوم السيد (لاينة مان) ومعاونوه بفتح زينة ورقية طولها خمسة أمتار يريدون تعليقها على المدخل . . السلم جاهز . . يقول أحد المساعدين: «أعطنى المطرقة» . . يفهم سيزمار للحظة دافع محطمى التماثيل . . البيزنطيين والبروتستانتيين والمسلمين، حتى المرضى النفسيين . . كان دائمًا ينفر من فخامة عصر الباروك، ليس فقط فى المجال الدينى . . لو كان متدينًا لأصر على التواجد فى قاعات خاوية . . سافاتسكي محق؛ لقد ماتت المسيحية مجرد حفلة تنكرية؛ «سوف أرتاح قليلًا . . يمكنكم إخبارى حينما تنتهون من هذه المهمة».

تعبر إينس لاحقًا فى المساء وقت تناول العشاء عن شعورها بالإهانة؛ لأنه لا يبادر بأى مشاركة ولأنه أفسد سعادتها . . يقول معتذرًا: «كنت فى غاية الإرهاق» . . «أنا قلقة عليك» . . يقول لها: «لا داعى لذلك» . . ويمسح بيده على وجنتها.

كتل سوداء فى البلغم . . إنه نوع من القيء يطلق عليه «قيء ممتزج ببواقى البن من مشروب القهوة»، لا محل للشك؛ إن معدته تنزف . . ليس بقوة ولكنها تنزف . . تمامًا مثلما نزفت منذ اثنى عشر عامًا . . تصيبه نوبات عرق من إجهاد الشعور بالقيء . . ونوبات عرق بسبب الخوف . . لقد عقد العزم على استشارة طبيب إذا نزفت معدته مرة أخرى . . لقد حان الوقت الآن . . يمضمض سيزمار فمه ويمسح على وجهه، يطفئ النور ويرجع إلى غرفة النوم متأرجحًا . . يستلقى برفق ويلف نفسه مرتعشًا بالغطاء . . يتجمد العرق . . يعبر شريط من ضوء القمر المائدة ثم يزحف على

الحائط . . يشير المنبه إلى الساعة الثالثة. . لا تتحرك إينس . . لم تلحظ شيئًا . . لن يحصل على ميعاد قبل يوم الاثنين . . ولكن الدكتور درقاوى- طبيب محل ثقة – مدعو لحفل أعياد الميلاد . . سيراه فى الأغلب وقت الظهيرة . . لو أتيحت الفرصة سيتحدث إليه . . الأعراض واضحة تمامًا . . قرحة بالمعدة وأسبابها الرئيسية هى بكيتيريا "ملوية بوابية" والضغوط . . يوجد علاج للاثنين على سواء . . عادة ما يكفى علاج مزدوج بالأدوية، مضادات حيوية مع مانع الحموضة ويصحبه الراحة التامة . . أهم شيء هو الراحة . . لن يحضر الموت بهذه السرعة . . فمن الناحية الإحصائية أمامه عشرون عامًا . . ربما بضع سنوات أقل بسبب التدخين . . سيعوضه طول عمر أقربائه عن ذلك . . ولكن إن ساءت حالته سيكون الوضع حرجًا؛ حينما لا تأتى سيارة الإسعاف بسبب ازدحام الشوارع . . قد تكون بضع دقائق هى الفيصل . . من يمتلك المال فى القاهرة سيجد مستشفيات ممتازة ورعاية طبية فى الطوارئ على مستوى غربي . . ليس بالضرورة ورمًا . . ربما أصيب بالتهاب حاد فى المعدة . . لا يمكن إدراك الخوف بالمنطق . . ولكن خف الألم على الأقل . . يقول والده: «ارفع رأسك حتى إن وجدت صعوبة فى ذلك» . . يجب أن يشرب شيئًا يعالج فمه الجاف . . قد يفيد شاى البابونج . . شاى البابونج بالعسل . . النهوض والنزول إلى المطبخ ووضع الماء على النار . . . . يجب أن يخلد إلى النوم . . لا يريد أن يوقظ إينس . . سيكون الغد يومًا مرهقًا . . يداعب ضى القمر المخطوطة التى ما زالت على المائدة . . إنها رغم كل شيء سبب يحب إينس من أجله . . سوف يضعها فى إطار ويعلقها؛ بسبب المساحات الفارغة التى تحيطها . .

"القـوة المعيارية للواقع" "لا تَزْنِ"، "إن الله يغار عليك"، لقد قال سافاتسـكى "اللون الأحمر" هل كان يقصد ذلك الشيء الدافئ الذى يضىء بين الجفن والشـبكية حينما نغلق أعيننا وننظر إلى الشمس؟ أم اللون الأحمر الصارخ لصبغة زهرة الروبيا؟ أم الحجاب الذى تنسـجه النواقل العصـبية المنتهية فى مرحلة ما بين اليقظة والحلم، يتمزق الحجاب فى وسط الليل ويطلق سراح وجوه قبيحة ودموية فتصبح كائنات بلا معالم، تتحول من شكل لآخر، تنفتح وتحوم فى كل مكان وتنمو على سـطحها التحامات وأورام وكدمات، تنفجر فتغمر المخ بسـائل لزج تنشـأ عنه أعضـاء غريبـة، عيون مركبة وكائنات بأرجل كثيرة وخراطيم، تشـكل وجوهًـا قبيحة جديدة، تهمس وتصـدر صوتًا ثم تصـرخ، تعود إلى حالة السيولة، تكسو الوجه ثم الجسـم كاملاً حتى العزل التـام ولا يمكن التخلص منها، تلهب الجلد وتسـبب الحكة جروحًا وتلعق العـرق لدرجة حارقة؛ ثـم تفترس اللحم العالق بالعظام فيختفى الجسـد . . التف بملاءات مبللة تخنقه ولكنه يقاوم، يضـرب بأطرافـه المنعدمة، يئن ويبكى ثم يصـرخ بأحبال صوتية حقيقية . . ها هى تجلس امرأة فى ضوء المصـباح؛ «يا إلهى، ماذا بـك؟»، يجلس إلى جانبها رجل يزغلل الضـوء المفاجئ عينيه . . يتنفس بصـعوبة . . تنظر إليه ثم تسقط على وسـادتها . . تختفى الكائنات الغريبة تدريجيًا؛ «لا شىء، إنه مجرد حلم، اخلدى إلى النوم مرة أخرى».

تشـرق الشـمس . . اتخـذت وحدات من الشـرطة المصـرية موقعها فى محيط منطقة مقر إقامته وانضـمت إليهم وحدة خاصـة بملابس مدنية . . يحاول سـيزمار أن يبدو مسترخيًا . . لم يفصح

وقت الفطور لإينس عن ظهور الدم وعلل توتره بحفل الاستقبال المرتقب؛ إن هذا الخليط من الخصوصية والرسمية الذى قد يترتب عليه مفاجآت غير محسوبة يقلقه، وأنه لا يعرف حتى اليوم أى أداء له سيناسب هذا النوع من الفعاليات، وأنه بخلاف ذلك تظل المخاطرة قائمة ويتحمل هو مسئوليتها كاملة . . يملأ الضيوف الحديقة . . تَخَفَّى موظف من هيئة حماية الحدود الاتحادية على شكل مستقبل للضيوف، ويقوم بوضع علامة فى قائمة المدعوين لمن لبى الدعوة . . يطلب اثنان من زملائه من الضيوف وضع الأشياء المعدنية وعبور بوابة إلكترونية . . يجب على السيدات إظهار محتوى حقائبهن . . الإجراءات محرجة ولكن لا يعبر أحد عن استيائه، بل على العكس يحظى الموظفون بدعم كبير: «نسعد بوجودكم» . . «هذه الإجراءات لحمايتنا جميعًا، أليس كذلك؟»، «يبدو سيزمار بكامل أناقته . . يشعر بالبرد والحر فى آن واحد . .

يحرص على أن يقف بزاوية تتيح له رؤية البوابة . . تبذل قوات الأمن المزودة بالأسلحة مجهودًا لعدم جذب الأنظار إليها ولكن دون جدوى . . يمد يده للتحية ويبتسم، يشعر أحيانًا بأنه مدير لسيرك وأنه الفقرة الرئيسية بأسد أبيض مريض . . يشعر الأسد بالإرهاق الشديد ولا يقوى حتى على فتح عينيه، على الرغم من احتساء القهوة مع إدراكه لأضرارها . . تقدم فتيات جميلات مرتديات أزياء موحدة مشروبات وأطعمة خفيفة . . يخجل من الديكور الذى خرج عن نطاق السيطرة ويتلقى فى الوقت ذاته تهنئة عليه: «كم هو ناجح ذلك الخليط بين التقاليد الألمانية والروح العالمية» . . «ألا تعبر هذه اللفتات البسيطة عن أن بلدنا أصبح أكثر

انفتاحًا ومرونة» . . يشير سيزمار إلى مكان زوجته وسط الزحام: «إنها هناك فى الخلف، ترتدى فستانًا أصفر» . . «زوجتك غاية فى اللطف» . . «ماذا عساى أن أفعل بدونها؟» ، تجلس إينس بين الأطفال وتوزع الحلوى وتمسح على رءوسهم ، «لقد أوشك عام عصيب على الانتهاء» . . «لم ينته بعد» . . «لست متفائلًا» . . «لننتظر ما هو آت» . . «لا يمكننا التحكم فى المستقبل» . . تجوب شخصية بزى أحمر فاقع اللون وغطاء رأس المكان ، أصر السيد (بوزن إدر) أن يلعب دور بابا نويل بجوال ضخم على ظهره يوزع منه لعبًا على الأطفال الذين يجرءون على الاقتراب منه . . تحتوى علب الهدايا على حيوانات قماشية وعرائس ونماذج سيارات للعب . . يغنى السيد (بوزن إدر) بصوت عميق ومصطنع: «أتيت من الغابة البعيدة» . . لا يعرف الأطفال المصريون معنى الغابة . . يحدث فجأة نوع من الهرج والمرج . . يركض صبى متسخ بعيدًا فيمسك به أحد الحراس ، يقاوم ويصرخ . . طريقة الإمساك بذراعه تشبه التعامل مع شخص كبير . . «ماذا يحدث؟» . . «حاول التسلل إلى الهدايا . . لا نعرف من أين دخل» . . «أخرجوه بشكل غير ملحوظ قدر الإمكان» . . لم يتمكن أى ضيف تقريبًا من إدراك أبعاد الواقعة . . يهز بابا نويل أكتافه قائلًا: «لنتذكر عبارة للكاتب «فيشتة» بأنه لا وجود لأمان كامل فى ظل وجود حتى شخص واحد» . . يهمس السيد (كلوسن): »سينفذ يوم الاثنين حكم الإعدام فى خمسة مصريين وفلسطينى» . . »لماذا لم تصلنى هذه المعلومة قبل الآن؟» . . . «الأمر سرى للغاية ، لقد أبلغنى الدكتور توفيق منذ خمس دقائق» . . «ولماذا لم يبلغنى أنا ؟»؛ يتراجع عن قراره بعدم الشرب ويأخذ كأسًا من النبيذ الفوار . . «عفوًا سيدى

السفير، لست متاحًا طول الوقت، ثم إن لسيادتكم مصادر مختلفة للمعلومات.. إذن ما تقييمك للوضع الحالي؟»، يفكر سيزمار «عندما أرى وجهك أجد الوضع غاية فى السوء».. يرى ظلًا للجفون بألوان الطيف فوق رموش صناعية.. «إنه من دواعى سروري رؤيتك يا دكتورة (زيفرديندج).. «حبيبى أرجوك، اترك سيادة السفير لحاله».. «يجب أن أضغط على نفسى من أجل ذلك».. «فلنتحدث عن أمور ألطف».. «هناك كثير من الأمور المرعبة فى هذا العالم».. «ولكننا نريد أن نحتفل اليوم».. «هل رأيت العرض الأوبرالى «قناص الحرة»؟ إنه أمر غير مألوف هنا».. «لم تتح لى الفرصة بعد».. «إذن لا تعرف أن مغنية السوبرانو التى تقوم بدور «آنشن» آتية من برلين الشرقية؟» .. «باتت 'برلين' فقط يا حبيبتى».. «نعم سمعت عن ذلك».. «أتعجب من أن ذلك أصبح ممكنًا اليوم».. «لو كنت سمعت عن هذا الحدث منذ خمسة أعوام لاعتبرت قائله مجنونًا».. «يعد هذا الحدث هبة من التاريخ».. «ولكنه يشكل مسئولية أيضًا».. «تخلى عن تشاؤمك قليلًا».. «أريد أن أستأذنكم للحظة؛ يجب أن أرحب بالدكتور (هينكل)» «مدير المدرسة الألمانية الإنجيلية الثانوية؟»، «سوف يغنى كورالهم بعد قليل».. «كم هو شىء عظيم».. «يقترب الدكتور (هينكل) منه مباشرة. تصحبه زوجته التى تتلفت حولها باحثة عن وجه قاتل. لحسن الحظ حدثت واقعة الصبى قبل وصولها.. سوف تكون له عواقب محتملة.. يقوم سيزمار بتحيتها بقبلة يد.. «أسعد بمجيئكم».. «نحن نوجه لك الشكر على الدعوة».. «أصبح هذا شبه تقليد».. «إنه تقليد محمود».. «لا تنوى كما أرى طلب نقلك؟».. «زوجى..» «كما تعلم فإن هناك

أوقاتًا يجب فيها على المرء عدم ترك الساحة للعنف» . . «أنت على حق» . . «قضية ذلك الألماني مرعبة» . . «لا يمكن تصور ما يجول في خاطر شخص كهذا» . . «أفكر باعتباري رجلاً تربويًا بشكل سريع في أسباب حدوث هذا التطور . . قرأت بالطبع الكثير ولكن هل هذا كافٍ لتفسير الأمر؟» . . «أرفض أيضًا تعليل كل شيء بالصعوبات التي يواجهها هذا الجيل الجديد، فجيلنا نحن عاني أيضًا بعد الحرب» . . اختفى بابا نويل وسط مجموعة من الأطفال . . ازداد وجهه حرارة . . من الأفضل ألا يحمل نفسه ما لا يطيق . . «هل ما زلت تدخن؟» . . «إن سمحت لي بذلك» . . «تمكنت من الإقلاع عن هذه العادة السيئة منذ ثلاث سنوات» . . «مبروك» . . «على الرغم من حبي للتدخين . . فنجان جميل من القهوة مع سيجارة» . . ينضم إليهم (فريتس فاسموت) مدير معهد جوتة . . ليس كأس النبيذ الأحمر الذي في يده هو الأول اليوم . . «فريتس»، «كلاوس»، «كيف حالك؟»، «معقول» . . تعلق أطراف الفساتين بشجيرات زهرة الجنية . . «أظن أنكم تعارفتم من قبل» . . «بالطبع» . . «أشعر بالخسارة لاعتذار الكاتب (جونتر فاريج) . . «لقد كان تلاميذنا يتشوقون لندوته» . . نظرات سريعة في اتجاهات مختلفة . . لحظة من الصمت . . «لا تعليق» . . يشعر بليونة الزرع تحت حذائه . . «لديه بالتأكيد أسبابه» . . «أرى أنه من الأفضل أن يبتعد الأدباء عن السياسة بأي حال» . . «قد تختلف الآراء حول ذلك» . . يحفر كلب مسئول المنزل حفرة ويلقي بالطين والرمل خلفه فيلوث الجوارب الحريمي البيضاء، تتم السيطرة عليه ويركض بعيدًا . . «كيف حال الأبناء؟»، «يود (أخيم) أن يبقى هنا إلى الأبد» . . «أستطيع تفهم ذلك» . . يرى سيزمار بطرف عينه

الدكتور توفيق وهو يتعمد الابتعاد عنه . . لا تبشـر إجراءات تنفيذ حكـم الإعـدام الأخيرة بالخيـر . . تبعتها حتـى الآن ردود أفعال ثأريـة بشـكل فـورى . . «لقد ضـاعت الدنيا ثم ولد المسـيح» . . «الجو فى ألمانيا مأسـاوى» . . «لقد دمر إعصـار فى منطقة الغابة السـوداء وديان بأكملها» . . «أضـف إلى ذلك الفيضانات المفزعة على نهر (الموزل)» ، تتلألأ بين النخيل شجرة أعياد الميلاد الميتة بالثلج الصناعى المرشوش عليها . . «جنود السماء تغنى فى سعادة لتبجيلك» . . لو كانت على الأقل شـجرة الأرز اللبنانية لكان الحال أفضل . . محتمل أن ترتفع درجة الحرارة فى الأيام المقبلة . . أو أن تقوم عاصفة صحراوية فتغلف كل شىء بالتراب . . يجلس بابا نويل على درجات السـلم ويحكى للأطفال بلغة عربية ضـعيفة عن البرد القارص فى الشتاء : «يمكننا التزحلق على الجليد وإقامة رجل الثلـج . . أتعرفـون ما رجل الثلج ؟» ، «هل تـرى أى أمل فى منع حكم الإعدام ، أقصد . . . . » ، نُقيم محادثات على مستويات شتى ، «لا يمكن برؤية من الخارج تصـور الوضـع بشـكل صحيح» . . «المسـألة بالفعل معقدة» . . يرى سيزمار سـيدة بشعر أشقر داكن ومرفـوع وترتدى فسـتانًا فضفاضًـا زيتونيًا من الكتان . . يشـعر بصـدمة شديدة . . ثم ارتياح : إنها ليست فرنسواز . . لن يعارض أحد إن فتح أول زر فى قميصه وخفف رابطة عنقه . . «ليس أمام مبارك خيار آخر ، أليس كذلك؟» . . «أرجو تَفَهُم أننى لا أسـتطيع الخوض فى تفاصيل قضية سافاتسكى بسبب التحقيقات الجارية» . . «أتقصد الشكل المتعارف عليه للتصريح «بصفة وّدية»؟» ، يمكنك وصـفه على هذا النحو» . . ضـحكة لأحد يتصـور أنـه يعرف كل شـىء ولكنه لا يدرك شـيئًا على الإطلاق . . «لا يمكن الإفصـاح

عن هذا الرأى بشكل معلن، ولكن فى حالة كتلك.. ما التصرف الآخر المتاح؟».. «يجب أن أستأذن».. كانت فرنسواز هى الوحيدة التى يمكن أن يتحدث إليها بشكل صريح.. يشير إلى شعبان الذى يقف مع باقى السائقين ويثرثر كعادته فى حجرة الاستراحة.. تبقى كل مجموعة وحدها.. يختبئ أطفاله وسط الشجيرات.. أطفال جُمَلاء وسعداء.. تركض الأم وراءهم بضحكة.. يكسو قماش ملبسها ذى اللون الأحمر الفاقع مؤخرتها الضخمة.. يتعجب لعدم سقوط الحجاب من على رأسها.. هدف الحفل هو المزج بين مستويات ومجالات مختلفة.. تمسح إينس على ذراعه: «أتعتقد أن النبيذ الفوار هو المشروب المناسب الآن لمعدتك؟».. «لا.. ولكن يجب أن أظل مستيقظًا».. «ماذا حدث ليلة أمس؟».. «سوف أحكى لك فيما بعد».. لم يرَ الدكتور الدرقاوى بعد.. «خفف عن نفسك قليلًا».. «أنت جميلة».. يخرج السيد (مونزينجر) من الباب ملوحًا بيديه.. اتخذت قبعة الطباخ فوق رأسه شكل الأسطوانة المستقيمة.. يجول بإصرار الحديقة دون أن يسمح لأحد بتعطيله ثم يعود إلى داخل المنزل.. يبدو أن البوفيه قد انتهى إعداده.. حان وقت إلقاء الكلمة.. يطلب سيزمار من السيد (لاينة مان) تجهيز الميكروفون والسماعات ثم يتجه إلى المنصة.. إنه يشعر بالدوار.. الدورة الدموية.. يكسوه حاجب يعزله عمن حوله.. يجب ألا يدخن الآن مرة أخرى.. سيتنفس بعمق ويركز فى المهمة المرتقبة.. يشعر بقرف حينما يقرأ الكلام المكتوب فى الورقة.. إنها عبارات فارغة.. لا يوجد ما يمكن أن يقوله.. يضع الورقة فى جيبه مرة أخرى ويصعد درجات السلم ويمسك بالجرس.. إنه يعمل..

يستجيب الناس، يقطعون أحاديثهم ويلتفتون إليه . . تسيطر بهذه البساطة على الشعب . . تسير الطقوس المتعارف عليها بشكل أفضل حتى إن فقدت معناها . . ينقر بإصبعه على الميكروفون: «هل هناك صوت؟» . . «نعم» . . يتنحنح . . هذا جزء من المشهد . . هدوء مخيف . . تتوجه كل العيون إليه، ما عدا عيون الأطفال . . هذا الشعب الأحمق . . لن يحصلوا منه على ما ينتظرونه . . تجاهل غريب بدلًا من التوتر المعتاد . . سوف يخالف القواعد . . لا يهتم بالعواقب: «أعزائى الضيوف، أسعد بمجيئكم وأتمنى لكم مساءً سعيدًا . . شكرًا . . تم افتتاح البوفيه» . . وجوه مصدومة، لا مجال للتصفيق . . "اسمح لنا يا سيادة الرئيس، أنت وغد" . . يستدير ويعطى السيد (لاينة مانٍ) إشارة بتشغيل الموسيقى . . نظرة مدير المنزل يشوبها ارتباك.

يستغرق الأمر لحظات حتى يدرك ما يجب فعله:

«We wish you a merry Christmas، we wish you a merry Christmas، we wish you a merry Christmas and a happy new year...»

«تتخللها همسات أخذت تنتشر بدرجة الصوت المتوسطة نفسها»، «لم أرَ شيئًا مثل هذا من قبل مع أننى مررت بكثير من التجارب» . . «لا أصدق ذلك» . . «أرى أنه على حق» . . تجمدت إينس من هول الصدمة فى مكانها، حيث انتظرت أن يناديها إلى المنصة لتقول بعض كلمات الترحيب . . لا يعرف الفتيان والفتيات بالزى الأبيض فى الأسود من كورال المدرسة الثانوية

كيف يتصرفون وينادون الدكتور (هينكل)، كان من المخطط أن تلحق فقرتهم بكلمته .. وأن يرحب بهم ويقدمهم.. سوف يكون هناك حل .. فالجرس متاح للجميع ويمكن فتح الميكروفون .. يجب أن ينشغل الضيوف بالطعام والشراب، أن يهتموا بشئونهم أو يذهبوا إلى الجحيم .. يتجلى أمامه مباشرة كائن دون وجه من وسط الجموع، ليس ببشر بل تجسيد قوى هوائية ذات سلطة متوعدة .. تقترب ببطء وتتحرك إلى الأمام دون أن تلمس الأرض، التفت حوله وتجمعت على ارتفاع الضفيرة الشمسية لتُكوِّن وخزًا قصيرًا وحادًا .. قطع في تجويف المعدة.. ينظر سيزمار إلى شعبان .. يضحك شعبان ويرفع إبهامه .. غريب كيف تبتعد جميع الأشياء عنه.. «ماذا حدث لك؟»، ولكن السؤال هو: من هو المقصود بالسؤال .. وخز ثانٍ؛ ليس لخنجر بل لسكين مطبخ مموج ينشر المعدة إلى نصفين .. يهمس بابا نويل: «هل أنت سكران؟»، "حادى بادى، كرنب زبادى، شاله وحطه كله على دى"، صمت يعبث خلاله سلاح السكين .. «لا يمكنك أن تقوم بذلك» .. «من قال هذا؟»، «ولكن..»، تقطع أحواض من الزهور مساحة خضراء كبيرة، تشكل الأشجار خلفية لمسرحية فاشلة دون مخرج.. يقف في محورها كائن نباتي غريب يعاني من الحرارة .. يئن من الأحمال وتسقط ذراعاه، بل أغصانه.. توحد الممثلون مع خلفية المسرح والجمهور .. أين إينس؟ ينتشر الألم ببطء وحدة .. يتدفق سائل مشتعل يشبه الحمم من تجويف البطن إلى الفراغ الموجود بين رجل منحنى والعالم الذى يحيطه.. إنه منفرد وسط جموع من البشر .. يشاهدونه نساء ورجالًا، بإثارة وتجاهل في آن واحد .. تمر خطوط نغمات بألوان متنوعة

بمساقط أفقية داكنة لإيقاع طاغ . . «تدفأ القلوب ، يصمت الهم والغم ، تنتهى الأحزان» . . يتحدث الدكتور (فريبة) بوجه عابث إلى شخصيات مرموقة . . توافقه هذه الشخصيات فى الرأى أو تهز بعنف رءوسها . . أطفال يرددون النبرة الموسيقية على مراحل زمنية . . يصل نهر الحمم للجبين لدرجه تفقد السمع والبصر . . زغللة رمادية تتكون من ألوف مؤلفة من النقط :عطل بالشاشة . . "نرجو منكم تفهم الوضع" . . يزيد انحناء محور الأرض بسبب تزحزح مركز القوة . . ينحنى المكان . . كان يجب إثبات ذلك . . استقرت يد نسائية رشيقة – جاءت من بعيد– على ذراعه . . يظهر زوج من العيون إلى جانب ثم فوق اليد ، لونهما أزرق باهت . . شىء صلب فى الظهر . . مسند لمقعد ، قائمة لمقعد ، سياج على هيئة سور . . زوايا فم وشفاه تنفتح وتنغلق خلفها هوة سوداء: «قل شيئًا» . . تعقبها مقاطع متسارعة تفقد معناها . . نافورات وسيول جارفة . . يغطس داخلها وتجرفه . . منحنيًا على ركبتيه إلى الأمام ، رأسه داخل زرع مبلل . . أسنان ضاغطة ابتلعت مملكة كاملة اختلطت بالقهوة . . «يوضح هذا بالطبع بعض الأمور» . . «لقد اندهشت من الأمر» . . المزيد من الأيادى . . حركات يد متمرسة وغير متمرسة . . إنها تفتح أزرارًا ، تحرر العنق من الرابطة . . إجراءات ضرورية . . يرى بين قمصان بيضاء ومخططة ومربعة وشعر رمادى وبنى وأشقر السماء الباهتة . . ماذا كان ذلك؟

حينما يعود إلى وعيه يرقد سيزمار فوق الفراش متجردًا من ملابس الجزء العلوى من جسده . . لا يعرف كيف وصل إلى

هنـاك . . تقف إينس إلى جانبه وتعض على شـفاهها . . يرمش عبر جفون نصـف مغمضـة قبـل أن يفتح عينيـه . . »حبيبى ، هل تسمعنى؟» ، يحـاول أن يومـئ برأسـه . . ترفع خصـلة شـعر ملتصـقة من على جبينه . . «كيف حالك؟» يشعر بليونة وثقل ، بأنه غيـر متجـاوب ومكبل . . «لا تقلق بسـبب الحفل ، يبـدى الجميع تفهمًا» . . يلتصـق لسانه بسـقف حلقه . . يتذكر مشاهد متقطعة مما حدث ، ولكن لا يـرى حدثًا يجب الاعتذار عنه . . يجلس الدكتور الدرقاوى على منضـدة ويملأ استمارة قائلًا: «لقد أصبت بانهيار ، أعطيتك حقنة لتسـتقر الأوضاع . . سوف أنقلك من باب الاحتياط إلى المستشفى . . إن وافقتنى على ذلك . . تقول زوجتك إنك تشكو فـى الآونة الأخيرة من آلام حادة فى المعدة . . وتحدثت عن قىء متكرر . . يجب أن نستوضـح الحالة» . . لا يعارض سيزمار . . كان مقتنعًـا بأن إينس لم تلحظ شـيئًا . . بات الأمر لا يشـكل أهمية الآن . . مـا دام راقدا فى هذه اللحظة فلا قبل ولا بعد . . لا يتحمل مسئولية شىء . . «صـحتك أهم شىء الآن ، أن تقف على رجليك من جديد» .

عندما تستسـلم لا تفقد شيئًا . . الغرفة مضـيئة ولطيفة وجُهِّزَت بذوق عالٍ . . وُضِـعَتْ على الخزانة الصغيرة إلى جانب الفراش الزهور وزُجاجة ماء تسـتند عليها صورة إينس أمام أبى الهول . . وضـعتها هى فـى الحقيبة يوم السـبت على الرغم من الأوضـاع المرتبكة حتى لا ينسـاها . . حـل الظلام فى الخارج . . لقد أخذت ممرضـة الفتـرة الليلية صـينية الطعـام معها وأغلقت السـتائر . . يخفضـ الزجاج العـازل للنوافذ ضوضـاء المدينـة . . مُنِعَ عنه

التدخين . . لم يتح له اليوم افتقاده . . إنه يقضى ثانى مساء له هنا ومع ذلك لم يلحظ اللوحات إلا الآن؛ سيدات بدويات ضاحكات، جمال مُزَيّنة وماعز شعبى وخيام ونار موقدة . . لا تزهو سماء الصحراء بهذه الزرقة فى الواقع . . تبدو قناعاتهم هنا جلية بأن الأحلام السعيدة تساعد على الشفاء.

تشير النتيجة الأولية لمنظار المعدة ووسائل تشخيصية أخرى إلى أنه يعانى من قرحة مفتوحة فى المعدة . . تقع نسب تحاليل الدم أعلى وأدنى النسب المرجعية بشكل طفيف . . قد تكون لذلك أسباب مختلفة . . لا يمكن فى الوقت الحالى الجزم بعدم وجود ورم سرطانى كسبب وراء القرحة . . إنه وارد ولكنه مستبعد . . سوف يقوم بباقى التحاليل فى ألمانيا . . هذا ما أصرت إينس أيضًا عليه . . يخلقَ المرض نوعًا من عدم الثقة وتصبح الغربةَ عدوًا . . بما أن خطر التدهور المفاجئ قائم يفضلون هنا الاحتفاظ به . . فإن حدث ذلك فى الطائرة قد يعرض حياته للخطر . . سوف يتحمل مسئولية هذه المخاطرة ويعتبر قلق الأطباء هنا مبالغًا فيه؛ يريدون هنا إثبات تفوقهم من خلال مريض متميز قادم من أوروبا؛ ليتخلصوا من عقدة النقص تجاه الطب الغربى . . يعرف تلك الظاهرة من مجالات أخرى وليس فقط فى مصر.

يسمع خطوات لأحذية ثقيلة تأخذ الممر فى الخارج ذهابًا وإيابًا، تقترب ثم تعاود الابتعاد . . هكذا يكتسب الوقت هيكلًا . . وأحيانًا يتوقف الوقت لبرهة . . يقف أمام بابه ضباط جيش لحمايته على مدار اليوم . . لم يأتوا خصيصًا من أجله . . يتلقى هنا العديد من أعضاء الحكومة والضباط ذوى الرتب العلاج . . لا يعرف من

يرقد هنا غيره . . بصفته سفير ألمانيا تم توفيرهم له بالطبع . . كان اتصـال من الدكتور (فريبة) بوزارة الداخلية كافيًا . . ربما أعطت الوزارة تعليمات خاصة بترتيب الأوضاع لتنال هنا رضاءه التام . . تنفذ الممرضـات جميع طلباته حسبما تسمح به حالته . . ليست لديه رغبات تقريبًا . . يكفيه ألا يزعجه أحد . . يعالجه الأسـتاذ الدكتور حبيب - الطبيب المختص - بنوع من الرضـوخ . . لقد درس فى سـتانفورد ويؤكد فى كل ثانى عبارة يقولها على انبهاره بأمريكا، ويسُـبُ بكثير من الكلمات تخلف الشعب المصـرى، على أمل أن يعتبره سـيزمار شخصًـا مسـتنيرًا . . لا يتوقع البروفيسور حبيب أنه يعانى من السـرطان، ولكن لن يكون هناك يقين إلا بعد شـفاء القرحة . . إنه يعتبر ضـغوط العمل هى السبب الأساسى للمرض؛ وذلك وفقًا للحوار المفصل الذى أجراه حول تاريخ المرض . . قد تكون الجراحة ضرورية فى حالة عدم تأثير الأدوية وإن كان ذلك غير متوقع . . ولا يمكن التنبؤ - حسب قوله - بكل ذلك فى الوقت الحالى . . يفهم سيزمار هذه المصطلحات المتخصصة والمتعارف عليهـا دوليًا . . بحسـب قدرته على الحكم كرجل غير متخصـص يرى أن البروفيسـور يقوم بواجبه على أكمل وجه . . لا يهتم بأى شىء خلاف ذلك.

الساعة الآن الثامنة والنصـف . . لن يستطيع الخلود إلى النوم قبل الساعة الحادية عشرة . . تتوافر له فى الغرفة إمكانية الاتصال الهاتفـى وتلفاز خاص به حتى لا يشـعر بالملل . . وضـعت إينس كتابيـن فى حقيبته ولكنه لا يشعر برغبة فى القـراءة . . يجب أن يشـعر بالخوف، بالخجل والحيرة . . لم يتفوه شخص بكلمة ولكن

الكثيـر منهم يفكرون بالأمر؛ فى السـفارة والوزارة والمنزل . . بعد اتصـال إينس سـوف يحكى أبـوه لأمه للمرة الألـف كيف أنه هـرب من الروس وكتفه مضـروب بالنار . . كانـت تقول أمه: «كان كلاوس دومًـا مرهف الحس» . . و«ربما يحضـرون معنا احتفالات أعياد الميلاد» . . لقد فشـل وأحرج نفسه . . ربما هو ابن موت . . يشـعر فى واقع الأمر للمرة الأولى منذ أسابيع بنوع من الانفراج . . لا يرى أى منطق فى أن يجهد تفكيره بمواقف ربما لن تحـدث . . ليس مجبرًا على اتخـاذ قرار بتوقيت الامتناع عن تلقى العـلاج . . لن يتحلى فى الأغلب بالشـجاعة الكافية لذلك . . إنه لا يؤمن بالقدرات المطلقة للطب الحديث ولكن من المؤكد أنه أفضـل مما كان متاحًا من قبل . . إنه لا يحسـد البدو فى اللوحة، بصـرف النظر عن كونهم شخصـيات من وحى الخيـال . . إذا ما تطورت الأمـور سـوف يلجأ لمتخصصـين علـى أعلى درجة مـن التأهيل وسـوف يبذلون كل ما فى وسـعهم لعلاجه . . تقول فرنسواز إنه فى حالة اكتشـاف مرض قاتل لديها سـوف تذهـب إلى دير بوذى وتمارسـ تأملات روحية تعبر بها إلى الجانـب الآخر، أو تبحث عن شـيخ مقدس يعطيها الآيات الصحيحة فتذهب لمدة أربعين يومًا إلى الصحراء لتصلى وتصوم . . إنه لا يؤمن بالمعجزات . . حتى إن لم يجد لكل شـىء تفسـيرًا منطقيًا . . فى سـبيل شـفائه لن يجهد تفكيره بهذه الأمور فى الوقت الحالى.

يبدو أن الأدوية أتت بمفعولها . . فلقد تراجع الضغط الذى كان يعانى منه فى المعدة بشـكل واضـح . . لن يخضع لأى إجراءات أخرى اليوم . . يجب عليه ألا يتبادل الحديث مع أى شـخص آخر

ولا حتى الصــمت . . يمكنه ببســاطة – إن أراد ذلك – الحملقة إلى سـقف الغرفــة دون تفكير ودون خوف من إغفالــه لأمر مهم ، أو خوف من قوله لشــيء خاطئ أو إخفائه ، أو خوف من عدم رضــا زملائه وأصــدقائه وامـرأة عنه . . لقد أرسـل إينس فى الســاعة الســابعة إلى المنزل . . ظلت جالســة طوال اليوم مجســدة للقلق؛ بينما يدخل هو من حجرة كشف إلى الأخرى . . أرادت أن تعرف فى فترات الاســتراحة كل شــيء عن ممارســات الطبيب وأسلوبه ونظافــة الإجــراء الطبى وتقييمــه للمعدات التقنية . . لــم يجد فرقًا مقارنة بمستشــفى بون الجامعى . . بــل على العكس ، كانت بعض الأجهزة أكثر حداثة . . فى الأغلب سوف تتصل بأختها الآن ليُقيِّمَا الموقف ويستنبطا النتائج معًا ، سيشعران ببعض الهدوء ولكن تبقى الاعتراضات والمخاوف .

سيجرون له فى الصباح الباكر غدًا رسم القلب . . فى حالة عدم وجود ما يقلق تســتطيع إينســ إخراجه وقت الظهيرة . . ينظر إلى الهاتف ويفكر . . لن يتصــل بفرنســواز على الرغم من أن الوقت متاح بوفــرة ودون إزعاج وعلى الرغم من اشــتياقه إلى ســماع صوتها . . صــوتها قبل أن تقرأ البطاقة . . لقد اتصل بالفعل بمدام صــمدى والدكتور فريبة . . لم تكن زيارتهما مطلوبة لعدم وجود أمور سرية يجب التنسيق لها . . المهم هو حجز أماكن على طائرة فرانكفورت يوم الخميس وأن يلتقى بسافاتسكى يوم الأربعاء ، إنه اللقاء الأخيــر . . لقد حاول الجميع إثناءه ، منادين بصــوت العقل ومقتنعين بأن الزيارة ليســت ذات فائــدة ، أخذوا يبررون موقفهم بــأن حالته لم تســتقر بعــد وأنه يجب عليــه الابتعاد عــن الإرهاق

ومصادر الانفعال، ولكنه هز رأسه مثل حمار متعنت وأصر على موقفه: «أنا كنت سأغضب لو كنت اختفيت فجأة دون أن أعرب له عن السبب وأودعه . . كما أنه يوجد فى حالة حدوث طوارئ طبيب فى السجن».

يشغل التلفاز . . يشرح الشيخ المعروف عثمان المعارفة بصوته الهادئ واللطيف لمجموعة من الضيوف الجالسين حوله على السجادة؛ أن منع لحم الخنزير لا يرجع لأسباب فات أوانها تتعلق بالنظافة الصحية بل هو بمثابة برهان على حكمة الله الأبدية؛ فالعلم أكد تأثيره الضار على جسم الإنسان؛ ومن ثَمّ صدّق على كلام القرآن الموجود منذ قرون من الزمان. يومئ المستمعون فى إجلال . . تبث المحطة التالية تسجيلًا قديمًا لحفل أم كلثوم وهى أعظم مطربة مصرية، البث باللونين الأبيض والأسود وبجودة رديئة . . يسبق كل من الصوت والصورة الإيقاع الموسيقى، تحدث النغمات المرتفعة خدوشًا، يسمع أحيانًا دوى لالآت (الباص) كما لو قام أحد بالعزف على لوح لدعك الغسيل . . تقف أم كلثوم على منصة منخفضة بفستان طويل بخيوط فضية، شعرها الكثيف مربوط، خلفها الفرقة الموسيقية على هيئة نصف دائرة . . أغمضت عينيها وأحمر شفاهها بلون داكن مثلما هى الحال فى فيلم تعبيرى . . تدلى من أذنيها قرط ضخم من اللؤلؤ على شكل عنقود عنب . . عجيب أنه لا يقطع شحمة أذنيها . . آهات بصوت عال وصياح من الجمهور وتصفيق فى وسط الأغنية . . يظهر خيط أبيض مرتعش من حين لآخر على الشاشة. ليست امرأة جميلة، يبدو رأسها كأنه نُحِتَ بغلظة من الحجر، لا يوجد

خـط فارق بين ذقنهـا ورقبتها . . يبدو جسـدها المكتنـز غير لين بشـكل غريب . . تؤكد يدها اليمنى بحركات محسـوبة على معانٍ مهمـة، وتظل يدها الأخـرى على الميكروفون . . يتابع سـيزمار هـذا الصـوت المؤلم على نحو غيـر مألوف، إنه يعبر عن شـوق وشكوى . . غليظ وغير مناسب للغناء الأوبرالى . . يتابع النغمات التى تؤدى بشـكل حلزونى إلى الأبدية . . يشـعر للحظة بالأجواء المحلقة التى ينفذ إليها شـعر المطرب الصوفى وحركات الناى فى المولد الذى زاره منذ أسـابيع . . كونه بمفـرده هذه المرة لا يغير من الأمر شـيئًا . . لقد كان هناك وحيدًا أيضًا . . لم يكن لفرنسواز حينهـا علاقة بالواقع . . كم يود معرفة أفكارها ومشـاعرها تجاهه الآن . . يـرن عـزف منعزل من كمـان منفرد . . لا يفهم سـوى الكلمـات القليلة التى تتكرر: "لقد رأيتك، إننـى أراك الآن" . . قد يسـمح بأن تأخذه النغمـة . . ولكنه لا يريد ذلـك . . يريد أن يبقى مكانه . . تشـده الأغنية . . لكنه يقاوم . . يتسلل إليه تدريجيًا شعور مزعج يصعب تحديده، يشبه الخوف وله تأثير جسدى ولكن ليست له علاقة بالمرض . . يجب ألا يتملكه . . نغمات مظلمة كثيرة ليس بحاجة إليهـا الآن . . تتحول أم كلثوم إلى امرأة سـمينة ودميمة، يضيق بصوتها المزعج على خلفية موسيقية غير منتظمة . . يبعدها بالضـغط على زر، هذا هو التلفاز الملون اليوم . . شخصيات فى مسلسـلات أمريكية بترجمة عربية . . إنهم يمرون بموقف صعب ولكن سـيجدون مخرجًا، فى الحلقة المقبلة على أقصـى تقدير . . إعلانات: سـيارات، كولا، قهـوة . . تليها مذيعة نشـرة الأخبار بمسـاحيق تجميل صـارخة . . تقدم أخبارًا عن الأحـداث التالية: زار الرئيس محمد حسنى مبارك الضـباط المصابين فى مستشفى

بالوجه القبلى وشـكرهم على شـجاعتهم . . أعربت الجمعية العامة للأمم المتحدة فى نيويورك بأغلبية سـاحقة عن تأييدها لرفع حظر السـلاح عن المسلمين فى البوسنة والهرسـك . . توفى منذ الأمس فى مصادمات بمحافظة أسـيوط أربعة عشر شخصًا . . تم القبض على عدد من مثيرى الشـغب . . نُفِذَت أحكام الإعدام التى تحدث عنها (كلوسن) اليوم فى الصباح . . سيبقى الجو لطيفًا.

علـى الرغم من اعتراض الأطباء ومحاولات إينس المسـتميتة لمنعـه يطلب سـيزمار يوم الثلاثاء توصـيله إلى السـفارة . . لديه العديد من الأمور التى يجب أن يتولاها ولا يمكن القيام بها من مقر إقامتـه . . كما أنه يرغب فى وداع شخصـى ولقاء نائبه ورؤسـاء الأقسـام لإعدادهـم للتعامل المقبل مع قضـية سافاتسـكى، ويريد بخـلاف ذلك أن يطلـب منهم دعمه دون شـروط على الرغم من تحفظاتهم . . وينطبق ذلك على التعامل مع بون أيضًـا . . يود أن يشرح للدكتور فريبة والسـيد كلوسن بشكل خاص طبيعة شخصية سافاتسكى حتى يوفقا فى أسـلوب تعاملهما معه . . بما أنه لم يتحدد بعـد إمكانية عودته وتوقيتهـا بعد يريد أن يأخذ بعض الأشـياء . . مدونـات وكتـب بالأخص . . مـن المكتـب أو أن يتخلص منها، لأنها لا تخص أحدًا هناك فى السـفارة وليس لها مكان مناسـب فى المنزل.

يبتسم سافاتسكى وقت إدخاله الغرفة . . يشعر سيزمار بشىء من الغضب . . يكاد يقول له: «يبدو أن حالك أفضل بشكل مبالغ فيه» . . ولكنه يتراجع . . يسبقه سافاتسكى: «وجهك شاحب . . هل أنت مريض أم أن الضوء هو السبب؟» .

لا يمكن أن يكون سافاتسكى قد علم بوعكته الصحية . . ليسَ من اختصاصات توفيق إبلاغ مدير السجن بحالته الصحية . . لقد التقى الدكتور بياتى الخميس الماضى للمرة الأولى سافاتسكى ولم يقابله مرة أخرى . . حتى إن كان بلا أهمية؛ يريد سيزمار أن يبلغ سافاتسكى بنفسه أن اليوم آخر زيارة له.

لا ينتظر سافاتسكى الإجابة عن سؤاله ويواصل: «يتسم هذا المحامى الذى أرسلته لى بالحماقة . . وفِر أموالك . . » .

كان سيزمار يحضِّر لبداية أخرى للحديث ، أراد أن يتحدث عن نفسه ولكنه قال: «تم اختيار الدكتور بياتى من قبل المحكمة . . لم تتَح لنا فرصة المشاركة فى القرار» .

«وما فائدة محام يفضل أن يرى موكله مشنوقًا؟» .

لم يعد مسئولًا فى واقع الأمر ، لمجيئه صفة الخصوصية: «على الرغم من عدم استحسانى للخلافات التى وقعت فى سياق توكيل الدفاع؛ فإننى لا أرى شخصيًا ما يستدعى التشكيك فى قدرات الدكتور بياتى . . لقد تحدثت إليه الأسبوع الماضى بشأن التفاصيل . . بدا مصرًا على منع حكم الإعدام وأعرب عن تفاؤل حَذِر حيال التسليم فى وقت لاحق إلى ألمانيا» .

«إنـه يدعـم توجـه الحكومـة . . يريـد أن يـرى عمليـة إبادة لحركتنـا . . لقد قال بالحرف الواحد: إن أناسًـا مثلى لهم الحق فى دولة القانون أن يحاكموا بشكل طبيعى . . لقد أضحكنى فعلًا».

«يعد الدكتور بياتى من أفضل محاميِى البلد . . أعتقد أنه يمكنك الوثوق به».

«إنه ليس مسلمًا».

«بالطبع هو مسلم».

«إنه يرتدى خواتم ذهبية ورابطات عنق حريرية . . لا يفعل أى رجل مسـلم ذلك . . إنه محدث نعمة من فريق مبارك، متعجرف وغبـى . . لا يهتم إطلاقًا باهتماماتنا وأهدافنا . . كيف يمكنه الدفاع عن أحد لا يعرف دوافعه؟».

«أنـت لا تنفى ارتكابك الجريمة . . وحتى إن نفيتها؛ فإن الأدلة القائمـة ضـدك دامغة تمامًـا ولذلك لـن يتغير شـىء . . لا توجد مؤشرات لعدم مسـئوليتك عن أفعالك . . لو كنت فى ألمانيا لطلبوا تقييمًا لطبيب نفسى . . ليس هذا إجراءً معتادًا هنا . . وحسبما فهمتك فليسـت لك رغبة فـى التخلى عن مسـئوليتك عن أفعالـك . . إذن فالمتاح الآن هو استغلال الثغرات والكشف عن أخطاء إجرائية . . للمضمون دور ثانوى».

«لقـد حكى لـى ذلك العبث . . وشـرح لـى فى الجملـة التالية أن لائحـة إجراءات مكافحـة الإرهاب التى تعتبرنـى مذنبًا، أمر ضـرورى لحماية البلد، يقبل المحامى الخاص بى تطبيق قانون

استثنائي يعتبر، في حد ذاته، غير قانوني ومناقضًا للدستور المصري .. ينص الأخير على أن سنّ القوانين يجب أن يراعي الشريعة .. ووفقًا لذلك فإن الحكومة هي الأولى بالمحاكمة وليس نحن .. قبل محاكمة عمليتنا يجب في المقام الأول تقصي شرعية القضية في هذا الشكل تحديدًا .. أنا أقف أمام محكمة عسكرية .. إذن أطالب بمعاملتي كأسير حرب وليس كمجرم وذلك بعد ثبوت حقيقة أن الدولة المصرية لا تلتزم في الوقت الحالي بدستورها ويجب تباعًا إعادة صياغة هذه الدولة من الأساس .. هكذا تكون الإستراتيجية».

قد يعبر سيزمار الآن عن اندهاشه من أن سافاتسكي يبدي اهتمامًا بالغًا بالبقاء على قيد الحياة وذلك على عكس تصريحاته السابقة، ولكنه يتراجع عن ذلك: «أنا على يقين من أن الدكتور بياتي سيتعامل مع هذه المسألة بمنتهى المهارة».

«أرجو أن تفهمني بشكل صحيح؛ أنا لا أهتم بمصلحتي الشخصية .. إن المغزى الوحيد من هذه المسرحية العبثية بالنسبة لنا هو الكشف عن عدم شرعية وكفر هذا النظام أمام الرأي العام الإسلامي .. إن نجحنا في ذلك فلن يكون موتنا هباءً».

«لا أظن أنه ستتاح لك فرصة تحقيق ذلك .. وأعتقد أن الدكتور بياتي سيتصرف في إطار إصدار الحكم بشكل صحيح إن قام بحمايتك من نفسك أثناء سير القضية».

«اترك هذه المسألة لي».

ينظر سيزمار نظرة طويلة إلى سافاتسكى . . يقابلها سافاتسكى بالنظرة نفسها . . يتحول تعبير الوجه إلى التساؤل ثم التحدى الصبيانى؛ من سيستسلم أولًا أو يطلق ضحكة؟ يهز سافاتسكى كتفيه: «هل من شىء آخر؟ نحن نضيع وقتنا».

يقول سيزمار: «أجريت بالأمس اتصالًا هاتفيًا بوالدتك وذلك بالتنسيق مع وزارة الخارجية . . تريد أن تزورك . . وكما هو واضح من تواصلنا مع الجهات المختصة فإن ترتيب هذه الزيارة متاح . . ».

يصيبه هذا الخبر فى مقتل . . يتخلى سافاتسكى عن أسلوبه المطالب ويتراجع . . لم يكن هذا الأمر واردًا بالنسبة له ولذا لم يُعِد له إجابة . . يقول بصوت خافت: «أمى الصغيرة والسمينة» . . نبرة صوته بها شىء من الألم والحزن . . «يا إلهى، نعم . . » ينحى المسألة جانبًا «:لا، لا أريد ذلك».

«لقد توقعت رد فعلك وطلبت منى أن أبلغك بأن مشاعرها كأم تجاهك لن تتغير أيا كانت تصرفاتك».

يأخذ نفسًا عميقًا ويهز رأسه: «لن يجدى شيئًا سواء لها أو لى».

«فيما يتعلق بوالدتك يبدو أن . . . ».

«الذى يجلس هنا ليس ابنها . . . لا يوجد اتصال . . يجب أن يبقى الآخر فى ذاكرتها . . الذى حملت همه وخيب آمالها وقام باستغلالها . . هذا أفضل لها . . تستطيع أن تفهم موته . . كأنه توفى بسبب المخدرات . . كانت مهيئة لذلك».

«هل أبلغها بذلك على هذا النحو؟».

«لا تصعب الأمور عليها أكثر من اللازم .. أرجوك .. بلغها بأن النائب العام لن يعطى تصريحًا أو أن المصريين سيقبضون عليها حال نزولها من الطائرة .. سوف تصدق أن العرب سيتصرفون هكذا..».

«أتعتقد أننى سأكذب من أجلك؟ أنت تطلب الكثير»

يبتسم سافاتسكى: «اعتبر طلبى جزءًا من رغبتى الأخيرة، يجب أن تحترمها، أليس كذلك؟ وإن لم تفعله من أجلى فافعله من أجل أمى؛ إنها امرأة مسكينة لم يحالفها الحظ .. لا مع نفسها ولا مع رجالها ولا حتى مع ابنها .. على الأقل من وجهة نظرها .. لا يمكننى مساعدتها فى مواجهة ذلك».

يفكر سيزمار: "لقد أنهى بالفعل جميع حساباته .. قام بإنهائها على الرغم من أنه لم يفقد كل شىء بعد". يسأل نفسه إذا ما كان يحسده فى داخله على ذلك؛ على الرغم من إدراكه لخسارته المعركة لا يعبأ بذلك ويقبل بما هو آتٍ دون استسلام .. سيسافر هو نفسه إلى ألمانيا غدًا وسوف يجلس خائفًا فى حجرات انتظار الأطباء وردهات المستشفيات ويحاول تهدئة نفسه بالإحصاءات، ويعتبر ورم المعدة أنه سلطة غريبة لا يقوى على مواجهتها؛ هناك آخرون يعيشون حياة غير صحية أكثر منه.. سوف يقنع نفسه بأنه لم يهرب إلى المرض ولا مجال للوم نفسه على أى شىء، بل على العكس؛ كان حماسه للعمل استثنائيًا .. سوف يرثى نفسه ويتساءل: لماذا استحق هذا المرض؟ ينظر إلى نهر الراين ويقلع عن التدخين،

يستعيد صحته ويعود إلى العمل هنا أو في مكان آخر . . ربما يعود بعد بضعة أشهر ليقضي نصف عام في القاهرة ليحافظ على العلاقات الثنائية ويجول في المدينة مستمتعًا بتناول المقبلات . . حتى يحين ذلك ستنتهي فترة عمل فرنسواز هنا ولن يذكر أحد قضية سافاتسكي أيًا كانت نهايتها . . ولكن الأوقع أنه سيقدم طلب نقل لأسباب صحية ويبقى الأعوام الثلاثة المقبلة في بون . . هذا هو الخيار المفضل لإينس . . ليس لديه بديل عنه . . تستطيع حينها إنهاء رسالة الدكتوراه في هدوء . . إن حالفها الحظ ستجد عملاً في أحد المسارح أو تعاود كتابة مقالات نقدية في الصحف . . سوف يعيدان اكتشاف علاقتهما من جديد أو على الأقل يبادران بمحاولة . . يبدو أن هذا هو شكل المستقبل القريب . . يحمل أيضًا أمورًا لا يمكن توقعها؛ السرطان وانتقام فرنسواز . . ولكن تغلبه الثقة . . يكذب بالطبع على نفسه . . يكذب كل من يعرفهم على أنفسهم ويتكيفون مع هذا الوضع . . لا أمل في حياة حقيقية داخل الحياة الزائفة، لأنه لا توجد خارجها حياة أخرى، نتعلم تقبل ذلك والاستمرار على هذا النحو .

«ماذا بك؟» .

«أين توقفنا؟» .

«عند الحديث عن أمي» .

لا يخص ورم معدته سافاتسكي في شيء: «السبب الحقيقي لزيارتي اليوم هو إبلاغك بأن مهمتي في القاهرة ستنتهي غدًا . . لقد تم استدعائي لاختياري شغل محل وظيفة زميل مريض في الإدارة» .

هدوء.

يشعر سيزمار بأن كذبه بدا مقنعًا هذه المرة.

يقول سافاتسكى أخيرًا: «آسف لذلك».

«وبمراعاة وضعك أجد نفسى مطمئنًا؛ أنه تمت الموافقة أخيرًا على توكيل محامٍ لك.. لقد عملنا كثيرًا من أجل تحقيق هذا الهدف.. ستواصل السفارة بالطبع رعايتك.. وحتى يحين تعيين سفير جديد سيهتم كل من نائبى الدكتور (فريبة) ومختص الشئون القانونية السيد (كلوسن) بقضيتك».

«لقد أوشكت على اعتيادك».

يومئ سيزمار برأسه: «الأمر صعب على كذلك».. هذه على الأقل نصف الحقيقة.

«ربما يمكنك إبلاغ والدتى بنفسك.. إنها لا تسكن بعيدًا عن بون».

«سوف أحاول».. يعد هذا بمثابة رفض.

يقول سافاتسكى مبتسمًا: «الفرق بينى وبينك أننى أعرف ما يجب أن أفعله وأقوم به».

تخطر الكثير من الإجابات على بال سيزمار، مفحمة أو جافة أو متحفظة، ولكنه ما زال غير مهتم بحرب كلام ولا يبادر بأى رد فعل.

يفكر: "من الغريب أنه لا يستشعر حرجًا من الجلوس أمامه صامتًا، لماذا؟"، لو كان قد أحضر معه زهرًا أو ورق كوتشينة لاقترح القيام بجولة لعب . . تداهمه رغبة مجنونة في إهداء سافاتسكي شيئًا يذكره به ويهون به عليه أسابيعه الأخيرة . . انزعج لأنه لم يفكر في هذا الأمر من قبل . . ولكن ما كان سيخطر على باله هدية مناسبة . . 'ماذا يمكن أن يهديه لشخص في موقفه؟' يفتح على الرغم من ذلك حقيبته . . ربما يجد في الجيوب التي لا يفرغها أبدًا أي شيء صغير وبسيط يكون قد نسيه، وقد يحين هنا والآن وقت منحه معنى جديدًا . . ينظر سافاتسكي إليه باهتمام ويتوقع أن له علاقة بعملية البحث؛ ربما يخرج مستندًا جديدًا للمخابرات السرية . . يجد سيزمار جعران أزرق ورأس قطة صغيرًا مصنوعًا من الفخار، أقلام بأشكال مختلفة والعديد من الولاعات: «هذه من بوجوتا . . كنت هناك أيضًا» . . عملات معدنية من إسبانيا وهولندا، مفكرات، جيب مختلفة وأجندات، جميعها مواد دعائية لشركات ألمانية، بطاقات باسمه لتثبيتها على البدلة . . لا يوجد ما يصلح لهدية الوداع . . يفكر في قصيدة أو عبارة مأثورة يحفظها ويستطيع أن يتركها هنا لسافاتسكي . . فلقد أنقذه الكثير من العبارات من براثن الأزمات وساعده على تجاوز فترات عصيبة . . قالت فرنسراز: الكلمة التي أحتاجها لا أملك أن أمنحها لنفسي» . . لم تجد كلمتها ولا هو كلمته أيضًا . . يستجيب لوحي ما ويدخل يده داخل جيب معطفه ويخرج منه قلم حبر لونه أخضر في أسود من ماركة بيليكان، إنه هدية من إينس منذ عامهما الأول معًا ويحبه كثيرًا . . «أليس جميلاً؟»، يعد السؤال بمثابة تقرير للواقع ومن ثَمَ لا ينمُّ عن أي منطق.

يقول سافاتسكي: «نعم، إنه جميل جدًا..».

«ألا تكتب أحيانًا خواطرك، فقط من أجلك أنت؟».

«كنت أفعل ذلك سابقًا في بعض الأحيان».

«أريد أن أهديك هذا القلم».

ينظر سافاتسكي باندهاش، يحك أنفه ولا يعرف ما يمكن أن يكون رد فعله على ذلك.

«خذه.. سوف أسعد بوجوده معك.. الأمر بهذه البساطة.. ربما تريد أن تدون بعض الأشياء أو أفكارًا، لا أعرف.. إنه يكتب بشكل ممتاز.. انتظر، سوف أترك لك دواية الحبر.. هل تحتاج لورق أم أنهم سيعطونك إياه؟ لا أتصور أنهم سيمنعونك عن الكتابة، أليس كذلك؟».

«لا أعرف».

يقلب سافاتسكي القلم بين يديه ويقول ضاحكًا: «سوف أكتب به أشياء مرعبة.. أشياء مرعبة ولها عواقب مخيفة.. هل أنت على استعداد لتحمل مسئوليتها؟».

يشعر سيزمار بغضب.. كان له هدف جاد من وراء هذا التصرف.. لا يريد أن يصير أضحوكة.. يخجل من نفسه للحظة ويفكر: 'كم أنا أحمق'.. لم يعر انتباهًا للعواقب وفات الأوان الآن.. يتساءل عن إمكانية قطع وريد اليد بالريشة المدببة في مقدمة القلم، يُذَكِر نفسه بأنه يجب عليه الحديث إلى المدير

وكذلك الدكتور توفيق إن تتطلب الأمر حتى لا يأخذا القلم منه على الفور . . قد يتسبب ذلك في مواقف محرجة للغاية».

يقول سافاتسكى: «إنها هدية جميلة».

سوف تفهم إينس الوضع . . أو لن تبدى تفهمها وتصاب بخيبة أمل وتتهمه بعدم حبها . . يستطيع شراء القلم نفسه فى بون قبل أن تلحظ هى أى شىء.

يسأل سافاتسكى: «هل لديك ورقة لى؟».

«بالطبع».

يرسم سافاتسكى موجة من اليمين إلى اليسار وتحته خط مستقيم أفقى . . لا يكتب كلمات . . يقول: «يكتب بشكل جيد».

«أسعد بذلك . . كان محتملًا ألا تكتب ريشة القلم بشكل جيد لأنها تعودت على يدي . . عادة ما تستخدم قلمًا كهذا طوال عمرك . . إنه شىء شخصى جدًا . . ما كنت أبدًا لأعطيه أحدًا».

بات هذا الصمت المشترك صعب الاحتمال، على الأقل هذا ما يشعر به سيزمار . . يجب على كل الحاضرين نسيان لفتات من هذا النوع والانتقال للنقطة التالية: «هل لديك رغبة فى أى شىء آخر؟ هل ينقصك شىء؟ أستطيع أن أطلب من زميلى أن يحضره لك المرة المقبلة».

يفكر سافاتسكى للحظات ويقول: «لا يخطر على بالى شىء» . . يصمت ثم يواصل حديثه: «ربما نعم؛ عطر . . عطر جيد . . إن لم

يكن باهظ الثمن».

«لا توجد مشكلة .. سوف أتولى الأمر .. لدينا ميزانية خاصة لذلك أستطيع شراءه منها ..».

يرسم سافاتسكى بعض الدوائر على الورقة .. يفكر سيزمار: "عليه أن يكتب جملة أو كلمة على الأقل" .. يهتم بأول شىء سيخطر على بال سافاتسكى حتى إن كان مجرد اختبار .. سيسمح بنظرة خاطفة إلى داخل قلبه يود أن يلقيها.

قبل كل شىء .. يستطيع سيزمار أن ينهض الآن ويودعه ليذهب إلى المنزل، ويساعد إينس فى إعداد الحقائب .. ولكنه يتردد: «هناك شئ آخر أود أن أسألك عنه».

«منذ متى وأنت توجه أسئلة بهذا التكلف؟».

«لا تفهمنى بشكل خاطئ؛ بكل بساطة أود أن أعرف هذا الموضوع».

«إذن فلتسأل».

«كيف انتهت قصتك مع أروى؟».

«لماذا؟».

«دعنا نقل لأسباب شخصية».

«نحن كثنائى، من الأفضل أن نقول إننا لم نكن ثنائيًا، لسنا ذوى أهمية».

«ليس بالنسبة لي . . على الإطلاق . . لا يمكنني شرح التفاصيل . . ربما مرة أخرى» . .

«لا توجد أمور كثيرة أستطيع أن أقصها» .

« أعني؛ كانت علاقتكما وثيقة، تخللتها لحظات سعادة وتعاسة وبشكل ما هى علاقة مميزة، ليست عادية . . هذا ما قلته أنت بنفسك . . أعرف مواقفًا مشابهة . . شيء طبيعى . . كلنا مررنا بتجربة الانفصال . . عندما نفترق للأبد فيرتبط ذلك عادة بكثير من المشاعر، ذلك اللقاء الأخير» .

«لم تحدث دراما، إن كنت تقصد ذلك . . لقد تقابلنا مثل المعتاد . . وكان ذلك قبل سفرى بعدة أيام . . فى مقهى . . فضلنا نحن الاثنان أن يكون مكان اللقاء محايدًا . . كانت أروى تعرف أننى راحل وكانت مُلمة بالأسباب . . فى وقت ما يحين ميعاد اللقاء الأخير . . أحيانًا تدرك ذلك لحظة حدوثه وأحيانًا لا تدركه . . كان مقهى عاديا ليس مزدحمًا بالناس، لم يكن معنا سوى بعض الناس المتفرغين والطلاب وأصحاب المهن الحرة . . الموسيقى متزنة بدرجة تسمح بتجاذب أطراف الحديث دون أن يسمع نصف الحاضرين التفاصيل . . كان الميعاد فى الثالثة بعد الظهر . . ذهبت بضع دقائق قبلها وجلست لحين وصول أروى على إحدى الموائد بأرجل حديدية وقرص رخام مستدير بعيدًا عن باقى الضيوف . . لا أتذكر النادلة . . ربما كان نادلًا . . طلبت أروى قهوة وأنا شايًا . . طلبت أيضًا إحضار سكر إضافى . . غريب ألا أتذكر إذا كانت الخدمة من رجل أم امرأة . . أخذ كل واحد منّا يقلب فى

فنجانه، محتمل بشكل أبطأ وأهدأ عن المعتاد. . هل تعرف هذا الشعور؛ تُقَلِّب القهوة أو الشاى كأنك تدور حول فكرة فى ذهنك. . لم يكن هناك الكثير لقوله . . ولا أى شىء فى واقع الأمر . . دارت النقاشات كلها فى وقت سابق . . ولم يطرح حينها سؤال حول رغبتنا فى الاستمرار معًا والزواج وإنجاب الأطفال أو استعداد أحدنا للتضحية بكل شىء من أجل الآخر ، كل هذا العبث الرومانسى . . لم نرغب فى هذا النوع من الحب؛ مبالغات بعيدة عن الواقع حُمِلَت بتوقعات مصطنعة لا يقوى عليها أى فرد أو أى علاقة مشتركة. . لو كانت أروى مقتنعة أو أتيحت لى أو لكريم فرصة إقناعها بأن وقت الجهاد قد حان بالفعل لربما قد جاءت معنا . . فهناك العديد من السبل أمام النساء لدعم المعركة. . لقد اختلفنا لشهور حول هذه المسألة، أحيانًا بمنتهى العنف . . كان الخلاف مؤلمًا على الرغم من عدم رغبة أى طرف فى جرح الآخر . . ولكن بمنتهى البساطة لأن الأمور زادت وضوحًا . . لم تكن أروى تقيِّم الوضع بشكل مختلف عنا. . الإمبريالية الأمريكية والاحتلال غير الشرعى لفلسطين وقهر المسلمين فى البوسنة وأماكن كثيرة فى العالم. . كانت متفقة معنا فى الرؤية؛ أن المجتمع الغربى الذى يصعب نعته بالتمدن؛ قد لحق به الفساد من القاع وأنه يبعد أفراده عن أهدافهم الحياتية الفعلية، ويصيبهم بالتبلد ويلهيهم حتى الموت لينسوا إلى الأبد هدف خلق الله للإنسان. . كان تصديق أروى على كل ذلك ممكنًا. . ولكنها لم تقبل على الرغم من ذلك بالكفاح المسلح طريقًا. . قالت: "لن تفيدوا أحدًا بالبندقية التى تحملونها، ولن تفيدوا قضية الإسلام على الإطلاق . . سوف تُقْتَلون عاجلًا أو آجلًا أو تُحْبَسون دون تحقيق أى هدف من أهدافكم . . فى نهاية

الأمر لن تُزيدوا مَنْ تحاربونهم إلا قوة؛ سوف يتحدون بشكل أكبر ليصنعوا قوانين جديدة ويُحسِّنوا من وسائل رقابتكم حتى لا يمكنكم تنظيف منخاركم دون أن تسجل أجهزتهم ذلك" . . ربما كانت فى قولها هذا على حق . . برؤية من الخارج . . ربما لن نصل لشىء أو نصل لعكس ما سعينا إليه . . ولكن تتساوى المسألة فى نهاية الأمر . . نحن لا نحارب من أجل الانتصار ولكن لأن الحرب فُرِضَت علينا . . أما الانتصار أو الهزيمة فهما بيد الله . . لا نعرف ما هو فاعل بنا ولا إلى أين يقودنا . . نحن نثق فى الله».

«أقصد؛ كيف كان الموقف تحديدًا وأنت جالس هكذا؟».

«أتريد أن تعرف إذا ما انخرط أحدنا فى البكاء أو كسر الأوانى التى أمامه ؟ أو ربما قبلة أخيرة حائرة مثلما حدث فى فيلم "Casablanca" ؟ كل هذه المشاعر العظيمة والجميلة والخاطئة أيضًا . . ألم أقل لك أنت تشاهد الكثير من الأفلام أو تقرأ الكتب الخاطئة . . تُهَوِّل قيمة المشاعر بشكل مبالغ فيه . . إنها مجرد كيمياء للمخ وليس أكثر . . ينطبق ذلك على الموت أيضًا . . الفيصل ما هو أبعد من ذلك».

«ولكن بالتأكيد كانت هناك لحظة وداع».

«كنا ننظر إلى بعضنا بعض ، أو من النافذة أو إلى العدم . . كان يعترينا حزن . . بالطبع وردت إلى أذهاننا؛كان يمكن أن تسير الأمور بشكل مختلف . . بالطبع لا . . إنه من العبث إجهاد تفكيرك فى السؤال عن "ماذا لو"، . . كل هذا لا يحوى أى معنى؛ فرص فائتة، لحظات مفقودة وقرارات خاطئة . . لا توجد حياة

سوى التى عشـناها . . لو نظرنا إليها بعين العقل لوجدنا أنها كانت الحياة الوحيدة المتاحة لنا وأننا عرفناها منذ البداية . . وقبلناها كذلك منذ البداية . . سـعدت بأغنيــة "Solsbury hill" فى هذه اللحظة . . ذكرتنى بمحاولتى منذ زمن بعيد أن أقضى على نفسى بالمخدرات والرثــاء لروحـــى . . كنــت سـعيدًا أن الله قد هدانـــى لمخرج من الظلمــات . . لقد حكيت لأروى مرة أخرى لحظة انتظارها للبيتزا ومحاولتــى القيام بأشـياء غريبــة للتعرف عليهــا . . كانت تعرف كل هذه الحكايات ســابقًا . . قامت هى أيضًــا بقصــص المواقف التى كنــت أعرفها؛ كيف أنها رأتنى للمرة الأولى عند كريم وظنت أننى مجنون ، مجنون تهتم بأمره . . كان يجب أن نضحك على كل هذه الأمور . . ظللنا جالسين لساعة ونصف الساعة تقريبًا . . ثم دفعت الحساب ونهضنا لارتداء معاطفنا ، كان الجو باردًا فى الخارج . . برد وليس صقيعًا . . الطقس غير محدد ، سحب ، ولكن لا جليد ولا أمطار . . لم نتعانق أبدًا فى العلن ولذا لم نفعل ذلك فى هذه اللحظة أيضًــا وكان التصافح بالأيدى سيبدو مضـــحكًا . . وقفنا للحظة . . لا أتذكــر مــن أدار ظهره أولًا ، هـــى أم أنا . . ذهبــت أروى إلى مـكان ما ، أما أنــا فذهبت إلى المنزل . . كان لـدىَّ بعض الأمور التى يجب أن أنهيها؛ أن أتخلص من بعض الأشـياء التى لا أستطيع اصطحابها . . هكذا انتهى كل شىء».

ســـرى خاص - محظور التـــداول ولا يتم الاطـــلاع عليه إلا بمعرفة المختص

عاجل جدًا

من القاهرة

14 مارس1994، الســـاعة الثانية عشرة وستة وخمسون دقيقة حسب التوقيت المحلي

موجه إلى: وزارة الخارجية، قسم 301.

موجه أيضًـــا إلى: رئيس ديوان المستشـــارية الألمانية، وزارة الداخلية.

رقم الملف: 716 الشئون القانونية والقنصلية.

حرر من قبل: الدكتور فريية.

بخصوص: إعدام المواطن الألمانى يوخن سافاتسكى.

يتعلق الأمـــر هنا بتنفيذ حكم الإعدام فى ســـجن الحرية بالقاهرة الصـــادر بتاريخ 24 فبراير1994، تم تحديد توقيت وفاة المواطن الألمانى من قبل طبيب السجن.

-للاطلاع-

الفقرة الأولى

ملخص:

أُعدِمَ المواطن الألمانى يوخن عبد الله سافاتسكى شنقًا صباح اليوم داخل سجن الحرية ذى الدرجة الأمنية العالية . . تم الإعدام فى حضورى . . تأكد طبيب السجن، الدكتور محمد المالك من وفاة المواطن الألمانى . . تسلمت المتعلقات الشخصية للمتوفى.

نُفِذَ قبلها حكم الإعدام فى شريكيه سمير المصرى وصلاح محمودى.

الفقرة الثانية

التفاصيل:

أولًا: نُفِّذَ اليوم الموافق الاثنين 14 مارس1994 ، فى تمام الساعة التاسعة وسبع وثلاثين دقيقة صباحًا حسب التوقيت المحلى داخل سجن الحرية ذى الدرجة الأمنية العالية بالقاهرة، حكم الإعدام فى المواطن الألمانى يوخن عبد الله سافاتسكى الذى كان قد صدر بحقه حكم من المجلس الأعلى للقضاء العسكرى يوم24 فبراير 1994؛ بالإعدام شنقًا . . تم تنفيذ الإعدام فى حضور ستة شهود . . وكان الشهود الحاضرون بخلافى هم المقدم إبراهيم المغوط، مدير السجن والدكتور أحمد توفيق ممثلًا لوزارة

الداخلية ورئيس قسم مكافحة الإرهاب والدكتور محمد المالك طبيب السجن المسئول وأيضًا مسئولا التنفيذ وليد حسينى وأيوب متولى.

ثانيًا: أتيحت لى الفرصة مباشرة قبل تنفيذ الإعدام لتبادل بعض الكلمات مع المواطن الألمانى.. وحسب انطباعى الذى يتطابق مع اللقاءات المتوالية فى الأشهر السابقة، فإن سافاتسكى تقبل موته الوشيك دون أدنى تحرك لمشاعره.. وحتى فى تلك اللحظة لم يبد أى مظهر للندم أو التأثر.. وبسؤالى عن رغبته فى قول أى شىء ردَّ ببساطة: «إن قتلى أمر جيد.. على الأقل بالنسبة لى».

ثالثًا: عملية الإعدام نفسيا تمت دون وقوع أى أحداث استثنائية.. وبقدر ما كان واضحًا من خلال الزجاج، فلم تتغير الحالة المزاجية للمواطن الألمانى حتى بعد تعصيب عينيه ولف الحبل حول رقبته.. وكما أخبرنى لاحقًا منفذ العملية أ.. متولى فقد كان سافاتسكى يدعو حتى النهاية وذلك بآخر سورة فى القرآن (سورة الناس).

رابعًا: حدد طبيب السجن فى الساعة التاسعة وإحدى وخمسين دقيقة حسب التوقيت المحلى وفاة المحكوم عليه نتيجة كسر فى العنق.

خامسًا: سلمنى مدير السجن المقدم إبراهيم المغوط لاحقًا المتعلقات الشخصية للمتوفى.. وكانت عبارة عن سروال داخلى، زوجين من الجوارب، فانلة، سروال، حذاء بووت جبلى ماركة «داخشتاين»، ساعة يد ماركة «دوجينا»، زجاجة

عطر «تروساردى أوومو»، قلم حبر ماركة «بيليكان»، زجاجة حبر أزرق ملكى داكن ماركة «بيليكان»، كما توجد أيضًا مجموعة أوراق مكتوبة – حسب ما صرح به الدكتور أحمد توفيق عند اطلاعه عليها قبل تسليمها – بها سورة «الناس» المذكورة أعلاه، نقلها سافاتسكى بضع مئات المرات . . سوف يتم إرسال المتعلقات فورًا إلى وزارة الخارجية.

سادسًا: تم قبلها تنفيذ حكم الإعدام فى المسجونين الآخرين سمير المصرى وصلاح محمودي، المشتركين فى هجوم الأقصر الذى تم إحباطه يوم 14 نوفمبر 1993 .

الفقرة الثالثة

التقييم:

بعد توقيع الرئيس المصرى محمد حسنى مبارك يوم 9 مارس 1994، على كل من الأحكام الثلاثة بالإعدام بتاريخ 24 فبراير 1994، كان إعدام سافاتسكى مرتقبًا . . فقد أوحى الرفض لكل المقترحات والعروض الألمانية فى الأسابيع الماضية وكذلك الإشارة القاطعة من وزير الداخلية المصرى حسن الألفى فى حوارى معه يوم 10 مارس 1994، بعدم وجود فرص لنجاح المحاولات التى تهدف إلى تحويل حكم الإعدام للمواطن الألمانى إلى سجن مدى الحياة إلى أن أصبح تنفيذ حكم الإعدام بات قريبًا.

بما أن يوخن سافاتسكى يعتبر من وجهة النظر الألمانية حالة فردية لا يتوقع أن يحذو شخص ما حذوه ؛ فليس من الممكن التنبؤ بنتائج إعدامه فى المستقبل حسب تقديري .

وعلى الرغم من ذلك يجب أن تخضع القضية فى مجملها لإعادة التقييم الدقيق مرة أخرى؛ فلقد ارتكبت السفارة من وجهة نظرى أخطاءً فادحة فى إستراتيجية الحوار وإدارته خاصة فى مرحلة ما قبل بدء التحقيقات ، مما قد صعب عملية التجاوب من الجانب المصرى ، إن لم يكن قد جعله مستحيلًا . . لقد أعاق نقص الشفافية فى إجراءات كثيرة عملية شحذ القوى وترتيب الإجراءات من جانب السفارة ، أخذ شركاء الحوار على الجانب المصرى انطباعًا بالتردد وصولًا إلى افتقاد المنهج . . وفى هذا السياق لا بد من طرح سؤال أساسى عن مدى السماح للمحاولات الفردية بالتحرك ، وعن ضرورة تدخل وزارة الخارجية لتعديل مسارات اتخذها المسئولون قد لا تَعِدُ بالنجاح ، وذلك حتى لا نعرض أهدافنا للخطر ونتمكن من تحقيقها فعليًا ، قضايا كتلك التى أمامنا والتى تجذب انتباه الرأى العام إليها وتجد أصداء متعددة فى الإعلام ، تخبئ أيضًا خطرًا يرتبط بالتغطية الإعلامية والنقاشات التى قد تؤدى الى انزلاق العمل الدبلوماسى بأكمله إلى موضع غير محمود.

الدكتور كونراد فريبة

(القائم بأعمال السفير)

المؤلف فى سطور :

كريستوف بيترس

ولـد الكاتـب الألماني عــام1966 ، فــى مدينة كالـكار بولاية شــمال الراين – ويســتفاليا الألمانية. درس فن الرسم فى أكاديمية الفنــون الجميلــة بمدينة كارلســروهه فى الفترة مــن 1988وحتى 1994 ، حصــل عــن أول رواية لــه «المدينة والبلــد والنهر» عام 1999 علــى جائزة «Aspekte» الأدبية، تلتها العديد من الروايات والمجموعات القصصــية وكان آخرها رواية «نحن في كالينبيك» التى صدرت عام 2012 واختيرت ضمن القائمة الطويلة المرشحة لجائزة أفضل رواية ألمانية.

لبيترســ اهتمام خاص بالعالم الإســلامي والعربى منذ أن زار مصــر والقاهرة في بداية التســعينيات، ولقد أفــرزت هذه التجربة هذه الروايــة التى تعد أول ترجمة عربية لأحــد أعمال هذا الكاتب المتميز.

المترجمة فى سطور:

هبة الله فتحى

أستاذ مساعد للأدب الألماني الحديث والمعاصر بكلية الآداب جامعة القاهرة، تعمل منذ عام ٢٠٠٢ مترجمة تحريرية وشفوية حرة للغتين العربية والألمانية، وقد ترجمت عام ٢٠٠٧ التقارير الصحفية الخاصة بعام العلوم والتكنولوجيا المصرى الألمانى، وعملت عام ٢٠٠٨ مترجمة ومحررة فى المركز الألمانى للإعلام في السفارة الألمانية فى القاهرة، كما أنها مترجمة معتمدة لدى السفارة الألمانية في القاهرة. حصلت الدكتورة هبة الله فتحى عام 2012، على جائزة المترجمين من الألمانية إلى العربية فى فئة المترجمين الشبان التي يمنحها المركز الثقافى الألمانى (معهد جوتة) عن ترجمة جزء من رواية «حجرة فى دار الحرب» للكاتب الألمانى كريستوف بيترس.

التصحيح اللغوى: كريمان البدرى

الإشراف الفنى: حسن كامل